بوزياني الدراجي

سلسلة العصبية القبلية

دول الخوارج والعلويين

الجزء الأول



دار الكتاب العربي
الجزائر

"الجزء الأول"

العصبيـــة القبليـــة

أثرها في قيام الدول وسقوطها

ونشاط الحضارة وأفولها بالمغرب

دول الخوارج والعلويين

(في بلاد المغرب والأندلس)

بوزياني الدراجي

سلسلة العصبية القبلية

دول الخوارج والعلويين
(في بلاد المغرب والأندلس)

دار الكتاب العربي

• سلسلة العصبية القبلية
أثرها في قيام الدول وسقوطها
ونشاط الحضارة وأفولها بالمغرب
• دول الخوارج والعلويين (في بلاد المغرب والأندلس)
• الجزء الأول
• بوزياني الدراجي
• الطبعة الأولى 2002

• الناشر: دار الكتاب العربي
حي العناصر عمارة 309 رقم 03 القبة الجزائر

إيداع قانوني: 1013-2002
ردمك: 9-65-831-9961



دار الكتاب العربي

حي العناصر عمارة 309 رقم 03 القبة الجزائر

هاتف: 84 15 29 021

تلفاكس: 31 13 29 021

طبع مشترك

الطبعة الأولى - 2002

رسم الغلاف: لويزة الحسين

صمم الغلاف: فراس الجهماني

الإهــــداء

ـ إلى شهـداء الجزائـر الأبـرار الذيـن قدمـوا أرواحهـم من أجـل قيام دولـة جزائرية عزيزة مستقلـة وموحـدة.
ـ إلى المجاهديـن المخلصيـن لهـذه البـلاد الطاهــرة؛ الذين حققـوا المعجـزة وحـرروا البـلاد والعبـاد.
ـ إلى شبـاب الجزائـر المستقلـة الذيـن يضحــون بكــل غـالٍ ورخيـصٍ في سبيــل وحــدة الجزائــر وازدهارهــا الثقـافي والاقتصادي.
ـ إلى كـل امـرأة جزائريـة حافظـت عـلى قيـم شعبهــا وثوابـت أمتهـا.
ـ إلى كـل هـؤلاء جميعا أهـدي كتـابي المتـواضع هـذا؛ راجيا من اللـه أن يكـون لبنـة جديـدة تضـاف إلى صرح بـلادي الثقـافي.

المقدمة

يدخل هذا الكتاب ضمن سلسلة تاريخية ستنشر تباعا بإذن الله. وتعالج هذه المجموعة من الكتب مواضيع تتعلق بتاريخ المغرب والأندلس؛ انطلاقا من الفتح الإسلامي وحتى حلول العهد العثماني. ولا بد هنا من التنبيه إلى أني قد التزمت ـ في إعداد هذه الدراسات ـ بمنهج يميل إلى شكل من أشكال الكتابة التي تنطوي على قراءة جديدة للأحداث. ويعتمد هذا الأسلوب على تطبيق نظرية ابن خلدون بخصوص العصبية القبلية؛ تلك النظرية التي تفسر أثر العصبية في قيام الدول وفي سقوطها. ويعود سبب اهتمامي بموضوع العصبية القبلية إلى إيماني الشديد بما سعى ابن خلدون إلى إبرازه؛ بخصوص تلك الظاهرة الاجتماعية السلبية التي هيمنت على المجتمعات المغربية؛ الأمر الذي جعلها بمثابة الأداة المعرقلة والمقيدة لكل ما من شأنه إضفاء حركة تنموية، وعمل تنظيمي على المجتمع المغربي بكامله.

لقد اكتشف ابن خلدون ـ بعد تأمل عميق وتجربة واسعة ـ أن ظاهرة العصبية في بلاد المغرب وقفت في طريق كل المحاولات الممهدة لقيام أي دولة قوية أو لاستقرار أي تنظيم مخالف للتنظيم القبلي؛ ذلك التنظيم الذي يفتقر ـ بدوره ـ للاستقرار والانضباط. وعليه فقد وضع نظريته ليساعد الدارسين لتاريخ هذه الديار على فهم السبب الكامن وراء التخلف السائد في بلاد المغرب؛ ذلك التخلف الذي منع كل تطور وتقدم نحو حياة جديدة فاضلة؛ كان ابن خلدون قد عرفها في بلدان أخرى. وإذا كان هناك من يشكك في موضوعية النظرية الخلدونية

وصحة طرحها؛ فإن قراءتنا نحن للأحداث التاريخية والأوضاع الاجتماعية والسياسية في بلاد المغرب تجعلنا أكثر قربا من التسليم بها وتصديق معظم ما جاء فيها.

وإذا كان ابن خلدون يصف ظاهرة اجتماعية سلبية كانت سائدة في عصره المظلم؛ ذلك العصر الذي تميز بالتراجع والانكماش في الميادين الحضارية كافة من: فكر وثقافة، أو صناعة وابتكار، أو عمران وبناء، أو سياسة مدنية، أو اقتصاد منظم؛ فإن تلك الظاهرة الاجتماعية السلبية ما زالت متحكمة فينا، ومهيمنة علينا حتى في زمننا هذا؛ حيث ظلت الروح القبلية والنزعة للعصبية في أوج قوتها وعنفوانها؛ على الرغم من انتسابنا للقرن الواحد والعشرين، وعلى الرغم من قربنا من مراكز الحضارة الحديثة، وعلاقاتنا الوطيدة مع المجتمعات المدنية المتحضرة في العالم المتقدم.

ولما كان التاريخ ـ دوما ـ عبارة عن مخزون حضاري وثقافي يلخص تجارب الأسلاف.. مخزون يوضع بين أيدي الأجيال الحديثة للاستفادة من تجارب غيرهم، ولأخذ العبر من الأحداث التي مرت بالأجداد؛ فأني وجدت من الضروري ـ هنا ـ معاودة الكشف عن خطورة ظاهرة العصبية القبلية المتخلفة، وتأثيرها على سلامة وأمن مجتمعنا، وعلى استقرار المؤسسات الحضارية القائمة فيه. وعليه فلو تأملنا جيدا في معظم الأحداث التاريخية الموغلة في القدم ـ أو على الأقل ـ التي سادت البلاد منذ الفتح الإسلامي؛ لوجدنا أنها عبارة عن تسجيل وتاريخ لأحداث متواصلة من الحروب والفتن الدائمة بين القبائل فيما بينها، أو بين القبائل والدولة التي أقامتها قبائل أخرى؛ بحيث لم تعرف الأطراف المتورطة كلها فوائد الأمن والاستقرار؛ سواء: القبائل المشاغبة، أو الدول المدافعة عن كيانها، أو الدولة التي سعت القبائل لإقامتها وحمايتها.

وسيلاحظ القارئ في هذا البحث كيف عانى الفاتحون العرب من ظاهرة العصبية القبلية؛ سواء كان ذلك من داخل أوساطهم المريضة بالعصبية القبلية، أو بواسطة القبائل الأمازيغية المعادية لهم؛ والتي تتحكم فيها عصبيات عاتية أيضا. لذا كانت جل الفتن والحروب بين الفاتحين والأمازيغ مصدرها العصبية. ومما يعزز الرأي الذي يحصر الخصومات التي قامت بين الفاتحين والأمازيغ في نطاق العصبية لا غير؛ هو أن الثورات الأمازيغية بكاملها تقريبا كانت تتمسك بالدين الإسلامي؛ وترفع شعاره عاليا؛ بل يصل تمسكها بالإسلام إلى درجة التعصب والتزمت أحيانا. وهذا ما يمكن ملاحظته في ثورات الخوارج من الصفرية والإباضية؛ تلك الثورات التي انطلقت اعتبارا من الربع الأول من القرن الثاني الهجري؛ إذ كانت كلها ـ مع كثرتها ـ تنادي بالمبادئ الإسلامية؛ بل تخضع لمذاهب عربية إسلامية أصلا. كما ترحب بالنموذج الحضاري العربي وتتبناه؛ سواء في جانبه الثقافي أو في جانبه الاجتماعي. وأهم ما يمكن ملاحظته هو أنه يمكن التأكد ـ بسهولة ـ من طبيعة الدول التي قامت في بلاد المغرب؛ إذ منها: من تأمر عليها ملوك من أصل أمازيغي يلتزم بالإسلام دينا، وبالعربية ثقافة؛ ومنها من سلمت قيادها طوعا إلى ملوك من أصل عربي؛ ولكنها ـ في حقيقة الأمر ـ كانت أمازيغية التركيبة والنشأة؛ إذ قامت على دعائم رفعت بسواعد قبائل أمازيغية، وبقيت طوال حياتها أمازيغية المحتوى والتركيب، إسلامية العقيدة.

وعلى الرغم من قيام دول أمازيغية قوية في ربوع المغرب؛ فقد لوحظ تمسكها بالإسلام ودفاعها عنه بكل قوة وإصرار؛ سواء كانت تلك الدول خارجية كـ: دولة بني مدرار، والدولة الرستمية؛ أو سنية مثل: دولة المرابطين والموحدين وغيرهما؛ أو علوية كـ: الدولة الإدريسية التي أقامتها قبائل أمازيغية واستماتت في حمايتها؛ ثم الدولة الفاطمية التي نشأت

بسواعد أبناء كتامة وصنهاجة. وعليه فلا شك في أن أي صراع حدث بين قبائل المغرب والدول القائمة في تلك الأثناء لا يعدو أن يكون محصورا في نطاق العصبية القبلية؛ كما لا يخرج عما ذكره ابن خلدون حول تطلع القبيلة - كل قبيلة - ورغبتها في الوصول إلى مرتبة الملك؛ كمرحلة طبيعية؛ تقتضي تطور السلطة في القبيلة من مرتبة الرئاسة إلى مرتبة أعلى وأسمى وهي الملك.

ولا تفوتني - قبل الختام - فرصة التنويه بالمجهود الكبير الذي بذل من طرف دار الكتاب العربي بالجزائر في نشر وطباعة هذا الكتاب - وغيره من الكتب التي أتممتها - بهذا الشكل الأنيق الجيد. وأخص بالذكر - هنا - مدير الدار السيد **محمد خير الجهماني**، وولديه: **مهند الجهماني، وفراس الجهماني**؛ بالإضافة إلى الآنسة الفنانة **لويزة الحسين**؛ التي لم تبخل - في كل مرة - بما حباها الله من إحساس مرهف كي تمنح كتابي لوحات معبرة بريشتها الذهبية.

بوزياني الدراجي

الجزائر في: 4 - جوان - 2001م

مدخل

يتضح من عنوان هذا الكتاب؛ أن للموضوع شقين: أولهما يتعلق بنشأة الدولة وسقوطها؛ وثانيهما يعالج نشاط الحضارة وأفولها؛ وذلك من خلال تأثير ظاهرة العصبية القبلية عليهما. وستتم معالجة الشقين ـ ضمن هذا المجال ـ في سياق واحد؛ دون اللجوء إلى الفصل بينهما؛ لأنهما متكاملان، ويدوران ـ معا ـ في حلقة واحدة.

فعند التأمل في موضوع نشأة الدولة؛ سينساق الذهن ـ منذ الوهلة الأولى ـ نحو إيجاد تصور للكيفية التي نشأت بها الدولة الأولى عبر التاريخ؛ في المجتمعات الإنسانية عموما. ويبدو أن هذه الفكرة تحتل مكانة ذات إغراء وإثارة أكثر من مجرد الاكتفاء باستقراء وتتبع الطريقة التي قامت بها دولة ما؛ على أنقاض دولة أخرى. وعليه فبفضل هذه الدراسة، وما يليها ضمن هذه السلسلة؛ ستتضح الصورة عن الكيفية التي تنشأ أو تسقط بها الدولة. وهنا سيتحتم ـ في هذا السياق ـ الاعتماد على نظرية ابن خلدون؛ لكونه احتل مكانة مرموقة ومتقدمة بين المفسرين لنشأة الدولة بالمغرب الإسلامي بصورة خاصة، والمجتمعات الإسلامية عامة.

وكما هو معروف فنشأة الدولة ـ عموما ـ ليست سوى خطوة حدثت بين خطوات عديدة سبقتها؛ ضمن مسيرة الإنسان الطويلة؛ عبر الفترات التاريخية المختلفة في سبيل تحقيق التمدن والتحضر. وهذا ما يمكن استنتاجه من خلال الشواهد التي

تثبت مواكبة نشأة الدولة ـ في غالب الأحيان ـ للنشاط العمراني، والازدهار الحضاري. وبالمقابل فقد لوحظ أن سقوط الدولة ينجر عنه ـ في جل الحالات ـ انهيار عمراني، وتقهقر حضاري.

فالدارس لتاريخ بلاد المغرب سيلاحظ ـ حتما ـ ما تعرضت له هذه البلاد من تقلبات؛ نتيجة لطغيان ظاهرة اجتماعية مثيرة للجدل؛ تركت بصماتها العميقة في المسار التطوري للمجتمعات المغربية، ومنعت كل نشاط يهدف إلى استقرار الدول في تلك الديار. وهذه الظاهرة تتمثل في كثرة القبائل وتباينها، وتعدد العصبيات واختلافها. ويبدو أن الذي اكتشف تأثير هذه الظاهرة قبل غيره هو عبد الرحمن بن خلدون؛ ذلك النابغة الذي خصص فصلا مستقلا في مقدمته يشير فيه إليها وهو: "**فصل في أن الأوطان الكثيرة القبائل والعصائب؛ قل أن تستحكم فيها دولة**".[1]

وقد برهن على رأيه ـ في هذا السياق ـ ببعض الأمثلة التي جرت في بلاد إفريقية والمغرب. كما حرص على مقابلتهما بما هو حاصل في بلدان أخرى؛ كانت تتميز بقلة القبائل وضعف العصبية. ثم أشار إلى موقف المسلمين خلال فتح ديار المغرب؛ أي حينما واجهتهم مقاومة شديدة؛ لم تواجههم عندما فتحوا أقطارا أخرى آنذاك. ومن الأمثلة التي ذكرها؛ ما حدث لهم في العراق والشام؛ أيام الفتح الإسلامي. ثم علل استقرار الأمر في تلك الديار المشرقية؛ بكون حامية الدولة فيها ـ آنئذ ـ كانت من الفرس والروم. أما بقية السكان؛ فكانوا كما ذكر: ((**دهماء وأهل مدن وأمصار**)). وواصل ـ بعد ذلك ـ شرح فكرته بقوله: ((**والبربر قبائلهم بالمغرب أكثر من أن تحصى؛ وكلهم بادية، وأهل عصائب وعشائر. وكلما هلكت قبيلة؛ عادت الأخرى مكانها وإلى دينها؛ من الخلاف والردة. فطال أمر**

---

[1] المقدمة، ج: 2، ص: 646.

العرب في تمهيد الدولة بوطن إفريقية والمغرب)).[1] وبعد الشرح والتعليل تطرق إلى ما ذكره بعض المؤرخين والنسابين؛ بخصوص ما قيل عن ارتداد سكان المغرب اثنتي عشر مرة. ومن هنا يحق لنا أن نتساءل.. عما يمكن أن يفهمه القارئ من هذه الأقوال؟

فما يمكن استنتاجه هنا.. هو أن للعصبية أثرا كبيرا؛ على نشأة الدول وسقوطها في هذه الديار. والدليل على ذلك يظهر من خلال ما واجه المسلمين من أحداث؛ على الرغم من قوتهم، وتعدد جيوشهم، وصدق دعوتهم. حيث واجهتهم ـ في بلاد المغرب ـ صعوبات كثيرة؛ عرقلت مساعيهم؛ قصد ترسيخ سلطانهم، وتثبيت دعائم الدولة الإسلامية. وربما استعصى عليهم تحقيق ذلك الأمر؛ ولم يتمكنوا من تمهيد البلاد إلا في عهد موسى بن نصير؛ كما ذكر ابن خلدون. أما عبد الله المالكي، والرقيق القيرواني؛[2] فيجمعان على استقامة الأوضاع بإفريقية في عهد حسان بن النعمان. ومع هذا يبدو أن استتباب الأمر لم يدم طويلا؛ حيث عادت الفتن، والحروب من جديد؛ ودون توقف. ويرجع السبب في ذلك إلى العصبية المهيمنة، والطابع القبلي؛ الذي يتميز بهما المغرب. هذا بالإضافة إلى ظاهرة البداوة؛ المتفشية في تلك الربوع؛ نظرا لكون الأمازيغ يعتبرون من أهل العصبيات والأنساب؛ كما يقول ابن خلدون ضمن **"فصل في أن المدن والأمصار بإفريقية والمغرب قليلة".**[3]

وإذا كانت للبيزنطيين آثار بارزة ـ لا ينبغي نكرانها ـ في تغذية المقاومة، وتحريض القبائل الأمازيغية ضد المسلمين؛ خلال

---

[1] المقدمة، ج: 2، ص: 647.

[2] رياض النفوس، ج: 1، ص: 57. وتاريخ إفريقية والمغرب، ص: 64.

[3] ((وأيضا فالصنائع بعيدة عن البربر؛ لأنهم أعرق في البداوة. والصنائع من توابع الحضارة؛ وإنما تتم المباني بها؛ فلا بد من الحذق في تعلمها؛ فلما لم يكن للبربر انتحال لها لم يكن لهم تشوف إلى المباني؛ فضلا عن المدن. وأيضا فهم أهل عصبيات وأنساب؛ لا يخلو عن ذلك جمع منهم. والانساب والعصبية أجنح إلى البدو)). المقدمة، ج: 3، ص ص: 989 ـ 990.

فتحهم لإفريقية والمغرب. فإن هذا لا ينفي ـ في الحقيقة ـ جوهر المقاومة؛ الذي اقتضته طبيعة الأحداث؛ لأن الأمازيغ ـ في تلك الفترة ـ لم يتعرفوا على الإسلام، والمسلمين؛ ومن جهل شيئا عاداه طبعا. وعليه فقد لعبت العصبية الأمازيغية دورا خطيرا؛ كقوة متصدية للمسلمين؛ في بلاد المغرب. وما نكث كسيلة، وثورته على المسلمين؛ سوى نعرة من نعرات العصبية. وربما دخلت في هذا الاعتبار؛ مقاومة الكاهنة، وقومها جراوة للفاتحين أيضا.

ومع ذلك.. فقد استتب الأمر للمسلمين؛ بعض الوقت؛ بفضل حنكة عدد من الولاة وحسن سياستهم؛ مثل: أبي المهاجر، وحسان، ومحمد بن يزيد، وإسماعيل بن عبد الله بن أبي المهاجر. غير أن ذلك الاستقرار انقطع؛ ولم يدم طويلا. إذ كانت العصبية القبلية أهم عوامل الهدم، والتفريق. فهي التي أشعلت أتون الفتنة بالمغرب كافة. حيث انقسمت هذه الديار؛ إلى عصبيات عديدة؛ متضادة. فنشأ صراع بين العرب الموالين للأمويين من جهة، وبين الأمازيغ من جهة أخرى. ثم انقسم العرب ـ أيضا ـ إلى عرب القيروان، والعرب المستجدين من الوافدين إلى إفريقية حديثا. هذا بالإضافة إلى انقسام الفاتحين العرب أيضا إلى عصبيتين هما: القيسية، والكلبية. أي (العدنانية والقحطانية أو المضرية واليمنية).[1]

وهكذا.. كان المغرب ـ في تلك الفترة ـ تتقاذفه صراعات لا نهاية لها. ومن أخطرها ذلك الفيض من الفتن والصراعات، التي نشبت بين الأمازيغ والأمويين؛ ومعظم تلك الأحداث كانت عبارة عن ردود أفعال ضد تعسف بعض ولاة الدولة الأموية،

---

[1] لم يكن تقسيم العرب إلى قيسية ويمنية معروفا قبل الإسلام. حيث كان التقسيم محصورا ضمن عصبيات ضيقة؛ لا تتجاوز القبيلة أو البطن؛ ولم تتسع ظاهرة العصبية بحيث تشمل الشعب أو الجذم. ويبدو أن موضوع القيسية، واليمنية من المبتكرات التي ظهرت في ظل الدولة الأموية. أنظر المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج: 1، ص ص: 493 ـ 494. والعصبية القبلية وأثرها في الشعر الأموي، ص ص: 141 ـ 144.

وسوء سياستهم، وتعصبهم؛ كيزيد بن أبي مسلم، وعبيد الله بن الحبحاب.[1] الأمر الذي ساعد على نمو الأحزاب وترعرع الفرق المعارضة لطبيعة الحكم الأموي، ثم الحكم العباسي من بعده. ومن بين تلك الفرق: الخوارج والشيعة.[2] بالإضافة إلى برغواطة؛ المرتدين عن الإسلام كليا.

هذا وقد ساعد العجز الدائم عن التخلص من الطابع القبلي المتحجر على استفحال روح العصبية، واتساع نطاقها. والأمر الذي ضاعف في نمو هذه الظاهرة السلبية وازدهارها؛ أنها كانت مهيمنة حتى على قلوب فئة كبيرة من الفاتحين أنفسهم. فانغمسوا في مستنقعها الموبوء بعاهات العُبِّية والنعرة الجاهلية؛ التي بقيت عالقة بنفوسهم. فأضحى المغرب الإسلامي — نتيجة لذلك كله — مسرحا واسعا للصراعات القبلية، ومرتعا خصبا للعصبية الفياضة بالنزوات والشطحات. وعليه فقد انقسم الفاتحون بين عصبية قيسية متعالية، وعصبية كلبية متعنتة. على أن الغلبة تكون ـ طبعا ـ للعصبية التي ينتمي إليها الوالي المعين على إفريقية والمغرب؛ من قبل الخليفة الأموي.

ومن هنا.. تتضح الكيفية التي انتقلت بها عدوى عصبية القيسيين واليمينيين؛ إلى إفريقية والمغرب.. إذ انطلقت هذه الظاهرة الخطيرة من مكمنها؛ بتحريك وإثارة من قمة الدولة الأموية نفسها. وذلك أنه إذا كان بعض الفاتحين موبوءا بها دون وعي بمخاطرها؛ فإن خلفاء بنى أمية؛ مثل: يزيد بن عبد الملك ـ حكم من 101هـ(719م) إلى 105هـ(723م) — وهشام ابن عبد الملك — حكم من 105هـ إلى 125هـ(742م). ساعدا

---

[1] تاريخ إفريقية والمغرب، ص ص: 99 ـ 101. 107 ـ 111. والبيان المغرب، ج: 1، ص ص: 48. 51 ـ 54. وفجر الأندلس، ص: 145. والمغرب الإسلامي، ص ص: 104. 155 ـ 157.

[2] لمعرفة هذه الفرق أنظر كتاب الملل والنحل، ج: 1، ص ص: 114 — 138. 146 — 198. وكتاب المفصل في الملل والأهواء والنحل، ج: 4، ص ص: 179 ـ 192. وكتاب المغرب الإسلامي، ص ص: 147 ـ 166. وكتاب دور كتامة في تاريخ الخلافة الفاطمية، ص ص: 193 ـ 209.

على استفحال هذا الوباء؛ بتشجيعهما للعصبية، والتكتلات القبلية.

ولمّا كان المغرب الإسلامي ـ منذ البداية ـ يعج بأهل اليمن؛ فقد أضحى القادمون الجدد؛ من أهل الشام، وشمال شبه الجزيرة؛ غير مرغوب فيهم. وبذلك تبادل الولاة ـمن الطرفين ـ اضطهاد الرعية التي لا تنحدر من سلسلة نسبهم؛ ولا تجمعهم وإياهم عصبية واحدة. وقد يكون بشر بن صفوان الكلبي هو أول الولاة المنحازين إلى عصبيتهم. حيث أحاط نفسه بهم، وأبعد غيرهم. ولكنه عزل بعد موت يزيد بن عبد الملك. ولما تولى هشام بن عبد الملك الحكم؛ عين قيسيا متعصبا على إفريقية والمغرب، **(وهو عبيدة بن عبد الرحمن السلمي القيسي).** فاضطهد أهل اليمن؛ من الكلبيين؛ الأمر الذي جعل أبا الخطار حسام بن ضرار الكلبي[1] يسارع في إرسال أبيات شعرية من نظمه إلى الخليفة هشام؛ ذكره فيها بمواقف الكلبيين من بني أمية. وفيها يقول:[2]

أَفَـأَتُـمْ بَـنِـي مَـرْوَانَ قَـيْـسـاً دِمَـاءَنَـا
وَفِـي اللّـهِ إنْ لَـمْ تُـنْـصِـفُـوا حَـكَـمٌ عَـدْلُ
كَـأَنَّـكُـمْ لَـمْ تَـشْـهَـدُوا مَـرْجَ رَاهِـطٍ
وَلَـمْ تَـعْـلَـمُـوا مَـنْ كَـانَ ثَـمَّ لَـهُ الفَـضْـلُ
تَـغَـامَـيْـتُـمْ عَـنَّـا بِـعَـيْـنِ جَـلِـيَّـةٍ
وَأَنْـتُـمْ كَـذَا مَـا قَـدْ عَـلِـمْـنَـا لَنَـا فِـعْـلُ

فاغتاظ الخليفة هشام من الوالي عبيدة بن عبد الرحمن؛ فعزله من منصبه؛ ولكنه عين قيسيا آخر؛ **(وهو عبيدة الله بن الحبحاب).** فتمادى ـ هو الآخر ـ في لعبة العصبية الخطيرة؛

---

[1] **أسندت إليه فيما بعد إمارة الأندلس؛ فأظهر فيها تعصبا شديدا لأهل عصبيته اليمنية. مما أودى به إلى التهلكة؛ بعد أن أشعل بلاد الأندلس بالفتن والحروب.**

[2] **البيان المغرب، ج: 1، ص: 50.**

التي انجر عنها ـ في عهده ـ أحداث خطيرة للغاية؛ إذ نشبت ثورة الخوارج الكبرى؛ التي قادها ميسرة المطغري؛ تلك الثورة التي كادت أن تطيح الحكم العربي نهائيا في بلاد المغرب؛ كل ذلك جراء النزعة المتطرفة للعصبية، والنعرة المتشددة للقبلية.

وهكذا فمن يحلو له اللعب بالنار؛ يتعرض للاحتراق أحيانا.. حيث استفحلت ظاهرة العصبية القبلية، وأخذت تنخر كيان الدولة الأموية نفسها. فانحدرت بها تلك الظاهرة السلبية إلى مهاوي السقوط والاندثار.[1] لأن خلفاء تلك الدولة استهوتهم اللعبة، فغفلوا عن الأخطار التي يمكن للعصبية أن تفرزها، إذا ما استهين بمفعولها العكسي، وتأثيرها على استقرار دولتهم وسلامتها؛ فلم يكتشفوا جوانبها السلبية؛ وانساقوا خلف إغرائها العابر، وطمعوا في بعض الفوائد الظرفية الزائفة. وشاءت الأقدار أن تتسبب ظاهرة العصبية في تفكك الدولة؛ عندما تمردت بعض القبائل، والعصبيات؛ في الأطراف النائية؛ حيث أنشأت دولا، وإمارات خاصة بها. من ذلك ما حدث في المغرب الإسلامي مثلا؛ إذ تمكن زعماء بعض القبائل، والأحزاب من إقامة كيانات، ودول مستقلة؛ عن الدولتين: الأموية، ثم العباسية بعدها؛ وتبعا لما تفرضه المجتمعات القبلية؛ فقد كانت تلك الكيانات تستند ـ بدورها ـ إلى عصبية القبائل الأمازيغية.

لقد كان الأمازيغ في بلاد المغرب يعيشون ضمن قبائل وشعوب عديدة؛ منتشرة في تلك الربوع. ويرأس هذه القبائل والشعوب بعض الشيوخ الذين لم يصل بهم الحال إلى مرتبة الملك القاهر، المتحكم في الرقاب. وسبق أن حدثت بعض المحاولات ــ منذ البداية ــ قصد تأليف دول وإمارات ــ هنا وهناك ـ ولكنها فشلت؛ بسبب ضعف اللحمة، وبروز التناقضات

---

[1] المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج: 1، ص 495. والعصبية القبلية وأثرها في الشعر الأموي، ص: 243. وفجر الأندلس، ص: 142. والمغرب الإسلامي، ص: 119.

المتعددة بين القبائل من جهة، وبسبب عدم حصول الغلبة لعصبية ما على بقية العصبيات المتحالفة من جهة أخرى؛ وعليه فقد عجزت تلك الكيانات عن الوصول إلي مرتبة الملك المتغلب. وظلت في طور الرئاسة والسؤدد؛ الذين يتصفان بضعف الحكم وهشاشة السلطة. إذ يكون الوازع أو الحاكم — في هذه الحال ـ متبوعا؛ دون أن تكون له سلطة قاهرة.

وهذه الصفة تصدق على الكيانات الأولى التي أقامتها الصفرية والإباضية. ولا تدخل في هذا الاعتبار دولة بني مدرار، ولا الدولة الرستمية؛ لأنهما توصلتا إلى مرتبة الملك المتغلب. بينما يصدق ذلك على الكيانات القبلية الأولى؛ التي ظهرت أثناء الفتح وبعده؛ مثل: إمارة أوربة البرنسية؛ بزعامة كسيلة، وإمارة جراوة البترية البدوية؛ برئاسة الكاهنة. فهاتان الإمارتان لم تتوصلا إلى مرتبة الملك الغالب والقاهر. كما أن أهم عوامل فشلهما ـ على ما يبدو ـ هو العامل الديني؛ الذي كان في صف الفاتحين.

وفي هذا السياق تتولى نظرية ابن خلدون تعزيز هذا الاعتقاد؛ وذلك من خلال ما عرضه ضمن بعض الفصول من مقدمته مثل: "**فصل في أن العرب لا يحصل لهم الملك إلا بصبغة دينية؛ من نبوة أو ولاية أو أثر عظيم؛ من الدين على الجملة**". و"**فصل في أن الدول العامة الاستيلاء؛ العظيمة الملك؛ أصلها الدين؛ إما من نبوة، أو دعوة حق**". و"**فصل في أن الدعوة الدينية تزيد الدولة في أصلها قوة؛ على قوة العصبية؛ التي كانت لها؛ من عددها**". و"**فصل في أن الدعوة الدينية من غير عصبية لا تتم**".[1] وعليه فقد فشلت تلك الكيانات جميعها؛ في إنشاء ملك مستقل وقاهر. وتوقف الحال بها كلها في طور المشيخة والرئاسة؛ ذات السلطات المحدودة. غير أنه حصل لبعض القبائل الأخرى أنها تمكنت من إقامة دول مستقلة عن

[1] المقدمة، ج: 2، ص ص: 626. 636 ـ 642.

الخلافة الأموية، ثم العباسية بعدها. ويعود السبب في ذلك إلى ما أصاب عصبية بني أمية من وهن؛ أدى إلى تلاشي ظلها عن بلاد المغرب. كما أن توافر بعض الشروط الفعالة؛ ساعدت هي الأخرى القبائل على إقامة دول مستقلة. من بينها العامل الديني أو المذهبي؛ الذي تمكنت بعض القبائل من تحقيقه؛ الأمر الذي ساعد على تعزيز دور العصبية التي تنتمي إليها.

ولما كانت الدولة العباسية قد ورثت الأوضاع المتردية في بلاد المغرب - بعد سقوط الدولة الأموية - فقد تعذر عليها إعادة الكرة؛ وإخضاع الدول التي استقلت عن الخلافة من قبل. وهذا - طبعا - يعود إلى حداثة الدولة العباسية، وبداية عهدها من جهة؛ وإلى شدة العصبية الفياضة؛ التي تتميز بها القبائل المغربية؛ تلك العصبية التي جعلت منها قوة لا يستهان بها. هذا بالإضافة إلى العامل الديني؛ الذي أضحى يشد أفراد القبائل بعضهم إلى بعض. كما أن للعامل الجغرافي كلمته التي لا شك فيها في هذا الباب.



دول الخوارج

هذه التسمية (**الخوارج**) لم يطلقها أصحابها على أنفسهم؛ بل سماهم بها خصومهم. لذلك نجد الإباضيين في بلاد المغرب يستنكرون إطلاق هذه التسمية عليهم.[1] وتعود بداية ظهور المذهب الخارجي إلى عهد علي بن أبي طالب كرم الله وجهه. وبالتحديد أثناء وقعة صفين؛ أي[1] حين رفضت فئة من المتقاتلين نتيجة التحكيم؛ فخرجوا عن صف علي، وفارقوا صفوف أنصاره؛ معلنين العصيان، ثم دعوا الناس إلى خلعه هو ومعاوية معا. فاعتبرهم أهل السنة ـ بسبب ذلك ـ خارجين عن الصف؛ وأسموهم الخوارج.[2]

---

[1] أنظر: كتاب طبقات المشائخ بالمغرب، للدرجيني، ج: 2، الصفحات: 201 وما يليها. وكتاب مختصر تاريخ الإباضية لسليمان الباروني، ص ص: 17 ـ 33. وكتاب الإباضية في موكب التاريخ، الحلقة الثانية، ص ص: 21 ـ 23. وكتاب تاريخ المغرب الكبير، ج: 2، ص ص: 337 ـ 400.

[2] أما الشهرستاني فيقول: ((كل من خرج على الإمام الحق الذي اتفقت الجماعة عليه يسمى خارجيا؛ سواء كان الخروج في أيام الصحابة على الأئمة الراشدين، أو كان بعدهم على التابعين بإحسان، والأئمة في كل زمان... اعلم أن أول من خرج على أمير المؤمنين علي ﷺ جماعة ممن كان معه في حرب صفين؛ وأشدهم خروجا عليه ومروقا في الدين الأشعث بن قيس الكندي، ومسعر بن فدكي التميمي، وزيد بن حصين الطائي؛ حين قالوا: "القوم يدعوننا إلى كتاب الله، وأنت تدعونا إلى السيف" حتى قال: "أنا أعلم ما في كتاب الله! انفروا إلى بقية الأحزاب! انفروا إلى من يقول: كذب الله ورسوله، وأنتم تقولون: صدق الله ورسوله)). الملل والنحل، ج: 1، ص: 114. للمزيد من الشرح أنظر: كتاب الكامل للمبرد، ج: ص ص: 76 ـ 251. وكتاب العبر، مج: 3، ص ص: 303 ـ 364. وكتاب الخوارج والشيعة للمستشرق الألماني يوليوس فلهوزن ص ص: 3 ـ 145. وكتاب الفرق الإسلامية للمستشرق الفرنسي ألفرد بل، ص ص: 140 ـ 150. وكتاب فجر الإسلام لاحمد أمين، ص ص: 256 ـ 265.

ويتميز المذهب الخارجي بسماته السياسية؛ وإن مزج بصبغة دينية. وتدور أصوله حول فكرة الإمامة، ونظرية الحكم في الإسلام؛ حيث شكك أصحابه في صحة الحديث القائل: ((**الأئمة من قريش**))؛ وقالوا بشرعية الإمامة لكل مسلم صالح؛ على أن يتم اختياره بحرية مطلقة؛ لا فرق في ذلك بين عربي وأعجمي، وبين أبيض وأسود. واستندوا في ذلك إلى الحديث الشريف: ((**اسمعوا وأطيعوا وإن ولي عليكم عبد حبشي ذو زبيبة**)). هذا وتباعدت ـ بمرور الوقت ـ الآراء والمعتقدات بينهم، فظهرت اختلافات أساسية في الأفكار المتداولة في أوساطهم؛ وذلك نتيجة لتنوع التأويلات وتشتت المبادئ وتباين المصالح؛ فتوالدت فرقهم وانشقت صفوفهم فانبثقت بينهم فرق جديدة؛ فتنتهم إلى فروع متباينة؛ قد تصل إلى العشرين فرقة تقريبا؛[1] أشهرها: الأزارقة؛ نسبة إلى نافع بن الأزرق؛ وهم من غلاة الخوارج. ثم النجدات؛ أتباع نجدة بن عامر. ثم الإباضية؛ أتباع عبد الله بن إباض التميمي؛ وهم أقرب الفئات المذكورة من المذاهب السنية؛ فلم يكونوا متطرفين، ولا مغالين في أحكامهم تجاه المخالفين لمعتقدهم من المسلمين. ثم الصفرية؛ أصحاب زياد ابن الأصفر، ويقتربون من الإباضية في أحكامهم ومواقفهم.[2]

ونرجع بداية ظهور المذهب الخارجي؛ في بلاد المغرب إلى أواخر القرن الأول وبداية القرن الثاني للهجرة. حيث انتقل

[1] ذكر الشهرستاني منها: المحكمة الأولى؛ وهم الذين خرجوا عند التحكيم. والأزارقة؛ وهم الذين خرجوا مع نافع بن الأزرق من البصرة إلى الأهواز. والنجدات العاذرية؛ وهم أصحاب نجدة بن عامر الحنفي. والبيهسية؛ وهم أصحاب بيهس الهيصم بن جابر. والعجاردة؛ وهم أصحاب عبد الكريم بن عجرد. والثعالبة؛ وهم أصحاب ثعلبة بن عامر. والإباضية؛ وهم أصحاب عبد الله بن إباض. والصفرية؛ وهم أصحاب زياد بن الأصفر. وتفرع ـ فيما بعد ـ عن هذه الفرق الثمانية فرق أخرى كثيرة منها: العوفية (العونية)، الصلتية، الميمونية، الحمزية، الخلفية، الأطرافية، الشعيبية، الحازمية، الأخنسية، المعبدية، الرشيدية، الشيبانية، المكرمية، المعلومية والمجهولية، البدعية، الحفصية، الحارثية، اليزيدية. أنظر الملل والنحل، ج: 1، ص ص: 114 ـ 138.

[2] يبدو أن الصفرية في بلاد المغرب كانوا أشد تطرفا من صفرية المشرق. مع استثناء واحد يتمثل في دولة سجلماسة التي تميزت بالتسامح؛ وإن كان ذلك التسامح بدأت بوادره انطلاقا من حكم مدرار؛ الذي أخذ في التقرب من بني رستم ومذهبهم الإباضي.

من المشرق بواسطة الخوارج الهاربين من قمع الأمويين بالمشرق؛ إذ وجدوا في ديار المغرب النائية ملجأ آمنا لهم؛ ومنهم أبو الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري؛ ذلك الداعية الإباضي اليمني الأصل.[1] وربما كان من أولئك الخوارج أيضا من كان مندسا في صفوف جيوش الخلافة الزاحفة إلى بلاد المغرب؛ ومن هؤلاء على سبيل المثال عكاشة بن أيوب الفزاري؛ الذي كان ضمن جيش عبيد الله بن الحبحاب.[2] كما يمكن إضافة الدور الهام الذي قام به عكرمة بن عبد الله مولى ابن عباس؛ ذلك العالم التابعي الأمازيغي الأصل؛ الذي تقول المصادر أنه كان يعتنق المذهب الخارجي؛ بل الصفري بالتحديد.[3] ولما كانت لعكرمة اتصالات مع بعض رؤساء القبائل الأمازيغية؛ سواء عندما زار إفريقية،[4] أو حينما تقابل معهم في المدينة المنورة. فقد تمكن من نشر أفكاره بينهم. وهذا ما اتضح من اجتماع سمغون (سمكو) بن واسول به بإفريقية عندما زار عكرمة تلك الديار للدعوة لمذهبه؛ أو بالمدينة كما ذكر ابن

---

[1] سير الأئمة وأخبارهم، ص: 57. طبقات المشائخ بالمغرب، ج: 1، ص: 22. الفرق الإسلامية لألفرد بل، ص: 170. تاريخ المغرب الكبير، ج: 3، ص: 3.

[2] يقول الرقيق القيرواني: ((وكان صفريا يعبد الله؛ وهو الذي قدم على طليعة أهل الشام؛ مع عبيد الله بن الحبحاب)). تاريخ إفريقية والمغرب، ص: 114. أنظر أيضا فتوح مصر والمغرب، ص ص: 294 ـ 299. والكامل في التاريخ، ج: 4، ص: 223. والبيان المغرب، ج: 1، ص ص: 58 ـ 59.

[3] ذكره الشهرستاني بين رجال الخوارج؛ دون أن يحدد أي فرقة منهم. الملل والنحل، ج:1، ص: 137. وكذلك ابن خلكان الذي قال فيه: ((وقد تكلم الناس فيه؛ لأنه يرى رأي الخوارج)). وفيات الأعيان، ج: 3، ص: 265.

[4] قال المالكي: ((دخل عكرمة افريقة وأقام بالقيروان، وبث بها العلم؛ وكان مجلسه في موخر جامع القيروان في غربي الصومعة)). رياض النفوس، ج: 1، ص: 146. وجاء في التعليق 8 من الصفحة نفسها بالمصدر نفسه: ((أورد الذهبي في تاريخ الإسلام (3: 160) نصا مهما عن صلة عكرمة بالمغرب؛ ويزيد في أهميته أن سنده إفريقي: "حدثنا خلاد بن سليمان الحضرمي عن خالد بن أبي عمران قال: كنا بالمغرب وعندنا عكرمة في وقت الموسم؛ فقال عكرمة: وددت أن بيدي حربة اعترض بها من شهد الموسم. قال فرفضه اهل إفريقية")). وإن صح هذا النص ربما دل على نزعة العنف عند عكرمة. أنظر أيضا طبقات علماء إفريقية لأبي العرب. ص ص: 82 ـ 83.

خلدون.[1] وكما هو معروف كان هو كبير مكناسة؛ تلك القبيلة التي أنشأت دولة بني مدرار في سجلماسة. هذا وانتشر المذهب الخارجي ببلاد المغرب بين الأمازيغ بسرعة قياسية مدهشة؛ إذ اعتنقه السواد الأعظم منهم؛ منبهرين بتعاليمه الداعية إلى ما يعرف اليوم بالديمقراطية والمساواة والحرية. وقد ساعد على سرعة انتشار هذا المذهب، وازدياد أنصاره؛ ما كان يبديه بعض ولاة الدولتين: الأموية والعباسية من سلوك اتسم بسوء السياسة، والجشع المادي، والعصبية العمياء. وقد استفحل أمر هذا المذهب ـ منذ البداية ـ في ظل ثورات الأمازيغ؛ ضد الحكم الأموي. وكانت أولى الثورات الخطيرة هي الثورة التي قادها ميسرة المطغري سنة 122هـ(739م)؛ ذلك الثائر الذي حاول إنشاء إمارة؛ بل خلافة؛ بعد أن عقد البيعة لنفسه بالخلافة. ولكنه لم يدم في مركزه طويلا؛ إذ ثار عليه أتباعه، وقتلوه؛ بسبب بعض المآخذ التي حسبوها عليه؛ منها سوء القيادة، وفساد سياسته.

ثم أجمعت القبائل الثائرة ـ بعد مقتل ميسرة ـ على إسناد أمرها إلى خالد بن حميد الزناتي؛ ذلك القائد الذي تصدى لجيوش بني أمية، وأشعل البلاد حربا ضارية ضدهم؛ كادت أن تزيل حكم الأمويين من بلاد المغرب كافة. ومع هذا لم تنجح هذه الإمارة في البقاء طويلا؛ بسبب تباين أهواء قبائلها، وافتقارها للعصبية المتجانسة؛ ذات النفوذ والكثرة والفاعلية

[1] قال البكري: ((وكان فيه أبو القاسم سمجوا [سمغون] بن واسول المكناسي أبو اليسع المذكور وجد مدرار لقي بإفريقية عكرمة مولى ابن عباس وسمع منه وكان صاحب ماشية وكثيرا ما ينتجع موضع سجلماسة؛ فاجتمع إليه قوم من الصفرية ؛ فلما بلغوا اربعين رجلا قدموا على أنفسهم عيسى بن مزيد الاسود، وولوه أمرهم؛ فشرعوا في بنيان سجلماسة؛ وذلك سنة أربع ومائة)). المغرب، ص: 149. أما ابن خلدون فيقول أن اللقاء حدث في المدينة: ((كان أبوه سمقو [سمغون] من حملة العلم؛ ارتحل إلى المدينة؛ فأدرك التابعين، وأخذ عن عكرمة مولى ابن عباس. ذكره عريب بن حميد في تاريخه. وكان صاحب ماشية وهو الذي بايع لعيسى بن يزيد، وحمل قومه على طاعته)). العبر، مج: 6، ص ص: 210. 267 ـ 268.

والغلبة.[1] وذلك أن أتباع هذه الإمارة وأنصارها كانوا ـ منذ البداية ـ خليطا من مختلف القبائل الأمازيغية المتساوية في العدد والسطوة وشدة العصبية؛ وكان الحلف بينهما هشا وظرفيا؛ فاستظلوا ـ سطحيا ـ بمظلة المذهب الصفري بعض الوقت. غير أن العصبية القبلية ـ وإن كانت تفتقر إلى التلاحم والتماسك اللازمين ـ فقد هيمنت على النزعة المذهبية التي كانت تتسم ـ في ذلك الوقت ـ بالضعف وعدم الوضوح؛ وعليه فلم يستحوذ جوهر ذلك المذهب على القلوب بالقدر الكافي؛ مما أضعف دوره في مساعدة العصبيات المتحالفة على تحقيق التلاحم المطلوب.

وحتى يسهل تفسير تلك الأحداث؛ يستحسن مراجعة نظرية ابن خلدون؛ التي تقول بضرورة تحقيق شروط التركيب والمزج الصحيحين؛ لكي يتحقق الالتحام الفعال بين العصبيات المراد توحيدها؛ ((**لأن الاجتماع والعصبية بمثابة المزاج في المتكون؛ لا يصلح إذا تكافأت العناصر؛ فلا بد من غلبة أحدها؛ وإلا لم يتم التكوين. فهذا هو سر اشتراط الغلب في العصبية**)).[2] ولما كانت القبائل الأمازيغية المتحالفة متساوية في قوة العصبية؛ فقد تعذر عليهم تحقيق الوحدة والمزج والتلاحم؛ خاصة وأنهم لم يمتلكوا زمام الدعوة المذهبية على أفضل وجه. وطبعا هذا شرط آخر يضعه ابن خلدون في نظريته؛ إلى جانب شرط المزج والتركيب السابق الذكر.[3] وقد ثبت عجز تلك القبائل المتحالفة تحت قيادة

---

[1] أنظر كيف تخلى وأتباع أبي قرة عن حلفائهم الخوارج بمجرد إغرائهم بأربعين ألف درهم؛ خلال حصارهم لعمر بن حفص بطبنة حاضرة الزاب. العبر، مج: 7، ص ص: 24 ـ 25. وتاريخ المغرب الكبير، ج: 3، ص ص: 49 ـ 51.

[2] المقدمة ، ج: 2، ص: 599.

[3] يقول ابن خلدون: ((أن الصبغة الدينية تذهب التنافس والتحاسد الذي في أهل العصبية... واعتبر ذلك أيضا في دولة لمتونة ودولة الموحدين. فقد كان بالمغرب من القبائل كثير ممن يقاومهم في العدد والعصبية أو يشف [أي يزيد] عليهم؛ إلا أن الاجتماع الديني ضاعف قوة عصبيتهم بالاستبصار والاستماتة... واعتبر ذلك إذا حالت صبغة الدين وفسدت؛ كيف ينتقض الأمر، ويصير الغلب على نسبة العصبية وحدها دون زيادة الدين؛ فيغلب الدولة من كان تحت يدها من العصائب المكافئة لها أو الزائدة القوة عليها؛ الذين غلبتهم=

خالد بن حميد الزناتي عن إنشاء ملك أو دولة ما. وكل ما ورد في المصادر عنها؛ هو إمكانية انقسامها إلى فئتين اثنتين؛ يجمعهما ما اصطلح على تسميته بفرق المذهب الخارجي؛ وهي: الصفرية، والإباضية.

ويبدو أن أولئك الثائرين من أبناء القبائل الأمازيغية لم يصلوا إلى مستوى يؤهلهم للتأمل الدقيق في الجوهر الذي يفصل بين الصفرية والإباضية. وكل ما كان يشدهم إليهما هو المبدأ الديمقراطي الذي يجمعهما.[1] أما سبب تصنيفهما إلى صفرية وإباضية فربما رجع إلى المؤرخين الإسلاميين؛ أكثر من رجوعه إلى المعنيين أنفسهم؛ لذا فإن النزعة القبلية كانت هي الأقوى بروزا؛ واتباع رئيس القبيلة هو الأهم لديهم. وما كان يجمع الناس آنئذ هو سخطهم وعداوتهم للحكم الأموي الظالم. ويبدو أنهم وجدوا في الانتساب لتلك الفرق الخارجية مخرجا يقيهم من التسلط الأموي؛ دون أن يجبروا على مخالفة الدين الإسلامي الحنيف. وربما جاء تصنيف المؤرخين للقبائل الأمازيغية الثائرة إلى صفرية وإباضية؛ تبعا لملاحظة سلوك كل فئة في القتال أمام خصومهم من المسلمين؛ ومدى ما يحرمونه على أنفسهم وما يحللونه.

وهكذا فبواسطة هاتين الفرقتين انتشرت ــ بعد ذلك ــ الثورات الطاحنة؛ عبر بلاد المغرب كلها. ثورات ظاهرها مذهبي وديني؛ أما مضمونها فيتميز بالعصبية والنزعة القبلية. وقد تمكن المذهبان المذكوران من تقسيم البلاد بينهما تقريبا؛

=بمضاعفة الدين لقوتها ولو كانوا أكثر عصبية منها وأشد بداوة. واعتبر هذا في الموحدين مع زناتة؛ لما كانت زناتة أبدى [أي أشد بداوة] من المصامدة وأشد توحشا؛ وكان للمصامدة الدعوة الدينية باتباع المهدي؛ فلبسوا صبغتها وتضاعفت قوة عصبيتهم بها؛ فغلبوا على زناتة أولا واستتبعوهم؛ وإن كانوا من حيث العصبية والبداوة أشد منهم؛ فلما خلوا من تلك الصبغة الدينية انتقضت عليهم زناتة من كل جانب، وغلبوهم على الأمر وانتزعوه منهم)). نفسه، ص ص: 637 ـ 638.

[1] أنظر تاريخ مسلي أسبانيا، لدوزي، ص : 146 ــ 147. والفرق الإسلامية لبل، ص: 146.

فانحازت قبائل: غمارة ومكناسة وبرغواطة وبنو يفرن ومغيلة وورفجومة، وبعض بطون صنهاجة، وبطون من زناتة؛ إلى الصفرية. أما: هوارة ونفوسة ولماية ولواتة، وبطون أخرى من زناتة؛ فقد انضمت إلى المذهب الإباضي.[1]

هذا وقد انجر عن تلك الانتماءات المذهبية قيام دول خارجية مستقلة في أقاصي البلاد؛ ترتكز على النظام القبلي، والروح المذهبية. منها: دولة برغواطة؛ التي نشأت في بدايتها ضمن الغطاء المذهبي الصفري، ثم دولة بني مدرار الصفرية، ثم دولة بني رستم الإباضية. وقد استطاعت هذه الدول الثلاث البقاء والصمود؛ أمام كل الاضطرابات التي اجتاحت المغرب الإسلامي آنذاك؛ متحدية ـ بذلك ـ سطوة الخلافة الأموية، ثم الخلافة العباسية بعدها. كما استطاعت أيضا إضفاء طابع مذهبي وديني على مؤسساتها؛ مع شيء من التفاوت فيما بينها.

غير أنه من الضروري ــ هنا ــ التذكير؛ بكون الدول الثلاث كان يغلب عليها الطابع القبلي؛ مصبوغا بسمات البداوة المحض؛ معززة بمبادئ مذهبية، وعقائدية؛ منحتها نفحة دينية متميزة. علما بأن دولة بني رستم تفوقت على أختيها؛ في نظمها وفي سيادتها وفي نفوذها. إذ كانت تتمتع باستقلالية أوسع منهما. حيث كانت دولة برغواطة تعلن ولاءها للدولة الأموية بالأندلس.[2] أما إمارة بني مدرار؛ فقد صرحت بالدعوة لخلفاء بني العباس ببغداد.[3] ومع هذا فقد ظل ذلك الولاء شكليا؛ لا يؤثر ولا يتأثر. فالهدف منه هو كسب نوع من الشرعية؛ قد تساعد على الثبات والاستقرار. والذي يحث على تخصيص فقرات للحديث عن تلك الدول؛ في هذا المجال؛ هو ما عرف

---

[1] العبر، مج: 6، ص ص: 223 ـ 227. 246 ـ 248. 255 ـ 267. 286 ـ 287. 428 ـ 438.

[2] المغرب، 135. وأعمال الأعلام، ق: 3، ص: 183. والبيان المغرب، ج: 1، ص: 224. والعبر، مج: 6، ص: 130.

[3] العبر، مج: 6، ص: 268. وصبح الأعشى، ج: 5، ص: 165.

عن منعتها، وتحديها للدول الكبرى آنئذ. غير أن المعلومات الضئيلة التي أوردها المؤرخون عنها لا تفي بالحاجة المطلوبة. وسيبقى أمرها مغلقا بالغموض؛ ما دامت النصوص التاريخية الكافية مفقودة.

وجملة القول؛ فهذه الدول نشأت في أعقاب الفشل الذي لحق بالقبائل الصفرية والإباضية؛ أمام ولاة إفريقية والمغرب؛ طوال الفترة الزمنية الممتدة من عام 124هـ(741م) إلى عام 144هـ(761م)؛ حيث تفرقت ـ نتيجة لذلك الفشل ـ القبائل الأمازيغية (الصفرية والإباضية) في ربوع المغربين: الأقصى والأوسط؛ أين تحصنوا في المناطق النائية، وشيدوا دولهم الخاصة بهم.



1)ـ الدولة البرغواطية:

انجر عن الفشل الذي لحق بالصفرية والإباضية ببلاد المغرب؛ قيام الدولة الصفرية الأولى في أقصى البلاد؛ ممثلة ببرغواطة سنة 127هـ(744م). وذلك عندما لجأ طريف الصفري إلى إقليم تامسنا (بمنطقة الدار البيضاء حاليا)؛ حيث ترأس بعض القبائل ـ هناك ـ من: مصمودة وزواغة وزناتة، وقبائل أخرى.[1] وبعد موته خلفه ابنه صالح؛ الذي نسبت إليه النحلة البرغواطية. وبذلك يكون طريف وابنه صالح قد وصلا إلى مرتبة الرئاسة والسؤدد في قبائل متعددة؛ مع أنهما لا ينتميان إلى عصبيتهما. فكيف حصل ذلك؟

الإجابة على هذا توجد عند ابن خلدون؛ الذي ذكرها ضمن: "**فصل في أنه يحدث لبعض أهل النصاب الملكي دولة؛ تستغني عن العصبية**".[2] والمقصود هنا؛ هي عصبية صاحب النصاب؛ الذي يلجأ إلى عصبية أخرى؛ عندما يفقد عصبيته الخاصة. ويرى ابن خلدون في هذا الفصل أن معرفة الناس بصاحب النصاب اللاجئ إليهم، وتقديرهم منزلته السابقة وتعظيمها؛ يكفيان لقبول رئاسته، وسلطانه عليهم. وهكذا يستعين بعصبية أخرى؛ غير عصبيته؛ فيؤسس بواسطتها دولته المستحدثة. وقد حدث هذا ــ أيضا ــ في دولتي: الأدارسة، والفاطميين فيما بعد.

---

[1] وكانوا أحياء من قبائل كثيرة؛ ذكرهم البكري بقوله: ((وأن قبائل برغواطة الذين يدينون لهم؛ وهم على ملتهم: جراوة، وزواغة، والبرانس، وبنو أبي ناصر، ومنجصة، وبنو أبي نوح، وبنو واغمر، ومطغرة، وبنو يورغ، وبنو دمر، ومطماطة، وبنو وزكسينت؛ وعددهم ينتهي ازيد من عشرة الاف فارس. وممن يدين لهم من المسلمين، وينضاف إلى مملكتهم زناتة الجبل، وبنو يليت، ونمالتة، وبنو واسينت، وبنو يفرن، وبنو وناغيت، وبنو النعمان، وبنو إفلوسة، وبنو كونبة، وبنو يسكر، وأصادة، وركانة، وإيزمين، ومنادة، وماسينة، ورصانة، وترارتة؛ ومبلغ عددهم اثني عشر ألف فارس)). المغرب، ص ص: 140 ـ 141.

[2] المقدمة، ج: 2، ص ص: 635 ـ 636.

ـ حكومة صالح بن طريف البرغواطي:

ولما كان طريف وزيرا وقائدا سابقا لميسرة المطغري؛[1] فقد اعتبرته القبائل الأمازيغية ـ المتواجدة بمنطقة تامسنا ــ أحد الذين يدخلون ضمن أهل النصاب الملكي؛ فسهل انقيادهم إليه؛ تسليما منهم بمكانته، ومركزه السابق. وثمة أقوال أخرى تنسب إلى طريف هذا جزيرة طريف بالعدوة الأندلسية[2]؛ وإذا صح هذا الخبر؛ يكون هذا الرجل هو ذلك القائد الأمازيغي الذي قام بغزو بلاد الأندلس في حملة استطلاعية سنة 91هـ(709م) قبل أن يغزوها طارق بن زياد.[3] وعليه يكون طريف هذا من أبرز القادة والأمراء الأمازيغ. أضف إلى ذلك كله ما للعامل الديني من أثر على الأوضاع؛ حيث كان للمذهب الصفري دوره في تعزيز اللحمة وشحن النفوس بالغيرة وروح التضحية. ذلك لأن الدين يزيل خلق التكبر والحسد والتنافس. وبمرور الوقت نسيت قبائل تامسنا نسب طريف الأول، وخفيت عن التابعين الكيفية التي وصل بها إلى الحكم. وهكذا أصبح منسوبا إليهم وفي عدادهم.

هذا من جهة؛ ومن جهة أخرى ثمة من لا يضع الدولة البرغواطية في عداد الدول الصفرية أصلا؛ نظرا لكونها انحرفت عن تعاليم المذهب الصفري الخارجي نفسه؛ بل هناك من يتهم أمراءها بالارتداد عن الدين الإسلامي أيضا؛ حيث أجمعت المصادر التاريخية على ذلك تقريبا؛ تبعا لما يدعيه البرغواطيون من النبوة، وزعمهم بنزول الوحي على رابع أمرائهم (يونس)؛

---

[1] اعمال الاعلام، ق: 3. ص: 181.

[2] المغرب، ص: 135.

[3] قال ابن عذاري: ((فبعث موسى بن نصير عند ذلك رجلا من البربر؛ يسمى طريفا ويكنى أبا زرعة؛ في مائة فارس وأربعمائة راجل؛ فجاز في أربعة مراكب؛ حتى نزل في ساحل البحر بالأندلس؛ فيما يحاذي طنجة؛ وهو المعروف اليوم بجزيرة طريف؛ سميت باسمه لنزوله هنالك؛ فأغار منها على ما يليها إلى جهة الجزيرة الخضراء، وأصاب سبيا ومالا كثيرا؛ ورجع سالما. وكانت إجازته في شهر رمضان من سنة 91هـ)). البيان المغرب، ج: 2. ص: 5.

الذي يقال أنه ابتدع النحلة البرغواطية، وألف ما أسماه قرآنا.[1] على أن بعض المؤرخين ينسبون ادعاء النبوة إلى جده صالح؛ ويقولون أنه هو الذي ابتكر هذه النحلة. أما يونس فقد أظهرها للعلن؛ بعد أن كانت تمارس في الخفاء.[2] وهذا طبعا يخرجه ـ مع أتباعه ـ من صفوف المذهب الصفري الخارجي الإسلامي. غير أن نشأة الدولة البرغواطية في بداية عهدها الأول ـ كما تشير مصادر عديدة ـ كانت صفرية المذهب؛ ولم يظهر على أصحابها انحراف ما عن جوهر الدين الإسلامي؛ وما حدث من انحراف لم يتم إلا في عهد أمير الدولة الرابع. لذلك وجدت هذه الدولة مكانا لها في هذا المجال.

والذي يهم هنا؛ هو أنه لا سبيل إلى الشك في أن عامل العقيدة ـ الممثل بالمذهب الصفري ـ قد لعب دورا هاما في تعزيز التحالف القبلي، وفي التلاحم بين أعضائه في بداية الأمر؛ مما ساعد على تشييد إمارة برغواطة. لكن هذا لا ينفي ما للعصبية الأمازيغية أيضا من تأثير في تقوية اللحمة وتماسكها بين القبائل. بحيث انبثق الأمر على شكل من أشكال الرفض والمقاومة للعصبية العربية؛ الممثلة بالأمويين أولا، ثم العباسيين بعدهم. هذا كله حث بعض العشائر والقبائل الأمازيغية، وحفزها على التحالف فيما بينها؛ ضمن عصبية واحدة؛ لمواجهة التحدي الذي كانوا يعتقدون أنه يهددهم.

وظهور النحلة البرغواطية ـ فيما بعد ـ بين قبائل لا تعرف من تعاليم الإسلام الصحيحة إلا القليل منها؛ ساعد على تكتلها ضمن عصبية موحدة وقوية؛ شحنت بمفاهيم خرافية وطقوس مضللة، خاطئة. كما أن تلك النحلة ليست بريئة من النزعة الشعوبية؛ التي متنت اللحمة بين العشائر الأمازيغية،

---

[1] المغرب، ص ص: 134 ـ 141. والبيان المغرب، ج: 1، ص ص: 223 ـ 227. وأعمال الأعلام، ق: 3، ص ص: 182 ـ 187. والعبر، مج: 6، ص ص: 428 ـ 435.

[2] المغرب، ص: 135.

وزادتها ارتباطا. ودلائل ذلك؛ تتجلى فيما ورد من نصوص تخص نحلتهم؛ تلك النصوص والطقوس الوثنية الناطقة بالأمازيغية.[1] الأمر الذي كان يمدهم بشحنات من الزهو والافتخار الشعوبي. وبذلك اشتدت عصبيتهم واستفحلت؛ محققة لدولتهم البقاء، والاستمرار إلى عهد المرابطين؛ المشكلين من قبائل لمتونة ومسوفة؛ الذين تمكنوا من إسقاط الدولة البرغواطية تماما سنة 450هـ(1058م)؛ بفضل تفوقهم وامتيازهم في شدة العصبية وتماسكها؛ إلى جانب صدق وعنفوان التعاليم الدينية المهيمنة على النفوس.

وثمة بعض الكتاب والمؤرخين الأندلسيين والمغاربة ـ مثل ابن أبي زرع وابن الخطيب ـ ينسبون طريفا وابنه صالحا إلى أصول يهودية؛ وتقول مصادرهم بأن صالحا ـ أو طريفا وربما يونس في أقوال أخرى ـ قد قدم إلى بلاد المغرب من بلدة شذونة؛ المتواجدة بوادي برباط بالجنوب الغربي من بلاد الأندلس؛ و على ذلك فقد سمي كل من أتبعه ـ في بداية الأمر ـ برباطي؛ ومع الوقت حرفت التسمية تبعا لنطق الناس آنذاك؛ فقالوا في كل من أتبع مذهب صالح الصفري برغواطي.[2] غير أن عددا من المؤرخين يخالفون هذا الرأي؛ من

---

[1] أنظر ما أورده البكري في كتابه المغرب، ص ص: 139 ـ 140. وابن عذاري في البيان المغرب، ج: 1، ص ص: 226 ـ 227.

[2] وعن صالح ونحلته يقول ابن أبي زرع: ((وكان أصله ـ لعنه الله ـ من بَرباط من عمل شذونة من بلاد الاندلس؛ فكان يقال من تبعه ودخل في ديانته برباطي؛ فعربته العرب، وقالوا برغواطي؛ فسموا برغواطة. وكان صالح بن طريف الذي ادعى فيهم النبوة رجلا خبيثا يهودي الاصل؛ من ولد شمعون بن يعقوب عليه السلام ؛ نشأ ببرباط من بلاد الأندلس، ثم رحل الى المشرق؛ فقرأ على عبيد الله المعتزلي القَدَري، واشتغل بالسحر؛ فجمع منه فنونا كثيرة. وقدم المغرب فنزل بلاد تامسنا؛ فوجد بها قبائل من البربر جهالا؛ فأظهر لهم الإسلام والزهد والورع؛ فأخذ بعقولهم، واستمالهم بسحره ولسانه؛ وأراهم من نوارجه [أي نميمته] وتمويهاته؛ فاستهواهم بذلك، وأقروا بفضله، واعترفوا بولايته؛ فقدموه على أنفسهم، وصدروا عن رأيه في جميع أمورهم، ووقفوا عند أمره ونهيه؛ فادعى النبوة، وتسمى بصالح المومنين. وقال لهم أنا صالح المؤمنين الذي ذكره الله في كتابه العزيز الذي أنزله على محمد ﷺ؛ وشرع لهم الديانة التي أخذوها عنه وذلك في سنة خمس وعشرين ومائة... وأنهم يصومون شهر رجب، ويأكلون شهر رمضان، وفرض عليهم عشر صلوات: خمسا بالليل، وخمسا بالنهار؛ وإن الأضحية واجبة على كل مسلم في=

بينهم عبد الرحمن بن خلدون الذي يكذب الأخبار التي تنسب صالحا هذا إلى اليهود، أو ترجع موطنه الأول إلى بلدة برباط، أو تقول أنه ذهب إلى المشرق؛ أين تعلم السحر، أو تزعم أنه قرأ على عبيد الله المعتزلي؛ ثم عودته إلى المغرب؛ أين وجد قوما من زناتة جهلة... إلخ. ثم ينتهي إلى القول: ((**ذكر ذلك كله صاحب كتاب نظم الجوهر وغيره من النسابين للبربر. وهو من الأغاليط البينة. وليس القوم من زناتة؛ ويشهد لذلك كله موطنهم وجوارهم لإخوانهم المصامدة. وأما صالح بن طريف فمعروف منهم؛ وليس من غيرهم؛ ولا يتم التغلب على النواحي والقبائل لمنقطع جذمه، دخيل في نسبه. سنة الله في عباده؛ وإنما الرجل في برغواطة؛ وهم شعب من شعوب المصامدة معروف**)).[1] ومع ذلك فما قاله ابن خلدون في هذا الأمر يحتاج إلى تمحيص وفحص؛ فهو عندما نسب برغواطة إلى المصامدة. وحين أرجع مصدر تلك الأخبار ـ المرفوضة لديه ـ إلى صاحب كتاب نظم الجوهر واخرين؛ لم يقدم دليلا أو حجة مقنعة تساند رأيه الرافض لما ذكره غيره؛ سوى تعليله للأمر بوحدة الموطن وعامل الجوار؛ علما بأن المنطقة التي تغلبت عليها برغواطة؛ تعتبر عند كثير من المؤرخين موطنا لقبائل عديدة ومتنوعة الأنساب ومختلفة العصبيات؛ وليست خاصة بالمصامدة فقط؛ بل

=الحادي والعشرين من المحرم. وشرع لهم في الوضوء غسل السرة والخاصرتين. وصلاتهم إيماء؛ لا سجود فيها، ويسجدون في اخر ركعة خمس سجدات. ويقولون عند الطعام والشراب: باسم "ياكس"؛ وزعم أن تفسيره باسم الله. وأمرهم أن يخرجوا العشر من جميع الثمار. وأباح لهم أن يتزوج الرجل من النساء ما شاء؛ ولا يتزوج من بنات عمه؛ ويطلقون ويرجعون الف مرة في اليوم. فلا تحرم عليهم المرأة بشيء من ذلك. وامرهم بقتل السارق حيث وجد؛ وزعم أنه لا يطهره من ذنبه إلا السيف. وأمرهم بالدية من البقر. وحرم عليهم رأس كل حيوان؛ والدجاجة مكروه أكلها؛ وقد وقتهم في الأوقات الديكة؛ وحرم عليهم ذبحها وأكلها؛ ومن ذبح ديكا وأكله أعتق رقبة... ووضع لهم قرانا يقروونه في صلواتهم)). الأنيس المطرب، ص: 83. كما تكلم البكري أيضا عن بعض التفاصيل الأخرى تخص هذه النحلة. المغرب. ص ص: 135 ـ 140. وقد أشار إليها أيضا ابن عذاري وابن الخطيب. البيان المغرب، ج: 1، ص ص: 225 ـ 227. أعمال الأعلام، ق: 3، ص ص : 182 ـ 183.

[1] **العبر، مج: 6، ص: 435.**

هي من مواطن زناتة حسبما ذكر البكري.[1] كما أن خبر برغواطة لم يأت عن طريق كتاب نظم الجوهر والنسابة الأمازيغ فحسب؛ بل جاء أيضا بواسطة الرواية التي أوردها البكري صاحب كتاب المغرب ـ وهو قديم العهد بالمقارنة مع زمن ابن خلدون ـ وقد استعان ابن خلدون نفسه بخبر البكرى.[2] وفي هذا يقول البكري أنه نقل خبر برغواطة عن الرواية المنسوبة إلى المدعو زمور بن موسى بن هشام بن وارديزن البرغواطي؛ صاحب صلاتهم، وسفير آخر أمرائهم أبي منصور عيسى ابن أبي الأنصار. حدث ذلك عندما قدم رسولا إلى الخليفة المستنصر، من قبل أميره عيسى بن أبي الأنصار البرغواطي. وكان وصوله إلى قرطبة في 352هـ(963م).

وجملة القول؛ فإن ما قاله البكري لا يختلف كثيرا عما ذكره آخرون؛ ومنهم ابن أبي زرع وابن الخطيب وابن عذاري؛ الذين يجمعون على أن برغواطة عبارة عن تجمع لقبائل أمازيغية متحالفة. ثم كيف يستبعد ابن خلدون أن تقبل قبائل تامسنا بطريف كأمير عليهم؟! مع أنه هو صاحب النظرية التي تقول بإمكان الاستعانة بعصبية أخرى؛ غير عصبية صاحب النصاب؛ بحيث تعوضه العصبية البديلة عن غياب عصبيته؛ وهذا ما نص عليه ضمن: "**فصل في أنه يحدث لبعض أهل النصاب الملكي دولة؛ تستغني عن العصبية**".[3] وكما هو معلوم فطريف هذا يدخل في عداد أهل النصاب؛ إذ كان وزيرا وقائدا في جيش ميسرة. بل كان عاملا لميسرة في تامسنا نفسها؛ كما ذكر ابن خلدون بالذات.[4] وإذا صحت الرواية التي تسند إلى طريف هذا قيادة الحملة العسكرية الاستطلاعية إلى أرض الأندلس؛ تلك الحملة التي سبقت غزوة طارق بن زياد؛ فإنه

[1] المغرب، ص: 135.
[2] العبر. مج: 6، ص ص: 428 ـ 432.
[3] المقدمة، ج: 2، ص ص: 635 ـ 636.
[4] العبر، مج: 6، ص: 428.

عندئذ يكون من أبرز القادة الأمازيغ في تلك الأيام. وعليه فإنه يكون قد انفرد بالأمر في تامسنا النائية؛ حيث انضم إليه ـ حسبما يبدو ـ جماعات من الصفرية الذين سبق لهم أن ثاروا معه ومع ميسرة؛ وبهم تشكلت النواة الأولى للدولة البرغواطية. وبعد مماته خلفه في الحكم ابنه صالح؛ الذي نسبت إليه النحلة البرغواطية. ويقول ابن خلدون أن أول ظهور له كان في عهد هشام بن عبد الملك.

أما ما راج من مزاعم تنسب طريفا أو صالحا إلى اليهود؛ يظهر أنها لم تكن سوى شكل من أشكال النبز والشتيمة.. والذي عزز تلك الافتراضات ـ حسبما يظهر ـ هي أسماء أجدادهما مثل: شمعون ويعقوب وإسحاق؛ ثم بعض الإشارات الأخرى التي تنبعث من معتقداتهم وأساطيرهم؛ التي وردت في قرآنهم المزعوم. وحتى إن صح نسبهم لليهود؛ فقد يكون ذلك حصل قبل الفتح؛ إذ يحتمل أن يكون طريف قد انحدر من أسرة كانت، تعتنق ديانة يهودية؛ قبل أن يدخل الإسلام إلى ديار المغرب. وهذا أمر كان موجودا في تلك الربوع؛ إذ ذكرت مصادر تاريخية عديدة اعتناق بعض القبائل الأمازيغية للديانة اليهودية، إلى جانب المسيحية في بلاد الغرب قبل الفتح الإسلامي. وطبعا فما المانع من التسليم بدخول من كان يهوديا أو نصرانيا إلى الإسلام؛ ضمن الأفواج التي دخلت فيه من أتباع الديانات الأخرى؟

ـ حكومة إلياس بن صالح البرغواطي:

وتقول بعض المصادر أن صالحا استخلف ابنه إلياس، ثم سافر إلى المشرق سنة 128هـ(745م). وذلك بعد أن أوصاه بإخفاء ديانتهم؛ حتى يقوى شأنهم؛ فيتسنى له ـ عندئذ ـ قتل المخالفين. كما أوصاه بأن يلتزم بموالاة ملوك بني أمية في الأندلس. وتقول بعض الروايات أيضا أنه أخبره بموعد عودته المقبلة؛ التي حددها بحلول عهد الملك السابع من ملوكهم؛ حيث

قال أنه سيظهر لهم في شخص المهدي؛ الذي يقتل الدجال، ويملأ الأرض عدلا بعد أن تكون قد ملئت جورا. ثم قال له: إن عيسى بن مريم ﷺ سيكون من بين جنوده؛ إذ يصلي خلفه. ومن خلال ما جاء في بعض الروايات؛ تكون مدة حكم صالح قد دامت نحو ست سنين. ولما انتصب إلياس ملكا على قبائل برغواطة عمل بوصية والده؛ فلم يظهر شيئا من نحلة برغواطة؛ وتقول المصادر أنه كتمها ولم يخض في شأنها؛ وبالمقابل كان يظهر الإسلام، ويتحلى بالعفاف والصلاح. وبقي في الحكم ما يقارب الخمسين سنة.

ـ حكومة يونس بن إلياس البرغواطي:

وبعد موت إلياس سنة 176هـ(792م) خلفه ولده يونس. فاتخذ شالة حاضرة لملكه. وهو أول من أظهر ديانتهم المزعومة؛ في أرجح الأقوال. وتم ذلك بعد عودته من رحلة الحج.[1] غير أن بعضهم ينسب إليه تأسيس النحلة دون جده صالح.[2] وكان يونس هذا شديدا وفاتكا؛ إذ أشعل تلك الجهات الغربية حربا وتدميرا وتشريدا للسكان؛ مجبرا الناس على إتباع

---

[1] قال ابن خلدون: ((ورحل يونس إلى المشرق وحج؛ ولم يحج أحد من أهل بيته قبله أو بعده؛ وهلك لاربع وأربعين سنة من ملكه)). العبر. مج: 6، ص: 430.

[2] نقل البكري قائلا: ((قال ابو العباس فضل بن مفضل المذحجي؛ أن يونس القايم بدين برغواطة أصله من شذونة؛ من وادي بربط. وكان قد رحل إلى المشرق في عام واحد مع عباس بن ناصح، ويزيد بن سنان الزناتي صاحب الواصلية، وبرغوث بن سعيد التراري، وجدّ بني عبد الرزاق (ويعرفون ببني وكيل الصفرية). ومناد صاحب المنادية (المنسوب إليه القلعة المعروفة بالمنادية قريبا من سجلماسة)، واخر ذهب عني اسمه. فأربعة منهم فقهوا في الدين؛ وادعى ثلاثة منهم النبوة؛ منهم يونس صاحب برغواطة". قال: "وكان يونس شرب دواء الحفظ؛ فلقن كل ما سمع وحفظه. وطلب علم النجوم والكهانة والجانّ. ونظر في الكلام والجدال؛ واخذ ذلك عن غيلان؛ ثم انصرف يريد الاندلس؛ فنزل بين هولاء القوم من زناتة؛ فلما راى جهلهم استوطن بلدهم. وكان يخبرهم بأشياء قبل كونها؛ مما تدل عليه النجوم عندهم؛ فتكون على ما يقول أو قريبا منه؛ فعظم عندهم. فلما رأى ذلك منهم، وعرف ضعف حلومهم وسخافة عقولهم اظهر ديانته، ودعا إلى نبوته؛ وسمى من اتبعه بربطي؛ لما كان من بربط؛ ثم أحالوه بألسنتهم وردّوه إلى لغتهم؛ فقالوا برغواطي)). المغرب. ص ص: 137 ـ 138.

نحلة جده.[1] ودام حكمه تسع وعشرة سنة؛ إذ توفي في عام 195هـ(810م). وهذا الرأي يخالف ما ذكره ابن خلدون؛ الذي يرى أنه حكم زهاء 44 سنة.

ـ حكومة أبي غفير معاذ بن يونس البرغواطي:

وبعد موت يونس تربع على سدة الحكم في دولة برغواطة ولده أبو غفيْر معاذ بن يونس؛ فكانت وطأته على الناس شديدة؛ حيث تابع نهج أبيه في إبادة الخارجين عن ديانة أجداده. وقد شن حملات إبادة جماعية على الخارجين عن سلطانه والرافضين لنحلته؛ وأهم تلك الوقائع والحملات: موقعة مدينة **تيمغيسن**؛ وكانت من كبريات المدن؛ فهجم عليها هجمة إبادة ذات أبعاد وحشية؛ دامت رحاها ثمانية أيام كاملة؛ حيث بدأت بيوم الخميس؛ ولم تتوقف إلا في الخميس الموالي؛ وجاء في الأخبار أن أزقة المدينة ودورها أضحت مليئة بالدماء. وشن أيضا حملة أخرى في موضع يقال له **بَهْت**؛ فأحدث فيه من القتل والتمثيل ما لا حصر له. وكانت له كذلك حروب عظيمة مع الأدارسة؛[2] وقد خسر في تلك الحروب كثيرا من أتباعه وأراضيه؛ حتى **شالة** ـ عاصمة دولته نفسها ـ سقطت في أيدي إدريس بن إدريس؛ بالإضافة إلى مناطق واسعة من تامسنا.[3]

---

[1] وفي هذا يقول البكري: ((فتولى الامر بعد أبيه؛ فاظهر ديانتهم، ودعا إليها، وقتل من لم يدخل فيها؛ حتى أخلى ثلاثمائة مدينة وسبعا وثمانين مدينة؛ حمل جميع أهلها على السيف لمخالفتهم إياه؛ وقتل منهم بموضع يقال له تامَلُوكاف ـ وهو حجر نابت عالي في وسط السوق ـ سبعة الاف وسبعمائة وسبعين قتيلا. وقتل من صنهاجة خاصة في وقعة واحدة ألف وغد؛ والوغد عندهم المنفرد الوحيد؛ الذي لا أخ له ولا ابن عم)). المغرب. ص: 136.

[2] اعمال الأعلام؛ ق: 3. ص: 186. دولة الأدارسة، ص: 280.

[3] وأبو غفير هذا هو الذي جاء ذكره في القصيدة التي قالها سعيد بن هشام المصمودي؛ يهجو فيها برغواطة؛ منها:

قفي قبل التفرق فاخبرينا
وقولي واخبري خبرا مُبينا
همُوم برابر خسروا وضلوا
وخابوا لا سقَوا ماء معينا=

وبقي أبو غفير في الحكم زهاء خمس وثلاثين سنة؛ إذ توفي في حدود عام 230هـ(844م) كما ذكر ابن الخطيب. أما ابن خلدون فيقول أنه حكم حوالي 29 سنة؛ إذ توفي في أواخر المائة الثالثة. وتقول الأخبار أن له أربع وأربعين زوجة؛ ومن البنين مثلهن وأزيد.[1]

ـ حكومة أبي الأنصار عبد الله بن محمد بن اليسع البرغواطي:

وبموت أبي غفير معاذ خلفه بعض الأمراء من بينهم: أبو الأنصار عبد الله بن محمد بن اليسع؛ هذا وقد أثنت المصادر التاريخية عليه، واعترفت بحسن سياسته، وابتعاده عن سفك الدماء. وتقول أنه لا يعتم إلا في وقت الحرب؛ وفي دولته لا يعتم إلا الغرباء؛ وكان لباسه الملاحف والسراويل؛ ولا يلبس القميص. ومن سياسته في الحرب؛ أنه يبدي ـ في كل عام ـ أنه ينوي الغزو؛ فيشرع في حشد الحشود؛ موهما القبائل الأخرى بأنه سيغزوها؛ فتسارع إلى تقديم الهدايا إليه؛ وبذلك يتخلى عن نواياه المزعومة. وهكذا يتخذ مبدأ الردع سياسة؛ بدلا من

ـيقولون: النبيُ أبو غفير
فأخزى اللهُ أمَ الكاذبينا
ألمْ تسمعْ ولمْ تر يومَ بهتَ
على اثار خيلهِمْ رنينا
رنين الباكيات بِهِم ثكالى
وعاويةٍ ومُسقِطةٍ جنينا
هنالك يونسْ وبنو أبيه
يوالون البوارَ مُعظّمينا
فليس اليوم ردتكمْ ولكِنْ
ليالي كنتمْ مُستَيسرينا
(يقصد بكلمة مستيسرين أنهم كانوا من أتباع ميسرة المطغري)

[1] من هنا بدأت أخبار المورخين عن برغواطة تغيب وتضطرب؛ فابن الخطيب هنا يقول: ((وولي بعده [أي بعد أبي غفير] ولده أبو حفص [عمر]. واستمرت دولة عمر بن معاذ إلى أن توفي؛ وولي ولده اليسع بن إسماعيل [هكذا يصبح عمر إسماعيلا]؛ فقام بديانتهم ينتظر ظهور جده الشيخ صالح؛ إذ كان سابع الأمراء من بنيه. واتصل أمر اليسع إلى سنة اثنتين وخمسين وأربعمائة. وظهر أمر اللمتونيين ودعوتهم إلى أساس من فقه ودين؛ فجعلوهم جهادا قريبا وغزاهم الأمير أبو بكر بن عمر اللمتوني؛ فقتلهم قتلا ذريعا؛ حتى اسلموا إسلاما جديدا. وكان اخر ملوكهم عيسى بن أبي الأنصار عبد الله بن محمد بن اليسع؛ وانقرض ملكهم. وقبيلهم اليوم قبيل ضعيف؛ لعب سيف الملثمين فيهم، ثم سيف المهدي بعده)). اعمال الاعلام، ق: 3، ص ص: 186 ـ 187.

الحرب. هذا وقد ملك أبو الأنصار زهاء اثنين وأربعين سنة. ولم تشر المصادر إلى تاريخ وفاته

ـ حكومة أبي منصور عيسى بن عبد الله البرغواطي:

ولما توفي أبو الأنصار خلفه ابنه أبو منصور عيسى. وهذا الملك هو الذي أرسل سفيره زمورا إلى المستنصر بقرطبة سنة 352هـ(963م).[1] كما أنه هو سابع الأمراء البرغواطيين، وعليه فقد يكون أطال الانتظار؛ طمعا في تحقيق نبوءة جده صالح المزعومة؛ ولكن جده لم يف بوعده؛ ولم يعد كما زعم وأوهم أحفاده وأتباعه.. غير أن قادما أخر ظهر في الأفق؛ وهذا الوافد هو الذي تولى مهمة القضاء على دولة برغواطة نفسها؛ ثم إزالة نحلتهم الشاذة الغريبة نهائيا. وذلك القادم لم يكن سوى أبي بكر بن عمر اللمتوني أمير المرابطين؛ الذي سحق مملكة برغواطة، وحاربهم كما يحارب الوثنيين والكفار؛ وهكذا؛ لم يبق

---

[1] يقول البكري: ((أخبر أبو صالح زمور بن موسى بن هشام بن وارديزن البرغواطي ـ وكان صاحب صلاتهم حين قدم رسولا من قبل صاحب برغواطة أبي منصور عيسى ابن أبي الأنصار عبد الله ابن أبي غُفيْر محمد بن معاذ بن اليسع بن صالح بن طريف ـ وكان وصوله إلى قرطبة في شوال سنة اثنتين وخمسين وثلاثماية ـ وكان المترجم عنه بجميع ما أخبر به الرسول الذي قدم معه وهو أبو موسى عيسى بن داود بن عشرين السطاسي ـ من أهل شلة. مسلم، من بيت خيرون بن خير. فأخبر زمور أن طريفا أبا ملوكهم من ولد شمعون بن يعقوب بن إسحاق؛ وأنه كان من أصحاب ميسرة المطغري ـ المعروف بالحقير ـ ومغرور ابن طالوت. وإلى طريف نسبت جزيرة طريف. فلما قتل ميسرة وافترق اصحابه؛ احتل طريف ببلد تامسنى ـ وكان إذ ذاك ملكا لزناتة وزواغة ـ فقدمه البربر على أنفسهم؛ وولي أمرهم؛ وكان على ديانة الإسلام؛ إلى أن هلك هنالك؛ وتخلف من الولد أربعة؛ فقدم البربر ابنه صالحا منهم. قال زمور: "وكان موت صالح بعد موت النبيﷺ بماية عامٍ سوا". قال: "وحضر مع أبيه حروب ميسرة الحقير وهو صغير". قال: "وكان من أهل العلم والخير؛ فتنبأ فيهم، وشرع لهم الديانة التي هم عليها إلى اليوم؛ وادعى أنه نزل عليه قرءانهم الذي يقروونه إلى اليوم". قال زمور: "وهو صالح المومنين الذي ذكره الله عز وجل في قرءان محمد ﷺ في سورة التحريم. وعهد صالح إلى ابنه إلياس بديانته، وعلمه شرايعه، وفقهه في دينه؛ وأمره أن لا يظهر ذلك إلا إذا قوي وأمن؛ فإنه يدعوا إلى ملته؛ ويقتل حيننذ من خالفه. وأمره بموالاة أمير الأندلس. وخرج صالح إلى المشرق؛ ووعد أنه ينصرف إليهم في دولة السابع من ملوكهم؛ وزعم أنه المهدي الأكبر الذي يخرج في أخر الزمان لقتال الدجال؛ وأن عيسى بن مريم يكون من أصحابه، ويصلي خلفه؛ وأنه يملأ الأرض عدلا كما ملئت جورا...)). المغرب، ص ص: 134 ـ 136.

لهم شأن يذكر؛ بعد سنة 450هـ(1058م). وما بقي من شتاتهم وجيوبهم المتفرقة؛ أكمل حصاد رؤوسهم المهدي بن تومرت. أما وفاة أبي منصور عيسى فقد حدثت قبل ظهور المرابطين في بلاده؛ إذ قتل في سنة 368هـ(978م) في غزوة شنها على برغواطة بلكين بن زيري.

وجملة القول تتلخص في أن هذه الدولة لم تهنأ بالأمن والاستقرار طوال حياتها الطويلة؛ إذ تعرضت ـ منذ نشأتها ـ إلى هجمات وغزوات عديدة؛ من قبل الدول المجاورة لها أو البعيدة عنها؛ وإذا خفت الضغوط عليها قامت هي بالهجوم على القبائل المجاورة لها؛ بهدف إخضاعها وسلب ثرواتها. وهذا هو ـ بالطبع ـ شأن الكيانات القبلية؛ التي تنبذ السكون وتمل الاستقرار على حال واحدة. ومن بين الدول التي ناصبت البرغواطيين العداء، وناوشتهم بالقتال: الدولة الإدريسية بفاس؛ التي تمكنت من انتزاع مقاطعات شاسعة منهم في إقليم تامسنا؛ وطردتهم حتى من عاصمتهم مدينة شالة. ثم الدولة الأموية بالأندلس؛ وذلك عندما قام جعفر بن علي ـ في عهد المنصور ابن أبي عامر ـ بالزحف لقتال برغواطة في سنة 366هـ(976م)؛ ولكنه هزم في تلك المعركة. ثم في عام 389هـ(998م)؛ حينما قاد واضح مولى المنصور بن أبي عامر جيشا لغزوهم؛ فبالغ في قتلهم وسبيهم. كما غزاهم بلكين بن زيري سنة 368هـ(978م)؛ فاكتسح برغواطة وأثخن فيهم، وشتت شملهم؛ وقتل ملكهم أبا منصور عيسى ابن أبي الأنصار، وبعث سبيهم إلى القيروان. ثم شن عليهم تميم بن زيري بن يعلى اليفرني سنة 420هـ(1029م) حربا كاسحة؛ فانتزع منهم تامسنا وأنهكهم بالقتل والسبي والتشريد. وبعدها انتهى أمر دولتهم نهائيا بواسطة المرابطين؛ بقيادة أبي بكر بن عمر سنة 450هـ(1058م)؛ وذلك بإسقاطها، وقتل ملكهم؛ وسماه ابن

خلدون بأبي حفص عبد الله البرغواطي؛ وهو من ولد أبي المنصور عيسى بن الأنصار.[1]

۞۞۞

ـ الحضارة والحركة الثقافية:

ويبدو أن دولة برغواطة هذه ظلت على طابعها البدوي الساذج؛ لأنها لم تخلف وراءها أية مآثر حضارية وثقافية تستحق الذكر. ولم يعرف من آدابهم سوى ذلك المنتوج الشفوي المتمثل فيما ابتكره صالح ـ أو يونس ـ من نصوص؛ أوهم أتباعه بأنها وحيا أو قرآنا نزل عليه. ويقال أن تلك النصوص تقدر بثمانين سورة كما سموها؛ منها: سورة الديك، وسورة الجمل، وسورة الفيل، وسورة الحجل، وسورة الجراد، وسورة العجل، وسورة الحنش الذي يمشي على ثمانية أرجل، وسورة آدم، وسورة نوح، وسورة يونس، وسورة أيوب، وسورة طالوت، وسورة هاروت وماروت وإبليس، وسورة غرائب الدنيا، وسورة الدجال، وسورة فرعون، وسورة قارون، وسورة هامان، وسورة ياجوج وماجوج، وسورة نمرود؛ بالإضافة إلى ما كانوا يشتغلون به من طقوس سحرية، وما كانوا يجيدونه من تنجيم ومعرفة بالنجوم..[2] وقد أورد البكري نصا مترجما من السورة المسماة بسورة أيوب؛ وقال أنها استفتاح كتابهم؛ وهي طويلة. جاء فيها: **((بسم الله الذي أرسل به الله كتابه إلى الناس؛ وهو الذي بين لهم به أخباره. قالوا علم إبليس القضية أبى الله ليس يطيق إبليس؛ كما يعلم الله سل أي شيء؛ يغلب الألسن في الأقولة، ليس يغلب الألسن في الأقولة إلا الله بقضائه باللسان الذي أرسل الله بالحق إلى الناس استقام الحق. أنظر محمدا (وعبارة**

---

[1] العبر، مج: 6، ص ص: 432 ـ 434.

[2] المغرب، ص: 140. والعبر، مج: 6، ص: 429.

ذلك بلسانهم أيمني مامت؛ فمامت محمد). كان حين عاش استقام الناس كلهم الذين صحبوه؛ حتى مات ففسد الناس. كذب من يقول أن الحق يستقيم وليس ثم رسول الله)).[1] ومن خلال ما ورد من أسماء لتلك السور وما توحي إليه؛ يمكن استشفاف تأثير التراث اليهودي في ذلك كله. وقد يكون هذا من بين العوامل التي أثارت الشكوك في يهوديتهم.

المهم أن هذه الدولة كانت منغلقة على نفسها؛ لا تترك للتيارات الثقافية والحضارية الأخرى مجالا للتسلل إليها. ويعود ذلك إلى عزلتها وانطوائها ضمن النظم القبلية المتحجرة، وإلى الجهل المتحكم في أبنائها، وإلى رفض حكامها كل العوامل الثقافية الخارجة عن نطاقهم وكل ابتكار حضاري متطور يرد إليهم. وعليه فقد بقيت هذه الدولة ـ طيلة القرون التي عاشتها ـ تستند إلى النظام القبلي إلى أن جاء يوم سقوطها.

ويبدو ـ من جهة أخرى ـ أن انعدام الإنجازات الحضارية، وغياب الصلات الثقافية مع غيرهم؛ كان بمثابة التحصين والوقاية لأصحاب هذه الدولة؛ الأمر الذي ساعد على إبعادهم عن أسباب الترف والبذخ والاستسلام للسكينة والفتور. والراجح أن هذه الظاهرة ساعدت الدولة البرغواطية البدوية؛ على البقاء حتى عهد المرابطين؛ أي من الثلث الأول من القرن الثاني إلى منتصف القرن الخامس للهجرة. وخلال تلك الفترة الطويلة بقي أبناؤها على حال من الشدة والقوة والإقدام؛ حيث كانت أهم الصفات التي يتحلون بها، ويحرصون على التمسك بها هي الصفات العسكرية؛ ذات الطابع القتالي. وعليه فقد صح فيهم حكم ابن خلدون؛ حين تناول هذا الموضوع في مقدمته ضمن: "**فصل في أهل البدو أقرب إلى الشجاعة من أهل الحضر**". و"**فصل في أن الأمم الوحشية أقدر على التغلب ممن سواها**".[2]

---

[1] المغرب، ص: 140.

[2] المقدمة، ج: 2، ص ص: 588 ـ 589. 607 ـ 609.

ولكي نستكمل الصورة التي تخص قبيلة برغواطة؛ لابد من الإشارة هنا ـ ولو بإيجاز ـ إلى إمارة برغواطية أخرى؛ هي إمارة سقوط البرغواطي. نشأت هذه الامارة فجأة واختفت دون ضجيج كبير، أو اعتناء كافي من طرف المؤرخين؛ وتم قيام هذه الإمارة ضمن محيط مختلف ـ بعض الشيء ـ عما كانت عليه الإمارات البرغواطية السابقة. ويعتبر أهم عامل تختلف فيه دولة ((سقوط)) عن الإمارات السالفة الذكر؛ هو أن أمراء هذه الدولة لا يؤمنون بالنحلة الإلحادية البرغواطية. وربما كانوا يتبعون المذهب السني؛ بحكم الولاء والتبعية لسادتهم من الأدارسة الحموديين؛ الذين يدينون بالمذهب السني. ومع هذا لا بد من الإشارة إلى عبارة خاطفة أوردها ابن بسام نقلا عن ابن حيان؛ حين قارن بين المعتضد بن عباد وسقوط؛ فقال: ((من **هضم جاره الخارجي سقوت مولى ابن حمود**)). وهذه العبارة توحي للقارئ باحتمال اعتناق سقوط للمذهب الخارجي. غير أن قول ابن حيان هذا قد يكون من قبيل التشنيع بسقوط؛ وتذكير الناس بأسلافه الصفرية. المهم أن سقوط وابنه ـ حسبما جاء في المصادر ـ لا علاقة لهما ببدع الامارات البرغواطية الأولى؛ وكل مايربطهما ببرغواطة هو أنهما ينحدران من أصول برغواطية؛ كما أن جيشهما مكون في معظمه من شتات قبيلة برغواطة.

ـ حكومة سقوط البرغواطي:

تجمع المصادر على أن هذه الإمارة نشأت في سبتة وطنجة؛ بقيادة سقوط أو (سكوت) بن محمد البرغواطي، وبمساعدة زميله أبي العطاف رزق الله البرغواطي أيضا؛ والذي كان في طنجة. وربما تكون هذه الإمارة قد بدأت في الظهور لأول مرة؛ في شكل ولاية من ولايات الدولة الإدريسية الحمودية التي كانت قائمة بمالقة؛ ويرجح أن ذلك حصل بعد مقتل الفتى الصقلبي نجا في سنة 434هـ(1042م)؛ الأمر الذي أبقى سبتة خالية من

شخص قوي يتولاها. ولا يعرف بالضبط التاريخ الذي أصبح فيه سقوط هذا واليا عليها.[1] وكل ما عرف هو أن الذي ولي على سبتة وطنجة ـ بعد إدريس بن علي بن حمود ـ هو الحسن بن يحيى بن علي؛ رفقة الوصي عليه المسمى نجا الصقلبي. لذا يمكن إرجاع بداية أمر هذين البرغواطيين إلى الفترة الزمنية التي تلت مقتل الفتى نجا؛ ذلك المملوك الصقلبي الذي طمع في اغتصاب عرش الحموديين؛ فاغتاله بعض جنوده؛ الذين ينتمون أصلا إلى برغواطة؛ وهم كما قيل: أخوال الأمير حسن بن يحيى بن علي بن حمود.[2]

وحسبما يظهر فمنذ تلك الحادثة رجحت كفة سقوط مولى يحيى بن على بن حمود؛ ذلك المملوك الذي تركه يحيى في سبتة لأمر ما؛ عندما قرر التوجه إلى مالقة.[3] ومرت فترة من

---

[1] لقد تضاربت الأقوال حول التاريخ الذي ولي فيه سقوط بسبتة. وقد ذكر ابن بسام أن يحيى بن علي بن حمود هو الذي ولى سقوط على سبتة؛ (المجلد الثاني من القسم الثاني، ص: 657. أنظر إلى ما جاء في التعليق بالصفحة الموالية). بينما الخبر المؤكد الذي ذكره ابن بسام نفسه؛ نقلا عن ابن حيان؛ واتفق فيه مع كثير من المؤرخين (أنظر المجلد الأول من القسم الأول، ص: 481.) أن يحيى المعتلي أسند ولاية سبتة ـ عندما جاز للأندلس ـ إلى أخيه ادريس بن علي؛ الذي كان ـ في عهد أبيهما ـ واليا على مالقة. ولما قتل يحيى بن علي: خلفه أخوه إدريس المتأيد؛ الذي ولى الحسن بن يحيى بسبتة؛ تحت وصاية الفتى نجا. (الكامل، ج: 7، ص: 288. والمعجب، ص: 61). ولما تولى الحسن بن يحيى مقاليد الخلافة بمالقة؛ ترك أمر سبتة في يد الفتى نجا. (الكامل، ج: 7، ص: 289. والمعجب، ص: 63). وعليه قد يعود ظهور سقوط إلى هذه الفترة بالذات؛ خاصة بعد مقتل نجا.

[2] البيان المغرب، ج: 3، ص: 216.

[3] يقول ابن عذاري: ((وكان سوّجات [سقوط] مولى ليحيى بن علي بن حمود؛ اشتراه من رجل حداد من سبي برغواطة وهو دون البلوغ؛ فحظي عنده؛ فلما سار يحيى إلى الأندلس وخلف سوجات مولاه بسبتة؛ وجعل معه ناصرا عليه مولاه رزق الله)). البيان المغرب، ج: 3. ص: 25(). وهذا الخبر يكون قد اقتبسه ابن عذاري عن ابن بسام الذي قال: ((ولما افضت الدولة الحمودية إلى سقط زندها، ومنتهى جهدها؛ يحيى بن علي ـ المتقدم الذكر ـ القى بمقاليد سبتة الى هذه الأفعى الجارية، والشعلة الوارية؛ سقوت المذكور؛ [انظر التعليق السابق؛ ففيه ما يعارض هذا] فأقام به عمودها، وأطمعه قائمها وحصيدها؛ وطفق لأول حينه يخلق ويفري، ويجر لأبعد شنونه ليسير ويسري؛ وقد كان يحيى بن علي أشرك معه في عمالتها مولى اخر من مواليه يكنى أبا العطاف؛ أحد أجذال الطعان، وكفاة الأقران؛ فأقاما بقية أيام يحيى بن علي يتجاذبان أهدابها، ويتعاطيان أقداحها وأكوابها؛ الى أن وقع من مقتله؛ سنة سبع وعشرين [وأربعمائة] ما فرغنا من ذكره، ونبهنا على مستودع مستقره. ولما أفضت دولة آل حمود إلى ابنه [العالي] إدريس ابن يحيى بن علي؛ سما سقوت بن محمد؛ فأخذ بلقم الطريق، وطلع لمغبونه إدريس=

الوقت لا يعرف الدور الذي كان يلعبه سقوط هذا في سبتة؛ خاصة في ولاية إدريس بن علي بسبتة، ثم ولاية الحسن بن يحيى. والراجح أن مركزه قد تعزز خلال الفوضى التي سادت مالقة؛ بعد اجتياحها من طرف الخادم نجا؛ الأمر الذي أوصله إلى القتل بيد جنوده الأمازيغ البرغواطيين. وهنا يمكن للقارئ تخيل الحركة التي تكون قد حدثت بعد مقتل نجا؛ وعودة الجيش إلى سبتة؛ ذلك الجيش المشكل من الأمازيغ؛ ومن برغواطة بالخصوص. والأمر المؤكد ـ بعد ذلك ـ أن المصادر أصبحت تتكلم عن سقوط البرغواطي كوال على سبتة؛ وفي طاعة الخليفة الحمودي العالي إدريس بن يحيى بمالقة. ثم أخذ نفوذ سقوط يتوسع، وتزداد قبضته إمساكا وتحكما في الأمر؛ حتى استبد نهائيا؛ بعد انحلال الدولة الحمودية واندثارها. ويمكن تفسير حدوث ذلك؛ طبقا لما قرره ابن خلدون ضمن فصل: "**فصل في حدوث الدولة وتجددها؛ كيف يقع؟**".[1]

ولما زالت دولة بني حمود نهائيا انبرى سقوط لضم طنجة إلى إمارته وانتزاعها من يد زميله رزق الله؛ الذي كان واليا على تلك المدينة. وتم له ذلك ـ بالفعل ـ سنة 453هـ(1061م)[2] حيث تغلب على طنجة وقتل واليها رزق الله. وهنا تطلع إلى مرتبة أسمى من التي كان يحتلها؛ إذ تسمى بلقب المنصور المعان؛ واستقل نهائيا بدولته. وأورد ابن حيان خبر

=من ثنايا العقوق: وأول ما بدأ به من ذلك الفتك بشريكه الخاسر؛ بحيلة خفية.. فأصبح بعده سقوت بن محمد قد حلت شمس سلطانه بالحمل، وقام وزن زمانه فاعتدل؛ وتسمى ـ لاول وقته يومئذ ـ من الاسماء السلطانية بالمنصور المعان)). الذخيرة، ق: 2، مج: 2، ص ص: 657 ـ 658. ويقول ابن خلدون في حديثه عن العالي أيضا: ((ولقب العالي؛ وولى على سبتة سكوت ورزق الله من عبيد أبيه)). العبر. مج: 4، ص: 334.

[1] وفيه يقول: ((بأن يستبد ولاة الأعمال في الدولة بالقاصية؛ عندما يتقلص ظلها عنهم؛ فتكون لكل واحد منهم دولة يستجدها لقومه وما يستقر في نصابه؛ يرثه عنه أبناؤه أو مواليه؛ ويستفحل لهم الملك بالتدرج. وربما يزدحمون على ذلك الملك ويتقارعون عليه. ويتنازعون في الاستئثار به؛ ويغلب منهم من يكون له فضل قوة على صاحبه. وينتزع ما في يده)). المقدمة. ج: 2. ص: 872.

[2] البيان المغرب. ج: 3. ص: 250.

الخصومة التي حدثت بين سقوط والمعتضد بن عباد؛ الذي أصبحت الجزيرة الخضراء ضمن مملكته؛ وقد تصاعد خلافهما حتى وصل إلى الاقتتال في البحر سنة 457هـ(1064م).[1] وكان يشد أزره ابنه يحيى؛ الذي يقوم مقام وزيره، إذ هو المتصرف في شنون الدولة؛ خاصة بعد أن كبر سقوط، وبعد أن أثقلته السنون. وظهر هذا من خلال معارضته لأبيه؛ حين أراد مساعدة المرابطين ضد قبائل غمارة [وعند ابن بسام زناتة]؛ فأقنعه بالعدول عن ذلك الأمر.[2] المهم أن جيش لمتونة ـ بعد انتهائه من موقعة الدمنة ـ تحول إلى قتال سقوط؛ وذلك لما شعروا منه من بوادر العصيان، نظرا لرفضه الانضمام إليهم. ولما علم سقوط بزحف المرابطين إليه خرج وهو يقسم: ((ألاّ يسمع قرع **طبله في ملكه**)).[3] وكان سقوط هذا قد امتد حكمه حتى بلغ من

---

[1] قال ابن بسام نقلا عن ابن حيان: ((كان سبب ذلك باعتقال عباد لرجل من تجار سبتة؛ في شيء حضره بحضرته؛ فاعتدى عليه سقوت؛ فاعتقل له عدة تجار؛ فنشأت لذلك بينهما وحشة سنة سبع وخمسين [وأربعمانة]؛ فامتطيا لهما ظهر اللجج؛ على ما بينهما من التطام اللجج؛ فتهافتا على القطيعة، واجتمعا على عقد البحر بينهما؛ فتلفت فيه رووس وأموال، وهلكت من أجلها نفوس رجال؛ يطول في صفتها المقال؛ إلى أن أكمل عباد من أسطول أنشأه نحوا من ثمانين قطعة؛ فاجراها إلى سبتة؛ فخرج عليها أسطول لسقوت؛ فكان الظهور لابن عباد؛ ثم افترقت الأساطيل؛ بعد حروب وسفك دماء؛ وانقطع بحر الزقاق بينهما مدة استهما اجترار منافعه فيها. ثم يضيف ابن بسام قائلا: ثم غلظ امر سقوت؛ حتى اخاف القريب والنازح، واقتاد الحرون والجامح، وانبثت سراياه في البحر والبر: فأدرك المطلوب والطالب، وتصيد الطافي والراسب)). الذخيرة، ق: 2، مج: 2، ص ص: 659 ـ 660.

[2] يقول ابن بسام ((ودارت النوبة على سقوت بن محمد؛ فتطرف أمير المسلمين ـ رحمه الله ـ بلده للفراغ ممن شذ عنه من زناتة؛ وقد التفوا بأحد محاش الفتنة، ووألوا إلى موضع يعرف بالدمنة؛ فنزل بساحتهم أمير المسلمين؛ سنة إحدى وسبعين [وأربعمائة]؛ على مقربة من بلاد سقوت؛ فهم بالانحياش اليه؛ فقد كان آل وآيل عليه؛ فنهاه حزبه الذميم السعي، وثناه ابنه الفائل الرأي)). الذخيرة، ق: 2، مج: 2، ص: 660. وقال أحمد الناصري: ((إلى أن استقل [سقوط] بالأمر. واقتعد كرسي عملهم [عمل الحموديين] بطنجة وسبتة؛ واطاعته قبائل غمارة؛ واتصلت أيام ولايته إلى أن كانت دولة المرابطين؛ وتغلب يوسف بن تاشفين على بلاد المغرب؛ ونازل بلاد غمارة؛ فدعا الحاجب سكوت إلى مظاهرته عليهم؛ فهم بالاجلاب معه، ومظاهرته على عدوه؛ ثم ثناه عن ذلك ابنه الفائل الرأي. فلما فرغ يوسف بن تاشفين من أهل الدمنة؛ وانقاد المغرب لطاعته صرف عزمه الى الحاجب سكوت)).الاستقصاء، ج: 2، ص ص: 30 ـ 31.

[3] مفاخر البربر، ص: 55. وقال أحمد الناصري أيضا: ((فلما قربوا [المرابطون] من طنجة برز اليهم الحاجب سكوت بجموعه ـ وهو شيخ كبير قد ناهز التسعين سنة ـ وقال:=

العمر عتيا؛ إذ ناهز التسعين سنة كما يقال. وقدر له أن تكون نهايته في سنة 471هـ(1078م)؛ خلال المعركة التي تقابل فيها مع جيش المرابطين الزاحف إلى طنجة؛ بقيادة صالح بن عمران. حيث ختمت الواقعة بمقتل سقوط؛ ودخول المرابطين إلى طنجة.

ـ حكومة الحاجب ضياء الدولة يحيى بن سقوط:

لما سقطت طنجة ـ بعد مقتل سقوط ـ سارع ابنه يحيى إلى التحصن خلف أسوار سبتة؛ تلك المدينة المنيعة. وجدد فيها ملك أبيه؛ حيث لقب بالحاجب العز؛ كما تسمى أيضا بلقب مشرقي وهو ضياء الدولة. هذا وقد استمر هذا الأمير في حكم مدينة سبتة لبضع سنين؛ بعد أن استعصى أمره على المرابطين. ويظهر مما كتبه ابن بسام؛ أن ضياء الدولة العز بن سقوط هذا يكون قد أشعل محيطه بالفتن والحروب الخاطفة؛ خاصة في البحر؛ حيث قال: ((**لا سيما البحر؛ فإنه أضرم لججه نارا، ولقي ريحه إعصارا؛ أخذ كل سفينة غصبا، وأضاف إلى كل رعب رعبا؛ فضجت منه الأرض والسماء، والتقت الشكوى عليه والدعاء**)).[1] ولما صعب أمر العز؛ وتعذر اقتحام سبتة من البر؛ طلب ابن تاشفين من ابن عباد مده بسفينة في غاية الإتقان؛ جاءت إلى طنجة للميرة؛ لكي يستعملها في حصار سبتة من البحر؛ فاستجاب له ابن عباد ووضعها تحت تصرفه؛ وبذلك تقدم أسطول المرابطين في البحر محاصرا سبتة؛ بينما شدد الخناق عليها ـ أيضا ـ من البر.[2] ومع هذا كاد المرابطون أن

="والله لا يسمع أهل سبتة طبول اللمتوني وأنا حي أبدا". فالتقى الجمعان بوادي منى من أحواز طنجة؛ والتحم القتال؛ فقتل سكوت، وفضت جموعه، وسار المرابطون إلى طنجة؛ فدخلوها واستولوا عليها. ولحق ضياء الدولة يحيى بن سكوت بسبتة؛ فاعتصم بها)). الاستقصاء، ج: 2، ص: 31.

[1] الذخيرة، ق: 2، مج: 2، ص: 662. ومفاخر البربر، ص ص: 55 ـ 56.

[2] قال ابن بسام في فتح سبتة: ((فلما كان يوم الخميس من صفر سنة ست وسبعين [وأربعمائة] قدم أمير المسلمين لقتال سبتة أسطولا فخما؛ رجم به مردة عفاريتها رجما؛=

يخسروا المعركة في بداية الأمر ؛ وذلك عندما استولى العز بن سقوط على أهم سفينة لديهم؛ فبعث هذا فيهم هلعا واستياء؛ ومع ذلك استطاعوا ضبط الأمور، واستعانوا بالصبر على المصاب؛ ثم عاودوا الكرة ـ مرة أخرى ـ بعزيمة أشد وأقوى؛ فانهار لها دفاع جيش يحيى بن سقوط؛ فانهزم جله؛ لما تأكد يحيى بن سقوط من فشل دفاعه؛ حاول الهروب عبر البحر ؛ ولكنه استدرك وتراجع عن اختيار الهروب؛ فقبض عليه بعد مقاومة دامت ليلة بكاملها. ويقول صاحب مفاخر البربر: أنه لما مثل أمام المعز بن يوسف بن تاشفين ((**فطلب منه المال؛ فقال له: "ألخازن أبيك كنت نجمع المال؟" فحلله الحسام، وحكم فيه الحمام**)).[1] وانتهى بذلك أمر ضياء الدولة العز بن سقوط؛ إذ قتل في ربيع الآخر من سنة 477هـ(1084م). وبذلك انتهت دولة سقوط البرغواطي نهائيا.

۞۞۞

=ولقيه العز بن سقوت ببقية جمة من أسطول: طالما أوسع البلاد شرا، وملأ قلوب أهلها ذعرا. فكان ـ لاول ذلك اليوم ـ ظهور على أسطول المرابطين؛ حتى أخذ منه قطعة جليلة المقدار؛ ظاهرة الحماة والأنصار؛ فكان من إذلال الله للعز بن سقوت ـ يومئذ ـ أن بخل على اخذيها؛ وتكلم كلام أنكر عليه فيه. وارتاعت محلة المرابطين لأخذ تلك القطعة؛ حتى هموا بالاحجام؛ وقوضوا بعض الخيام. وغضب أمير المسلمين وناصر الدين رحمه الله ـ احدى غضباته؛ فكانت إياها؛ وفغرت المنايا على سبتة فاها؛ وتقدمت تلك السفينة حتى اطلت على أسوارها، ورفعت صوتها ببوارها؛ وأفضت بدولة صاحب سبتة الى سوء قرارها؛ ليلة الجمعة من صفر المورخ. ولجأ العز بن سقوت في نفير من أصحابه إلى البحر؛ فهم بركوبه؛ فاعوزه الفرار؛ ودفع في صدره المقدار؛ وكر راجعا؛ فدخل دارا تعرف بدار تنوير؛ وبدر به جماعة من المرابطين؛ فاقتحموا عليه بعد مرام بعيد، وقتال شديد؛ حتى ضاق اضطرابه. وفر عنه أصحابه. ولما أحس بالشر دفع ذخائر كانت عنده إلى أحد من وفى له من رووس حماته. فبلغني انه عثر عليها؛ ووجد فيها جوهرٌ كثيرٌ، ونشب من نشب الملوك خطير؛ ووجد في جملتها خاتم يحيى بن علي بن حمود. وخرج العز بن سقوت حين وضح الفجر؛ فلقيه المعز ابن أمير المسلمين ـ رحمهما الله ـ فجلله الحسام، وحكم فيه الحمام)). الذخيرة، ق: 2، مج: 2، ص ص: 663 ـ 664.

[1] مفاخر البربر، ص ص: 56 ـ 57.

ـ الحضارة والحركة الثقافية:

يبدو أن سبتة في عهد سقوط البرغواطي لم تكن في مستوى يؤهلها للقيام بدور ثقافي معين بين سكانها. وعلى الرغم من أنها كانت كرسيا لحكم بعض الأدارسة من الحموديين؛ إلا أنها لم تظهر أي دور ثقافي وعلمي يستحق التنويه. وإن كان البكري ـ الذي عاصر سقوطا ـ يقول عن سبتة: **((ولم تزل دار علم))**.[1] ومع هذا فلا بد أن يكون للأندلس بعض الأثر في الحركة الثقافية بتلك المدينة، خاصة في بعض المنجزات الحضارية والعمرانية كالمساجد والحمامات. غير أنه سجل في الزمن الذي تلا عصر سقوط هذا؛ ازدهار علمي ملحوظ في سبتة؛ تلك المدينة التي أضحت مركز علم وثقافة مرموق في المغرب والأندلس.[2] أما عصر سقوط فيمكن أن يعبر عنه خطابه لابن جهور أمير قرطبة؛ الذي يقال أنه طلب فيه منه أن يرسل إليه قارئا للقران. وربما دل هذا على ندرة القراء في سبتة في تلك الأثناء.[3] كما أن الإشارة الساخرة التي أطلقها أبو الوليد الشقندي في رسالته التي يفاخر فيها ببلاد الأندلس والأندلسيين؛ تبرز صورة سقوط التي كانت في ذهن المثقفين آنئذ؛ وذلك حين قال لأبي يحيى ابن المعلم الطنجي: **((وبالله إلا سميت لي بمن تفخرون قبل هذه الدعوة المهدية** [يقصد دعوة الموحّدين] **أبسقوط الحاجب؟ أم بصالح البرغواطي؟))**.[4] ومع هذا لا سبيل إلى نكران أن بلاط ضياء الدولة يحيى بن سقوط بسبتة احتضن

---

[1] المغرب. ص: 103.

[2] للتوسع في هذا الامر يمكن الرجوع إلى كتاب المقري أزهار الرياض في أخبار عياض؛ ففيه ما يفيد..

[3] أورد ابن عذاري خبرا قال فيه: ((وذكر عن أبي الوليد بن جهور صاحب قرطبة أنه قال: وردت علي من الكتب في يوم واحد كتاب من ابن صمادح صاحب المرية= يطلب جارية عوادة، وكتاب من ابن عباد يطلب جارية زامرة، وكتاب من سواجات [سقوط] صاحب سبتة يطلب قارئا يقرا القران". فوجه من طلبة قرطبة رجلا يعرف بعون الله بن نوح. وعجب ابو الوليد من ذلك وقال: جاهل يطلب قاريا، وعلماء يطلبون الاباطيل")). البيان المغرب، ج: 3، ص: 250.

[4] نفح الطيب، ج: 3، ص: 191.

ــ يوما ما ــ شاعرا مثل علي بن عبد الغني الحصري الضرير؛[1] صاحب القصيدة الذائعة الصيت التي يقول فيها:

يَا لَيْلَ الصَّبِّ مَتَى غَدُهُ   أَقِيَامُ السَّاعَةِ مَوْعِدُهُ
رَقَدَ السُّمَّارُ فَأَرَّقَهُ   أَسَفٌ لِلْبَيْنِ يُرَدِّدُهُ

وقد اتصل هذا الشاعر الفحل ـ أثناء مقامه بسبتة وطنجة ـ بضياء الدولة يحيى بن سقوط البرغواطي؛ حيث كانت له حظوة عنده؛ وهذا ما سجله ابن بسام حين قال: ((**وأفضت الدولة البرغواطية إلى الحاجب المعز ابنه** [أي ابن سقوط] **شهاب أفلاكها، وخيرة أملاكها. هبّ الأدب ريحا، ونفخت دولته في أهله روحا. أعرض به الشعراء وأطالوا، ووجدوا به السبيل إلى المقال فقالوا. وممن خيم في ذراه، ونال من الحظ الجسيم من دنياه؛ الحصري الضرير؛ فإن له فيه ما اذهل الناظر عن الرقاد، وأغنى المسافر عن الزاد؛ والحاجب يكحل عينيه بزينة دنياه، ويفتق لهاته بمواهبه ولهاه. وكان** [يحيى] **سهل الجانب للقصاد، طلق اليد بالمواهب الأفراد**)).[2] لذا فلا يستبعد أن يكون بلاط سقوط ــ وخاصة ابنه ضياء الدولة ــ قد عرف حركة ثقافية ـ ولو متواضعة ــ إذ يكونان قد أرادا بذلك تقليد ملوك الأندلس والمغرب.

۞۞۞

---

[1] ذكره ابن بشكوال فقال: ((ذكره الحميدي وقال: " شاعر أديب رخّم الشعر؛ دخل الأندلس ولقي ملوكها؛ وشعره كثير، وأدبه موفور. وكان عالما بالقراءات وطرقها؛ وأقرأ الناس بالقران بسبتة وغيرها. أخبرنا عنه أبو القاسم ابن صواب بقصيدته التي نظمها في قراء نافع؛ وهي مائتا بيت وتسعة أبيات. قال لقيته بمرسية سنة إحدى وثمانين وأربعمائة. وتوفي بطنجة سنة ثمان وثمانين وأربعمائة)). كتاب الصلة، ج: 2، ص ص: 432 ـ 433.

[2] الذخيرة. ق: 2. مج: 2. ص ص: 661 ـ 662. أنظر أيضا مفاخر البربر، ص: 55.

2)- دولة بني مدرار:

تنسب هذه الدولة - أيضا - إلى مدينة سجلماسة ذات الموقع القريب من مدينة تافيلالت الحالية. ويبدو أن هذه الدولة نشأت قبل تشييد مدينة سجلماسة[1] المنسوبة إليها أصلا؛ إذ كانت عبارة عن إمارة قبلية؛ ذات طابع بدوي. وقد سميت - أيضا - بدولة بني واسول؛ وهو أحد أجداد بني مدرار. هذا وقد تباينت الأخبار - بعض الشيء- حول بدء قيامها؛ غير أن المهم - هنا- هو أن هذه الدولة تأسست في عام 140هـ(757م)؛[2] بعد أن تجمعت فئات من قبيلة مكناسة البترية؛[3] في تلك الربوع؛ التي هي - في حقيقة الأمر - تدخل ضمن مواطن مكناسة. وذلك بعد أن التأم شعثهم في ذلك الخلاء؛ أين كانوا يرعون الأغنام وينشغلون بتتبع الكلأ خلف حيواناتهم. وعليه فقد كانت معيشتهم معيشة بداوة وانتجاع. وكانت تلك الفئات المكناسية المجتمعة صفرية المذهب. والظاهر أنهم كانوا من فلول وبقايا الصفرية؛ الثائرين مع ميسرة المطغري، وخالد بن حميد الزناتي؛ فلما عادوا إلى موطنهم؛ سعوا إلى تأسيس دولة تجمع شتاتهم، وتحافظ على مذهبهم. وعند تحقيق ذلك شرعوا في بناء مدينة سجلماسة؛ بعد أن نصبوا عليهم إماما؛ وهو المدعو عيسى بن يزيد بن

---

[1] انظر رأي ابن خلدون في الكيفية التي يحدث بها ذلك النشوء؛ ضمن "فصل في أن الدول اقدم من المدن والأمصار؛ وأنها إنما توجد ثانية عن الملك" إذ يقول: ((وبيانه أن البناء واختطاط المنازل إنما هو من منازع الحضارة التي يدعو إليها الترف، والدعة كما قدمناه؛ وذلك متأخر عن البداوة ومنازعها. وأيضا فالمدن والأمصار ذات هياكل وأجرام عظيمة، وبناء كبير؛ وهي موضوعة للعموم، لا للخصوص؛ فتحتاج إلى اجتماع الأيدي، وكثرة التعاون؛ وليست من الأمور الضرورية للناس التي تعم بها البلوى؛ حتى يكون نزوعهم إليها اضطرارا؛ بل لا بد من إكراههم على ذلك، وسوقهم إليه مضطرين بعصا الملك؛ أو مرغبين في الثواب والأجر؛ الذي لا يفي بكثرته إلا الملك والدولة. فلا بد في تمصير الامصار. واختطاط المدن من الدولة والملك)). المقدمة، ج: 3، ص ص: 965 ـ 966.

[2] اما البكري فقال أنهم شرعوا في بناء سجلماسة في عام 104هـ؛ وهذا لا يتطابق مع ما أجمعت عليه بقية المصادر. لذا فالراجح أن يكون ما ورد في المغرب تحريفا في النسخ. المغرب، ص: 149.

[3] ذكر البكري أنه لما وصل عددهم أربعين رجلا؛ قدموا على أنفسهم إماما؛ وهو عيسى ابن مزيد (يزيد) الأسود. غير أن ابن الخطيب قدر عددهم بأربعة آلاف.

سعد؛ المعروف بالأسود.[1] ولكنهم سرعان ما تنكروا له، وقتلوه شر قتلة.[2] وهكذا نرى كيف يتكرر بطش الصفرية بأمرائهم؛ فبعد قتل أمير الصفرية الأول (ميسرة)؛ بتدبير من أصحابه؛ يقتل أمير ثان ــ مرة أخرى ــ بواسطة أتباعه من الصفرية بسلجماسة.[3]

ـ حكومة أبي القاسم سمغون بن واسول المكناسي:

وبعد أن قتل الصفرية إمامهم عيسى بن يزيد؛ ولوا عليهم بدلا منه أبا القاسم سمغون بن واسول بن يزلان بن يزول المكناسي.[4] ويقول ابن خلدون أن أبا القاسم سمغون[5] هذا هو الذي حمل قومه على تنصيب عيسى بن يزيد إماما. ولما ثاروا

---

[1] نسبه ابن الخطيب الى مكناسة؛ في خبر مضطرب؛ لا يتفق مع ما ورد في جل المصادر. (انظر..اعمال الاعلام. ق: 3. ص ص: 139 ـ 140). بينما يتجاهل ابن خلدون والبكري ذكر انتسابه لمكناسة بشكل صريح. قال ابن خلدون: ((فلما اجتمع على هذا المذهب زهاء اربعين من رجالاتهم؛ نقضوا طاعة الخلفاء؛ وولوا عليهم عيسى بن يزيد الاسود من موالي العرب ورووس الخوارج)). العبر. مج: 6، ص: 267.

[2] وصف ابن الخطيب كيفية مقتله بقوله: ((ثم ان الصفرية غدروه سنة 167هـ؛ فقبضوا عليه. وشدوه وثاقا الى أصل شجرة في أصل الجبل؛ بعد ان طلوه بالعسل، وتركوه حتى قتلته الزنابير والنحل؛ فسمي ذلك الجبل جبل عيسى؛ وولوا بعده أبا الخطاب الصفري)). اعمال الاعلام. ق: 3. ص ص: 139 ـ 140.

[3] للتوسع في موضوع دولة مكناسة بسجلماسة يستحسن الرجوع إلى: كتاب المغرب. ص ص: 148 ـ 152. والبيان المغرب. ج: 1، ص: 156 ـ 157. والعبر. مج: 6، ص ص: 267 ـ 273. واعمال الأعلام. ق: 3. ص ص: 139 ـ 149.

[4] وذكر ابن الخطيب أن ابا القاسم هذا هو الملقب بالمدرار. دخل جده الاندلس مع طارق ابن زياد. كما قال انه كان حدادا من اهل الربض بقرطبة؛ فلجأ إلى سجلماسة؛ حيث تقرب من أبي الخطاب الصفري رئيس الصفرية فيها بسلاح صنعه بنفسه؛ فاستحسنه أبو الخطاب وقربه وقدمه على غيره. ولما توفي أبو الخطاب سنة 191هـ ولي مكانه.

[5] عرف ابن خلدون بابي القاسم هذا بقوله: ((واجتمعوا بعده [أي بعد عيسى بن يزيد الاسود] على كبيرهم أبي القاسم سمغون بن مصلات بن أبي يزول؛ كان أبوه سمغون من حملة العلم؛ ارتحل الى المدينة؛ فأدرك التابعين؛ وأخذ عن عكرمة مولى بن عباس؛ ذكره عريب بن حميد في تاريخه. وكان صاحب ماشية؛ وهو [أبو القاسم] الذي بايع لعيسى بن يزيد؛ وحمل قومه على طاعته؛ فبايعوه من بعده)). العبر. مج: 6، ص ص: 267-268. اما البكري فيرى أن أبا القاسم هو الذي لقي عكرمة بافريقية وسمع منه. المغرب. ص: 149.

عليه وقتلوه عادوا إليه؛ فبايعوه بالإمامة.[1] أما ابن الخطيب فيرى أنهم بايعوا ـ بعد عيسى بن يزيد ـ شخصا غامضا يسمى أبا الخطاب الصفري؛ إذ حكمهم مدة أربع وعشرين سنة؛ ومات سنة 191هـ(806م).[2] وهذا الأخير أشار إليه البكري باقتضاب؛ إذ قال أنه هو الذي حرض الصفرية على قتل عيسى؛ ولكنه لم يقل ببيعته وإمامته.[3] والغريب أن آلفرد بل يقول جازما بأنه عبد الأعلى بن السمح المعافري؛ الأمير الإباضي الذي تغلب على طرابلس والقيروان فيما بعد. غير أن آلفرد بل لم يذكر كيف استنتج هذا ؟ ولا ذكر المصدر الذي استند إليه.[4] المهم أن سمغون عندما تربع على سرير الحكم أعلن بالدعوة للمنصور والمهدي العباسيَّيْن؛ مع أنه صفري المذهب. وقد بقي أبو القاسم في الحكم حتى توفي أثناء صلاة العشاء، وفي آخر ركعة منها؛ وذلك سنة 168هـ(784م). أما ابن الخطيب فيقول بأنه توفي في اخر ذي القعدة سنة 199هـ(814م). كما قال أنه هو الذي أمر ببناء السور الذي يحيط بمزارع النخيل.

ـ حكومة أبي المنتصر اليسع بن سمغون المكناسي:

ولما توفي أبو القاسم سمغون خلفه ولده أبو الوزير إلياس؛ ولكن حكمه لم يدم طويلا؛ إذ قام عليه أخوه أبو المنتصر اليسع؛ فخلعه وانتصب في مكانه سنة 174هـ(790م) في

---

[1] قد يكون للعصبية دور في ذلك؛ خاصة إذا ما كان الوازع الديني ضعيف؛ ولا يرقى الى ما كانت عليه العصبية من شدة وتاثير على الناس. وجاء في قول ابن خلدون ان عيسى هذا كان من موالي العرب؛ وهذا يبعث على الاعتقاد أن وجوده بين المكناسيين فرضته ظروف الصفرية؛ بعد هروبهم في أقصى البلاد.

[2] اعمال الاعلام. ق: 3، ص: 140.

[3] يفهم من قول البكري أنهم تسرعوا في الحكم على عيسى؛ بانفعال عجيب؛ إذ يقول: ((فاول من وليها عيسى بن مزيد (يزيد) ثم أنكر أصحابه الصفرية عليه أشياء. فقال أبو الخطاب يوما لاصحابه في مجلس عيسى: السودان كلهم سراق حتى هذا؛ واشار الى عيسى؛ فأخذوه. وشدوه وثاقا الى شجرة في رأس جبل، وتركوه كذلك حتى قتله البعوض؛ فسمي الجبل جبل عيسى الى اليوم. ووليهم خمسة عشر عاما؛ ثم ولوا أبا القاسم سمغوا)). المغرب، ص: 149.

[4] الفرق الإسلامية، ص: 170.

رواية، أو سنة 200هـ(815م) في رواية أخرى. وكان حكم أبي المنتصر اليسع متميزا عما سبقه؛ ذلك أن هذا الأمير اتصف بشدة الوطأة، وبميل إلى العناد، وحدة الطبع، والحرص على ملكه؛ وكان شغوفا بالضبط والقهر، جبارا في سلوكه. فتمكن بحزمه وعزمه من فرض الخمس على معادن درعة، وفتك بمن حوله من القبائل الأمازيغية. ومن أهم إنجازاته العمرانية بناء سور سجلماسة؛ الذي كان والده قد بدأه؛ ولكنه حرص أن يدخل عليه تحسينات جديدة؛ إذ أمر العاملين بأن يبنوا أساس السور بالحجارة، ثم يكملوا الجزء العلوي بطوب اللبن. وبعدها قسم مدينة سجلماسة أحياء بين القبائل المتواجدة بها.[1]

- حكومة مدرار المنتصر بن اليسع المكناسي:

وعندما توفي اليسع سنة 208هـ(823م)؛ خلفه ابنه المنتصر الملقب بمدرار. وقد حاز من الشهرة والصيت؛ إلى الحد الذي أصبحت هذه الدولة الصفرية تنسب إليه أصلا. كما يبدو أن تحولا مذهبيا حدث في عهد هذا الأمير المكناسي؛ حيث أضحى مذهبها الصفري يميل أكثر فأكثر إلى الاعتدال؛ وبالتحديد يميل إلى المذهب الإباضي. ويبدو أن ذلك قد تعزز أيضا بعد أن تزوج مدرار بأروى بنت عبد الرحمن بن رستم. وفي حياة هذا الأمير حدث خلاف ونزاع بين ولديه اللّذين يسمى كل واحد منهما باسم ميمون. لذا فلا يمكن التميز بينهما إلا بإضافة نسبهما إلى الأم. فأحدهما هو ميمون بن تقية المعروف بالأمير؛ والآخر هو ميمون بن أروى الرستمية؛ ويرى ابن خلدون أن هذا الأخير يسمى أيضا عبد الرحمن. ودامت الفتنة بينهما على

[1] وعن هذا الامير يقول ابن خلدون: ((فلم يزل أميرا عليهم. وبنى سور سجلماسة لأربع وثلاثين سنة من ولايته. وكان اباضيا صفريا. وعلى عهده استفحل ملكهم بسجلماسة. وهو الذي اتم بناءها وتشييدها؛ واختط بها المصانع والقصور؛ وانتقل إليها اخر المائة الثانية؛ ودوخ بلاد الصحراء. وأخذ الخمس من معادن درعة؛ وأصهر لعبد الرحمن بن رستم صاحب تاهرت بابنه مدرار في ابنته أروى فأنكحه إياها)). العبر، مج: 6، ص: 268.

الحكم وولاية العهد مدة ثلاث سنين؛ وكان مدرار يميل إلى ابن أروى؛ الذي تمكن من إخراج أخيه ونفيه إلى درعة. ولكنه لم يحسن رد الجميل؛ فاختار سبيل العقوق ونكران الجميل؛ إذ عمل على عزل أبيه؛ طمعا في تولي سدة الحكم بدلا منه. ولكن الرعية ثارت عليه وخلعته؛ ثم استقدموا ابن تقية؛ المدعو (الأمير) من درعة لاستلام الحكم؛ ولكنه رفض القيام بذلك في حياة أبيه؛ لذا فقد اضطروا إلى إرجاع مدرار من جديد. والغريب أن مدرارا أراد ـ للمرة الثانية ـ إعادة ولده ابن أروى من منفاه بدرعة؛ فكررت الرعية ثورتها؛ وقاموا بخلعه مرة أخرى؛ ونصبوا ولده ميمون بن تقية؛ الذي اقتنع هذه المرة بوجوب ذلك المسلك؛ لقطع الطريق أمام أطماع أخيه. هذا ولا يعرف ـ بالضبط ـ سبب ذلك الخلاف بين الأخوين. كما لا يعرف إن كان ميل الرعية إلى ابن تقية مبعثه إلى صلاحه وتقواه، أم إلى سبب آخر؛ ربما تعلق بالعصبية القبلية التي ترى في أروى بنت عبد الرحمن بن رستم أنها من أسرة ليست مكناسية منهم. هذا ولم يطل الزمن بمدرار بعد تلك الأحداث حتى مات سنة 253هـ(866م)؛ وقد دام ملكه كله زهاء خمس وأربعين سنة. أما ولده ميمون بن تقية فقد بقي في الحكم حتى توفي سنة 263هـ(876م).

ـ حكومة محمد بن ميمون المكناسي:

وبموت ميمون بن تقية تولى الحكم من بعده ولده محمد الذي ـ كما قال ابن خلدون ـ كان متمذهبا بالإباضية. وهنا تبرز إشارة لما يمكن أنه حدث من تحول مذهبي في عهد الأمير مدرار. ويقول ابن الخطيب أن محمدا هذا غزا أرض القبلة ـ أي الجنوب ـ حيث تغلب على "**تافلبالت**" [**ربما كانت تابلبالت الحالية القريبة من بشار**]. هذا وقد توفي محمد بن

ميمون في سنة 270هـ(883م). ومع ذلك فقد كانت أخبار عهد محمد هذا شحيحة، وغير كافية لتحديد صورة واضحة لها.

- حكومة اليسع بن مدرار المنتصر المكناسي:

وبعد محمد تولى مهام الحكم عمه اليسع بن مدرار المنتصر. وفي عهده ظهر عبيد الله الشيعي؛ حيث لجأ - مع ابنه أبي القاسم - إلى سجلماسة. ولما تدخل الخليفة العباسي المعتضد لدى اليسع - الذي كان معلنا بطاعة العباسيين مثل اباته - فقد لبى طلب المعتضد وقبض عليهما وحبسهما. وكان هذا التصرف هو الحافز المباشر للداعية الفاطمي أبي عبد الله الشيعي لكي يقوم بغزو سجلماسة، قصد إنقاذ سيده من محبسه؛ فتم له ذلك؛ بعد أن أطاح بحكم اليسع وقتله؛ وذلك في سنة 296هـ(908م). وقد دام حكم اليسع زهاء سبع وعشرين سنة. وعلى الرغم من طول مدة حكم اليسع؛ فإن عهده - بدوره - يكتنفه غموض كثيف.

- حكومة واسول الفتح بن ميمون الأمير بن مدرار المكناسي:

وقبل أن يخرج عبيد الله المهدي من سجلماسة نصب عليها واليا من قبله؛ وهو إبراهيم بن غالب المزاتي؛ فظل مدة خمسين يوما ثم ثار عليه سكان سجلماسة سنة 298هـ(910م)؛ وقتلوه هو ومن معه من قبيلة كتامة. وبعدها نصبوا الفتح بن ميمون الأمير بن مدرار؛ وميمون هذا كما يعتقد ابن خلدون: ليس هو ابن تقية المشار إليه سابقا. وكان يلقب بواسول؛ وسماه آخرون باسم رسول؛ إن لم يكن ذلك تحريفا. ويقول ابن خلدون أنه كان إباضيا. وبقي في سدة الحكم حتى وفاته سنة 300هـ(912م).

ـ حكومة أبي العباس أحمد بن ميمون بن مدرار المكناسي:

بعد وفاة واسول تولى الأمر أخوه أبو العباس أحمد. وفي عهد هذا الأمير تغلب على سجلماسة القائد الفاطمي مصالة بن حبوس المكناسي؛ القادم إليها في جيش من كتامة ومكناسة معا. فاحتل المدينة، وقتل أميرها أحمد سنة 309هـ(921م). وهذه الحادثة تكشف ما أصاب عصبية مكناسة من خلل؛ إذ يتقاتل أبناء القبيلة الواحدة؛ لمصلحة جهة غريبة عنهم. وبالطبع لا يكون ذلك إلا في حال تغلب قوة معنوية أخرى على قوة العصبية المهزومة. ولم يتحقق ذلك سوى بالمذهب الفاطمي ذي التأثير الخطير؛ إلى جانب العصبية الكتامية المتغلبة على العصبيات الأخرى. ولم يجد المذهب الخارجي الصفري أو الإباضي نفعا لمكناسة؛ إذ لابد من العصبية القوية معه؛ لتحقيق شرط القوة والغلبة؛ وذلك ما قرره ابن خلدون ضمن: "**فصل في أن الدعوة الدينية من غير عصبية لا تتم**".[1] حيث احتج بحديث الرسول ـ القائل: ((**ما بعث الله نبيا إلا في منعة من قومه**)). ثم يضيف: ((**وإذا كان هذا في الأنبياء وهم أولى الناس بخرق العوائد؛ فما ظنك بغيرهم ألا تخرق له العادة في الغلب بغير عصبية**)).[2] ثم أشار إلى بعض الشواهد والأمثلة في البلاد الإسلامية؛ التي فشل فيها الدعاة ورجال الدين في تحقيق أغراضهم؛ بسبب افتقارهم للعصبية النافذة المساندة لهم.

ـ عهد التبعية للفاطميين:

وعلى الرغم مما حدث؛ عندما تغلب الفاطميون على سجلماسة؛ بواسطة جيشهم الذي يقوده مصالة بن حبوس المكناسي؛ فقد بقيت بذور من العصبية دفينة في صدر ذلك القائد الفاطمي من حيث المعتقد، والمكناسي من حيث العصبية

---

[1] المقدمة، ج: 2، ص ص: 638 ـ 642.
[2] المقدمة، ج: 2، ص: 638.

والانتماء؛ وذلك أنه ـ قبل عودته إلى إفريقية ـ أسند شئون الحكم إلى رجل آخر من العائلة المالكة المكناسية نفسها؛ إذ نصب على سجلماسة المعتز بن محمد بن بسّاور أو (بساور) بن مدرار. وقد علل ابن الخطيب ذلك التصرف بقوله: ((**واقتضت سياسة مصالة أن يولي على سجلماسة رجلا من بني مدرار ليأمن شغبهم؛ فولى عليها المعتز بن محمد**)).[1] وحتى إن كان هذا التعليل صحيحا؛ فلا يمنع أن اختيار مكناسيا؛ من البيت المالك في سجلماسة يكون قد أراحه نفسيا. هذا وقد بقي المعتز في الحكم إلى أن توفي في عام 321هـ(933م). ثم تلاه بعد مماته ولده محمد بن المعتز الذي توفي بدوره في سنة 331هـ(942م). ثم خلفه ولده الصبي المنتصر سمغون؛ فتولت جدته تدبير شئونه؛ ولكن ابن عمه محمد بن الفتح الملقب بالشاكر ثار ضده، وأخرجه من سجلماسة سنة 332هـ(943م).

ـ حكومة الشاكر محمد بن الفتح المكناسي:

انتقل محمد الشاكر ـ هذا ـ نقلة مخالفة تماما لما كان عليه أسلافه؛ إذ دعا إلى نفسه في المنابر؛ ثم تسمى بالشاكر، وتلقب بأمير المؤمنين؛ ثم سك سكة عرفت بالدراهم الشاكرية. ومع هذا فقد أبقى على الدعوة لبني العباس بغرض التمويه؛ كما يعتقد ابن خلدون؛ وأهم نقلة انتقلها هي تخليه عن المذهب الخارجي؛ حيث أخذ بالمذهب المالكي السني.[2] وتجمع المصادر أنه عرف بالعدل والصلاح؛ وذكر ابن حزم أنه: ((**كان غاية في إظهار العدل، وتسمى الشاكر لله، وإليه تنسب المثاقيل الشاكرية**)).[3] ويعتبر موقف الشاكر هذا كافيا لاستثارة الفاطميين؛ الذين شغلتهم ـ في البداية ـ فتن بني أبي العافية، وأبي يزيد مخلد بن كيداد.

---

[1] أعمال الأعلام، ق: 3، ص: 146.

[2] المغرب، ص: 151. والعبر، مج: 6، ص: 270. أنظر كتاب نقط العروس في تواريخ الخلفاء لابن حزم، ((رسائل ابن حزم الأندلسي) ج: 2، ص: 85.

[3] رسالة فقط العروس في تواريخ الخلفاء، ((رسائل ابن حزم الأندلسي))، ج:2، ص:85.

ولما استتب الأمر للدولة أرسل المعز لدين الله الفاطمي جيشا من كتامة وصنهاجة إلى سجلماسة؛ ووضع على رأس ذلك الجيش جوهر الكاتب (الصقلي)؛ فتغلب عليها. وقد تمكن الشاكر ـ في بداية الأمر ـ من الإفلات واللجوء إلى حصن قريب من سجلماسة يسمى تاسكرات؛ ولكن سوء حظه أوقعه في قبضة الفاطميين؛ عندما دخل سجلماسة متنكرا؛ فعرفه رجل من قبيلة مطغرة؛ فأخبر الفاطميين عنه؛ الأمر الذي سهل القبض عليه؛ حيث نقله جوهر معه إلى القيروان في سنة 347هـ(958م). أين حبس في رقادة حتى مات في سجنه سنة 354هـ(965م). أما سجلماسة فقد أسند جوهر الكاتب ولايتها إلى مبادر بن زيري.

ـ حكومة ولدي الشاكر: المنتصر والمعتز:

ولما ضعف حال الفاطميين بالمغرب الأوسط، ومالت الكفة إلى فائدة بني أمية؛ ثار في سجلماسة أحد أبناء الشاكر؛ وتلقب بالمنتصر بالله؛ ولكن أخاه أبا محمد لم يمهله طويلا؛ إذ انتفض عليه وقتله سنة 352هـ(963م)؛ ثم استولى على الحكم وتلقب بالمعتز بالله.[1] وبقي في الحكم مدة من الزمن؛ حتى زحف إليه أمير مغراوة الزناتية خزرون بن فلفول سنة 366هـ(976م)؛ تبعا لتطور الأوضاع التي استفحل فيها أمر زناتة في المغربين الأوسط والأقصى؛ بحكم ما أصبحت عليه هذه القبيلة من قوة ونفوذ؛ بعد حلفها مع الدولة الأموية بالأندلس. وانتهت المعركة التي دارت أمام سجلماسة بين صاحبها المعتز وخزرون

---

[1] يختتم ابن خلدون حديثه عن دولة مكناسة بسجلماسة فيقول: ((وأقام على ذلك مدة [يقصد بقوله هذا أبا محمد المعتز اخر أمرائهم] وأمر مكناسة يومئذ قد تداعى إلى الانحلال؛ وأمر زناتة قد استفحل بالمغرب عليهم؛ الى أن زحف خزرون بن فلفول؛ من ملوك مغراوة الى سجلماسة سنة 366 هـ؛ وبرز إليه أبو محمد المعتز؛ فهزمه خزرون، وقتله، واستولى على بلده وذخيرته؛ وبعث برأسه إلى قرطبة مع كتاب الفتح... وعقد لخزرون على سجلماسة؛ فأقام دعوة هشام بأنحائها؛ فكانت أول دعوة أقيمت لهم بالأمصار في المغرب الأقصى. وانقرض أمر بني مدرار ومكناسة من المغرب أجمع؛ وأديل منهم بمغراوة وبني يفرن)). العبر، مج: 6، ص ص: 271 ـ 272.

المغـراوي بمقتـل الأول واحتـلال البلـدة مـن طـرف المغراوييـن؛ وبذلك سقطت دولـة بـني مـدرار نهائيـا؛ وغـدت سجلماسـة تحـت حكم المغراويين؛ الداعين إلى بني أمية.

وجملـة القـول؛ فالشيخوخـة بـدأت تغـزو دولـة سجلماسـة؛ نتيجة لما ظهر عليها من وهن؛ بعـد فسـاد عصبيـة مكناسـة فـي تلك الديار؛ حيث أخذت الخلافات تدب بين أفراد البيت المالـك؛ طمعا في السلطة وتطلعا إلى مجدها. وكان لهـذا السلـوك مفعولـه الخطيـر؛ الـذي أضعـف الدولـة، وجعلهـا عرضـة للاعتـداءات؛ فسقطت أولا لقمة سائغة بين أنياب قبائل: كتامة؛ بقيادة أبي عبـد اللـه الشيعي سنـة 296هـ(908م)؛ فكانت تلك الغزوة صدمة شديدة أثرت على قوة الدولـة المكناسيـة الصفريـة. ثـم جـاءت الضربـة الثانيـة من قبل أبنـاء العم؛ أي مـن قوم ينتمون إلى مكناسـة نفسها؛ ولكنهـم فـي خدمـة الشيعـة الكتاميين؛ فزحفـوا معهـم إلـى مركـز عصبيتهم بسجلماسـة؛ وكانوا جميعا تحت قيادة مصالـة بن حبوس المكنـاسي؛ وذلك سنـة 309هـ(921م). وهنـا ظهـر التفكك الـذي حل بعصبية مكناسة؛ إذ أضحت بعض فئاتهم تحارب إلى جانـب كتامـة؛ ضد أهل عصبيتها؛ أصحـاب سجلماسـة.

ومـع هذا فثمـة بعض الإيجابيـات لهذه الدولـة الصفرية؛ التي لا بد من ذكرها؛ من ذلك أنها استطاعت ـ قبل هرمها ـ تحقيـق بعض الازدهار الاقتصادي، والاستقرار السياسي؛ بحكـم تواجدهـا في الطريق التجاري الرابط بيـن غانـة وشمـال المغـرب؛ نظـرا لتوغلها جنوبا في الصحـراء. وعلى الرغم مـن كونهـا صفريـة المذهـب، خارجيـة النزعـة؛ فإنهـا ـ كسابقتها دولـة برغواطـة ـ كانت دولـة تتبع في نظامها السياسي؛ نظاما ملكيا وراثيا. وهـذا يخالف المعتقد الصفري الخارجي. أضف إلى ذلك؛ سلوك أمـراء الدولـة؛ الذيـن كانـوا يخطبـون عـلى منابرهـم لبـني العبـاس، ويجاهرون بدعوتهم تلك. وهذا الأمر مخالف ـ أيضا ـ لمبـادئ الصفريـة، والخوارج بصفة عامـة.

ـ الحضارة والحركة الثقافية:

وعلى الرغم من الازدهار الاقتصادي الذي تميزت به هذه الدولة؛ فإنها لم تتمكن من تطوير نظمها؛ إذ عجزت عن التخلص من هيمنة النظام القبلي المتشبع بروح البداوة الساذجة. ويبدو أن العصبية المكناسية لعبت ـ بعنفوانها ـ دورا هاما؛ في نشأة هذه الإمارة، كما حافظت على استمرار بقائها مدة من الزمن. وما المذهب الصفري سوى عامل إضافي؛ عزز العصبية المكناسية، ومتن روابطها. ومن هنا نستخلص بأن هذه الإمارة الصفرية؛ تمكنت فعلا من تحقيق بعض الازدهار الاقتصادي؛ ولكنها بقيت دولة بدوية؛ ذات حضارة محدودة. وربما وقف نظامها القبلي حجر عثرة أمام تطورها الحضاري.

ومع هذا لا تخلو هذه الدولة من بعض السمات؛ التي يمكن وضعها في سياق الحركة الحضارية والثقافية. فمثلا كان لها طابعها العمراني المتأثر بالذوق البدوي. وقد ذكر البكري أن البناءين بسجلماسة كانوا من اليهود.[1] ولما توطدت العلاقات بين هذه الدولة الصفرية والدولة الرستمية ـ بدءا بعهد مدرار ـ أضحى المظهر الحضاري والثقافي في سجلماسة أكثر شبها وقربا من تلك الدولة الإباضية القائمة في تيهرت. كما شرع بعض العلماء والأدباء الإباضيين يترددون على سجلماسة؛ بغرض نشر العلم، وبث الدعوة الإباضية. وإلى جانب ذلك كان بعض الطلبة ـ المتعطشين للعلم ـ ينتقلون من إفريقية إلى سجلماسة للتعلم فيها على مشاهير العلماء الإباضيين المقيمين بها.[2] من ذلك ما أشار إليه أبو زكرياء حين ترجم لأبي الربيع سليمان بن زرقون؛ فقال أنه تعلم ـ مع أبي يزيد بن كيداد ـ في سجلماسة؛ على عالم مشرقي اسمه ابن الجمع؛ قال عنه أنه من

---

[1] المغرب، ص ص: 149 ـ 150.

[2] أنظر كتاب سير الأئمة وأخبارهم لأبي زكرياء، ص: 193 وما بعدها. وكتاب طبقات المشائخ بالمغرب للدرجيني. ج: 1، ص ص: 109 ـ 113. ج: 2، ص: 502.

أهل الدعوة، وينتحل جميع الفرق؛ ويتمتع بعلم غزير ومعرفة وافرة. وقال أنه قدم إلى بلاد المغرب كتاجر؛ فلازمه ابن زرقون؛ الذي رافقه في رحلته إلى سجلماسة؛ وبقي معه حتى مات؛ فأوصى بكتبه إلى ابن زرقون.[1] ويدل خبر كهذا ـ طبعا ـ على وجود حركة علمية في سجلماسة؛ استقطبت بعض طلاب العلم من بعض جهات بالمغرب.

۞۞۞

[1] سير الائمة وأخبارهم، ص: 193. أنظر الخبر نفسه ـ أيضا ـ في طبقات المشائخ بالمغرب، ج: 1، ص ص: 109 ـ 110.

3)- الدولة الرستمية:

تأسست هذه الدولة في أعقاب الاضطرابات التي حدثت بين قبائل الصفرية والإباضية من جهة؛ وبين ولاة القيروان من جهة أخرى. حيث التأمت القبائل الصفرية، والإباضية متجمعة؛ ضمن حلف واحد. ولكنها تفرقت ـ بعد ذلك ـ تبعا لتناقض المصالح القبلية الضيقة. فأخذت كل فرقة منها تعمل منفردة؛ ساعية لإقامة كيان ما؛ في شكل دولة أو إمارة صغيرة. وهذا ما سعت إليه القبائل الصفرية؛ بالمغرب الأقصى والأوسط؛ كبني يفرن بتلمسان، وبرغواطة بتامسنا، ومكناسة بسجلماسة. أما القبائل الإباضية؛ كـ: هوارة ونفوسة وزناتة ولواتة ولماية ومزاتة؛ فقد تمكنت هي الأخرى من إنشاء إمارة في طرابلس سنة 140هـ(757م)؛ لكنها سقطت عام 144هـ(761م)؛ تحت ضربات الجيش العباسي؛ بقيادة محمد ابن الأشعث. والعلة التي عجلت بسقوط هذه الإمارة؛ هي العصبية القبلية بتناقضاتها؛ أي بعد نشوب خلافات بين قبيلتي: هوارة وزناتة. حيث اتهمت هذه الأخيرة الأمير أبا الخطاب بالتحيز لقبيلة هوارة؛ فانسحب الزناتيون من الميدان.[1] وهكذا سقطت تلك الإمارة الفتية؛ نتيجة لقوة أعدائها؛ من جهة، وعبث العصبية، والنخوة القبلية؛ من جهة أخرى.

ـ حكومة عبد الرحمن بن رستم:

وبعد فشل الإباضيين في السيطرة على القيروان، والاحتفاظ بإمارتهم في طرابلس؛ توجهوا صوب البلاد الداخلية؛ بعيدا عن نفوذ ولاة القيروان؛ فانتهى بهم المطاف عند جبل كزول؛ موطن قبيلة لماية البترية؛[2] وهناك شرعوا في وضع خطة لبناء مدينة

---

[1] البيان المغرب، ج: ، 1، ص: 72.

[2] يقول البكري: ((في صفر سنة أربع وأربعين وماية هرب عبد الرحمن بأهله، وما خف من ماله؛ وترك القيروان؛ فاجتمعت الإباضية، واتفقوا على تقديمه، وبنيان مدينة تجمعهم. فنزلوا موضع تاهرت اليوم؛ وهو عيصة أشبة؛ ونزل عبد الرحمن منه موضعا مربعا لا=

تيهرت من جديد (تنطق تاهرت أيضا)؛ لأن مدينة تيهرت كانت منذ القدم؛ ويرجع تاريخها الأول إلى العهد الروماني؛ ولكنها اندثرت.[1] وعليه فقد بنى الإباضيون مدينة أخرى تقع إلى الغرب منها؛ وتعرف بتاقدمت؛ ويفسر هذا الاسم الصفة التي كان عليه موقعها الجغرافي؛ الذي يظهر في شكل مربع. وقد يكون بناؤها ـ حسب بعض الروايات ـ بدأ بعد قيام الدولة الرستمية.[2] حيث

=شعراء فيه؛ فقال البربر نزل تاقدمت؛ تفسيره الذف؛ شبهوه بالذف لتربيعه)). المغرب. ص: 68.

[1] يقول ابن عذاري في تيهرت: ((وكانت حول تيهرت بساتينُ من أنواع الثمار، كثيرة الاشجار. وهي شديدةَ البرد، كثيرة الأمطار. قيل لبعض الظُرفاء من أهلها: كم الشَتاءُ عندكم من شهر في السنةَ؟ قال: ثلاثة عشر شهرا! . وقال بعضُ شعراء تيهرت من قصيدةَ اولها (طويل):

فراغ الهوى شُغلٌ ومحيا الهوى قتلُ
ويومُ الهوى حولٌ وبعضُ الهوى كلُّ
وجُودُ الهوى بُخلٌ ورسلُ الهوى عدى
وقُربُ الهوى بُعدٌ وسبْقُ الهوى مطلُ
سقى اللهُ تيهرتَ المُنا وسُوَيقةً
بساحتِها غيثًا يطيبُ به المحلُ
كأن لم يكُن والدارُ جامعةٌ لنا
ولم يجتمعْ وصلٌ لنا لا ولا شملُ
فلما تمادى العيشُ وانشقّت العصى
تداعتْ أهاضيبُ النوى وهي تنهلُ
سلامٌ على منْ لم نُطقْ يومَ بيننا
سلاما ولكنْ فارقتُ وبها ثُكلُ
وما هي اماق تَفيضُ دُمُوعُها
ولكنّها الأرواحُ تجري وتنسلُّ)).

البيان المغرب. ج: 1، ص ص: 198 ـ 199.

[2] ويصف البكري هذه المدينة بقوله: ((ومدينة تيهرت مسورة؛ لها ثلاثة أبواب: باب الصبا وباب المنازل وباب الاندلس وباب المطاحن وغيرها [عدّ أربعة أبواب بدلا من ثلاثة]. وهي في سفح جبل يقال له جزُول؛ ولها قصبة مشرفة على السوق؛ تسمى المعصومة؛ وهي على نهر يأتيها من جهة القبلة؛ يسمى مينا؛ وهو في قبليها، ونهر اخر يجري من عيون تجتمع تسمى تاتش؛ ومن تاتش شُرب أهلها، وبساتينها؛ وهو في شرقيها. وفيها جميع الثمار؛ وسفرجلها يفوق سفرجل الآفاق حسنا وطعما مشما؛ وسفرجلها يسمى بالفارس. وهي شديدة البرد، كثيرة الغيوم والثلج... ونظر رجل من أهل تاهرت الى توقد الشمس بالحجاز؛ فقال احرقي ما شئت؛ فوالله أنك بتاهرت لذليلة. وهذه تاهرت الحديثة وعلى خمسة اميال منها تاهرت القديمة؛ وهي حصن لبرقجانة؛ وهو في شرقي الحديثة... وبقبليها لواتة وهوارة في قرارات. وبغربيها زواغة، وبجوفها مطماطة وزناتة ومكناسة؛ وقد ذكرنا ان بشرقيها حصن لبرقجانة؛ وهو تاهرت القديمة)). المغرب. ص ص: 66 ـ 67.

ترعرعت الدولة الرستمية الإباضية ونمت شيئا فشيئا داخلها. وقد كانت هذه الإمارة هي الدولة المستقلة الأولى في ربوع المغرب الأوسط. غير أنها لم تظهر في ثوبها الكامل سوى في سنة 160هـ(776م).[1] كما كانت تتمتع بنفوذ معنوي واسع في بلاد المغرب؛ إذ تخضع لها مقاطعات شاسعة في برقة وإفريقية والمغرب الأوسط؛ حيث كانت معظم القبائل الأمازيغية آنئذ تدين بالمذهب الإباضي؛ وعليه فقد أبدوا طاعة ـ ولو شكلية ـ لإمام الدولة الرستمية. ومنذ نشأة هذه الدولة تولى الإمامة فيها عبد الرحمن بن رستم بن بهرام. وكان فارسيّ الأصل، وهو من موالي عثمان بن عفان؛ وينحدر من أسرة تتصل بملوك الفرس الأكاسرة. ويقال أنه ولد في العراق؛ وقدم إلى القيروان رفقة أمه التي تزوجت ـ بعد أن مات بعلها في الحج ـ من رجل يسكن القيروان. وهكذا يكون هذا الأمير الأباضي من المشارقة الوافدين إلى المغرب؛ مثله مثل أبي الخطاب عبد الأعلى بن السمح؛ مع فارق السن. وبقيام هذه الدولة ـ قبل تشييد عاصمتها تيهرت ـ تكون قد توافقت مع نظرية ابن خلدون السابقة الذكر؛ والتي يرى فيها أن قيام الدولة يحدث قبل تشييد مدينتها.[2]

ومن الضروري التنبيه ـ هنا ـ إلى وجود فوارق واضحة بين دولة تيهرت الإباضية، وبين الدولتين السابقتين (دولة برغواطة، ودولة بني مدرار)؛ من حيث نظمها وسيادتها وسعة رقعتها وإنجازاتها الحضارية. فدولة بني رستم كانت متينة الأسس، ديمقراطية النظام والتسيير، سيدة القرار والتنفيذ، واسعة الأطراف والأقاليم، ذات إنجازات حضارية وثقافية متميزة؛ يرأسها إمام؛ يحكم الناس بمساعدة مجلس للشورى؛ أعضاؤه هم

---

[1] ثمة من يرى أن بناء المدينة تم في سنة 161هـ تقريبا. أما قيام الدولة فقد حدث بعد شغور منصب الإمامة الإباضية؛ أي بعد مقتل أبي حاتم يعقوب بن حبيب الملزوزي؛ الذي كان إماما لهم؛ وذلك سنة154هـ. ومع هذا فقد بقي تاريخ قيام هذه الدولة يكتنفه بعض الغموض. أنظر كتاب العلاقات الخارجية للدولة الرستمية، ص ص: 29 ـ 30.

[2] المقدمة، ج: 3، ص ص: 965 ـ 968.

أهل الحل والعقد. وكان العامل الديني سائدا، ومهيمنا على الحياة في تلك الدولة. وينسجم هذا مع ما قرره ابن خلدون في مقدمته؛ من أن "**الدولة العامة الاستيلاء، العظيمة الملك؛ أصلها الدين؛ إما من نبوة، أو دعوة حق**". و"**أن الدعوة الدينية تزيد الدولة في أصلها قوة على قوة العصبية؛ التي كانت لها من عددها**".[1]

ومع هذا لا يسع المتأمل في تاريخ الدولة الرستمية سوى الاعتراف بما للعصبية من أثر لا ينكر في نشأتها. فعلى الرغم من العامل الديني؛ الذي هذب أخلاق ونفوس الذين أنشئوا هذه الدولة؛ إلا أنها لم تكن تخلوا من تأثيرات العصبية. إذ أن اختيار عبد الرحمن بن رستم بن بهرام الفارسي لمنصب الإمامة فيها؛ جاء نتيجة لما كانوا يعرفونه عن نسبه وفضله؛ فدخل ـ بهذا الاعتبار ـ في إطار أصحاب النصاب الملكي؛ لأنه منسوب إلى الأكاسرة، وكان عاملا لأبي الخطاب على القيروان في الدولة الإباضية الأولى. كما أن القبائل المتعددة العصبيات ـ التي شاركت في تشييد هذه الدولة ـ تكون قد اختارته؛ لكي تتجنب الصراع على السلطة فيما بينها؛ وخوفا من تأثير النزوات الهوجاء للعصبية الغاشمة. هذا بالإضافة إلى تأثير المذهب الإباضي؛ الذي يستوجب اختيار الأمير من أهل الصلاح والفضيلة؛ دون اعتبار لعروبته أو قريشيته.[2] وبذلك يمكن القول أن دولة بني رستم تأسست بفضل العصبية التي تمثلها قبائل:

---

[1] المقدمة، ج: 2، ص ص: 636 ـ 638.

[2] **ويمكن استشفاف ذلك كله من خلال النص الذي سجله أحد علمائهم وهو أبو زكرياء يحيى بن أبي بكر؛ في كتابه سير الأئمة وأخبارهم؛ إذ قال: ((أن جماعة من المسلمين ـ من أهل النظر منهم ـ وجدوا في أنفسهم قوة، وأنسوا طاقة؛ فأرادوا التولية؛ فنظروا في عامة القبائل؛ فوجدوا في كل قبيلة رأسا أو رأسين؛ كل يصلح للإمارة؛ فاشتوروا فيما بينهم. فقال بعضهم: "إن عبد الرحمن بن رستم الفارسي ﷺ؛ ممن لا تجهلون فضله، وهو أحد الخمسة الحاملين للعلم. وعامل الإمام أبي الخطاب ﷺ. وقد عرض عليه المسلمون الإمامة؛ قبل تولية أبي الخطاب؛ فأعرض عنها، ودفعها عن نفسه، ولم يردها؛ ولا سيما وانه ليست له قبيلة تمنعه اذا تغير وتبدل)). ص: 82. أنظر أيضا طبقات المشائخ بالمغرب؛ للدرجيني، ج: 1، ص: 42.**

لماية ولواتة ومزاتة وهوارة وزناتة؛ تلك القبائل التي تحالفت، وعززت عصبيتها بالتعاليم الدينية؛ التي ألفت بين القلوب، وأنارت العقول، ووحدت الصفوف، وأزالت علة التنافس، والحسد بين الناس؛ فهذبت بذلك طيش العصبية، وكبحت جموحها؛ فامتلكت قوة وقدرة؛ حققت بهما استقلالها، وضمنت امتداد رقعتها، واكتسبت هيبة واحترام خصومها.

كان إمام الإباضيين عبد الرحمن بن رستم في غاية الصلاح والزهد وفي قمة المعرفة والعلم. وله بعض المؤلفات منها: تفسير للقرآن الكريم، وديوان خطب، ورسائل إخوانيات. ومن علامات زهده وفضله وتواضعه؛ أنه كان يقوم ببناء داره بنفسه، وبمعونة عبد له. كما أوردت المصادر أنه لما وصلته ـ في بداية الدولة ـ ثلاثة أحمال من المال؛ بعث بها الإباضيون في المشرق؛ استشار أصحابه في أمرها؛ فأشاروا بقبولها؛ لحاجة الدولة والرعية إليها أنئذ. فعمل بمشورتهم وقبلها، ثم فرقها أمام الوفد المشرقي على فقراء المسلمين، وفي شراء الأسلحة الضرورية. ولما وصلته عشرة أحمال أخرى من المال ـ بعد فترة ـ مع وفد آخر؛ شاور أصحابه أيضا؛ فتركوا القرار له. عندها أرجع الأحمال إلى أصحابها؛ بحجة أن أصحابها أحوج إليها من الدولة؛ نظرا لاستغنائها وما وصلت إليه من قوة.[1]

ولما أحس عبد الرحمن بن رستم بدنو أجله؛ انتخب سبعة من الأعيان؛ ثم عرضهم على الناس لاختيار خليفته منهم. وبذلك يكون قد اتبع سنة عمر بن الخطاب رضي الله عنه. وهؤلاء السبعة هم: مسعود الأندلسي؛ وكان فقيها من أهل الفضل والعلم والورع، ثم عمران بن مروان الأندلسي، ثم أبو الموفق بغدوس بن عطية، ثم سكر بن صالح الكتامي، ثم مصعب بن سدمان، ثم أبو قدامة يزيد بن فنذين اليفرني، ثم عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم. وتبعا لقانون **العصبية**،

---

[1] سير الائمة وأخبارهم. ص ص: 83 ـ 84. طبقات المشائخ بالمغرب، ج: 1، ص: 45.

وطبيعة مفعولها في الأنظمة القبلية، أو الشبيهة بالقبلية؛ فإن الفرز الحقيقي اقتصر على اثنين من السبعة؛ لما لهم من نفوذ علي العصبيات الممثلة في تيهرت. وكانت المنافسة الفعالة بين ابن فندين اليفرني الزناتي؛ الذي انحازت إليه قبيلته، وبين عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم؛ الذي اختارته القبائل الأخرى؛ كما انضم إلى صفه جماعة من الفرس؛ بحكم العصبية أيضا. وانتهى الأمر بتفوق عبد الوهاب؛ بحكم نصابه الملكي، والتنافس الخفي بين القبائل الأخرى؛ كما أن أم عبد الوهاب كانت من قبيلة بني يفرن الزناتية أيضا. وثمة رواية أخرى تقول أن الاختيار انحصر ـ في الأول ـ بين مسعود الأندلسي، وعبد الوهاب؛ ولكن مسعود الأندلسي رفض وبايع عبد الوهاب. ولما تيقن ابن فندين من إصرار الناس على عبد الوهاب قال: **((هو أقرب منا رحما من غيره؛ ولعل ذلك أن يعطفه علينا)).**[1] وهكذا تنطق العصبية، وتعبر عن ذاتها؛ دون أن يشعر ابن فندين بتناقضه مع المذهب الذي يتبعه. فقد رضي بعبد الوهاب لأن أمه من بني يفرن، وطمعا في أن يؤثرهم على غيرهم.[2] وهكذا فلما توفي عبد الرحمن بن رستم سنة 171هـ(787م)؛ خلفه ولده عبد الوهاب.

ـ حكومة عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم:

وكان الإمام عبد الوهاب بن عبد الرحمن متبحرا في علوم الشريعة الإسلامية، والفقه الإباضي؛ وله كتاب جمع تحت عنوان نوازل نفوسة. وكان يقضي وقته في تدبير شئون الدولة، والمطالعة وتدريس العلوم في المسجد. ولما ذهب إلى جبل نفوسة بقي به زهاء السبع سنين في التدريس بالمسجد لعامة الناس. وقد عرف بالدهاء، والحنكة البالغة، وشدة الشكيمة،

[1] السير، ص: 86. والطبقات، ج: 1، ص: 47.
[2] السير، ص: 86. والطبقات، ج:، 1، ص ص: 46 ـ 47.

والحزم، والثروة الزاخرة. وقد اختلفت الروايات حول مدة حكمه فمن قائل بأنها دامت نحو أربعين سنة؛ أي أنه تولى الحكم سنة 168هـ(784م) ومات سنة 208هـ(823م)، وقائل أنها لم تتجاوز التسعة عشر سنة. غير أن سليمان الباروني يقول أنه حكم من عام 171هـ إلى عام 190هـ(805م) سنة وفاته.

وفي عهد الإمام عبد الوهاب بدأت **العصبية** تتململ وتتحرك؛ استجابة لمقتضى طبيعتها المتصفة بالأنانية والغضب. وعلى الرغم من انتماء أم عبد الوهاب إلى القبيلة بني يفرن الزناتية؛ تلك القبيلة القوية النافذة؛ فإنه لم يستطع كسب ولاء كل عشائرها؛ إذ وقف في طريقه يزيد بن فنديين اليفرني؛ ذلك الخصم العنيد، المتعصب لنفسه ولقبيلته. ونتيجة لهذا حدث ما يعرف لدى الإباضيين بالافتراق الأول بين الإباضيين. وقد تطور الخلاف بين الطرفين حتى وصل إلى استعمال السلاح، وسفك الدماء. وتكررت الفتن بينهما حتى اختتمت بمقتل يزيد بن فنديين؛ في موقعة قتل فيها ما لا يقل عن اثني عشر ألفا. وعرفت الجماعة المخالفة بعدة ألقاب منها: العمرية أو العمرانية؛ نسبة إلى عيسى بن عمير، والنجوية؛ لأنهم كانوا يتناجون بالإثم والعدوان، والنكارة؛ لإنكارهم إمامة عبد الوهاب، والشغبية؛ بسبب شغبهم، والملحدة؛ لإلحادهم في أسماء الله الحسنى، والنكاث؛ لنكثهم البيعة بغير حجة شرعية.[1]

ولم تكن هذه هي الثورة الوحيدة في عهد الإمام عبد الوهاب؛ بل ثارت عليه أيضا فئة أخرى من قبيلة زناتة. وعلى الرغم من تبعيتهم للدولة الإباضية؛ إلا أنهم كانوا يتمذهبون بالواصلية (وهم أتباع طائفة من المعتزلة؛ ممن اعتنق مذهب واصل بن عطاء الغزال).[2] كما وضع أبو زكرياء في كتابه

---

[1] السير، ص ص: 88 ـ 100. والطبقات، ج: 1 ص ص: 47 ـ 56.

[2] وقد أشار البكري لهذه الفئة من الواصلية؛ المتواجدة بالقرب من تيهرت فقال: ((وكان مجمع الواصلية قريبا من تاهرت؛ وكان عددهم نحو ثلاثين ألفا؛ في بيوت كبيوت=

فصلا خصصه لهذه الفرقة؛ ولدورها في إثارة الفتنة وسط دولة بني رستم؛ وسرد الكيفية التي استطاعت بها هذه الفئة من زناتة الزج بالدولة في دوامة من الاضطرابات والفتن ـ مدة طويلة ـ قبل أن تتمكن من التغلب عليهم؛ بمساعدة جماعة من نفوسة.[1] والقصة طويلة؛ ولكن خلاصتها في النهاية؛ انتهت بهزيمة الواصلية في مجالات الحرب، والمجادلات الكلامية. وعندها اختار أصحابها مهادنة الدولة. وثمة من يعتقد بأن محرك هذه الجماعة هو شيخ أوربة بأوليلي إسحاق بن محمد بن عبد الحميد الأوربي؛ المبايع لإدريس بن عبد الله؛ وكان ـ كما قال البكري ـ معتزليا. ومن جهة أخرى فقد ذكر الشهرستاني ـ في فصل الواصلية ـ أن فئة منهم متواجدة في بلد إدريس بن عبد الله الحسني.[2] وإذا صح هذا فمعناه أن الواصلية تكون قد انتشرت انتشارا واسعا في المغرب الأوسط؛ ووصلت إلى أجزاء من المغرب الأقصى.

ولم تكن هزيمة ابن فندين اليفرني والزناتيين التابعين للواصلية ـ من بعده ـ هي خاتمة الثورات؛ بل انتفضت قبيلة

=الاعراب: يحملونها)). المغرب، ص: 67. انظر أيضا معجم البلدان لياقوت الحموي، مادة تاهرت: 2، ص: 8.

[1] وعن هذا يقول أبو زكرياء: ((وهم قوم من البربر؛ أكثرهم من قبائل زناتة؛ وذلك حين احسوا ببعض الفرقة في الإباضية؛ وأرادوا أن ينتهزوا بعض الفرصة؛ فبلغ الإمام ذلك؛ فاعتذر إليهم مرة بعد مرة؛ وقد نشأ إذ ذاك من الواصلية شاب حدث السن، شجاع، عظيم، بطل لا يقاوم له شيء؛ وهو ابن سيدهم، وعمدتهم. وفيهم رجل منتحل للمناظرة؛ يذب من مذهبه؛ وقد جرت بينه وبين الإمام مناظرات كثيرة؛ وكان شديد المعارضة، حديد العارضة. فتكاثفت كلمة الواصلية. واجتمعوا من كل نقب، وجازوا من كل أوب؛ فانحازوا عن تاهرت، وأخذوا جبالها؛ وهم أصحاب العمود؛ وأظهروا مخالفة الإمام ـ رضي الله عنه ـ فاعتذر اليهم؛ وخرج إليهم بعساكر كثيرة؛ فقاتلهم مرة بعد مرة. وكان الفتى المعروف بالنجدة والشجاعة؛ لا يدرك أحدا إلا قتله... فلما رأى الإمام ـ رضي الله عنه ـ ذلك، وأن حربهم جد؛ أرسل إلى جبل نفوسة يستمدهم؛ أن يبعثوا إليه جيشا نجيبا؛ يكون فيه رجل ذو علم بفنون الرد على المخالفين، ورجل عالم بفنون التفسير، ورجل شجاع بطل نجد يبارز الفتى المعتزلي الموصوف بالشجاعة... واتفق رأيهم على أن يبعثوا له بأربعة نفر: أحدهم مهدي [النفوسي الويغوي]، والاخر أيوب بن عباس، والثالث محمد بن يانس، والرابع لم يبلغنا اسمه؛ وقد قيل أن اسمه أبو محمد فارس...)). السير، ص:102.

[2] الملل والنحل، ج: 1، ص: 46.

هوارة إثرهما؛ بفعل الغيرة والنخوة وتأثير العصبية؛ إذ استفزهم تصرف الإمام عبد الوهاب؛ من أجل ابنة شيخ قبيلة لواتة؛ التي تقدم إلى خطبتها أحد شيوخ هوارة؛ فخاف الإمام عبد الوهاب عاقبة تمتين أواصر القربى بين القبيلتين: (هوارة ولواتة) فسارع إلى مزاحمة شيخ هوارة؛ وعرض نفسه بديلا وخطيبا منافسا.[1] وبالطبع دخلت في الاعتبار المغريات المالية، والوعود الملوكية؛ فانتهت المنافسة بزواج الأمير عبد الوهاب من الفتاة. وكان هذا بمثابة إعلان حرب بين هوارة والإمام عبد الوهاب. وحدثت أيضا في عهد هذا الإمام فتن أخرى؛ قامت بها بعض العشائر البدوية من مزاتة وسدراتة وعشائر أخرى. والسبب ـ على ما يبدو ـ أنهم طالبوا الإمام بعزل بعض الموظفين؛ كالقاضي، وصاحب بيت المال، وصاحب الشرطة؛ فأبى عليهم ذلك ـ في قصة طويلة ـ فثاروا عليه؛ فما كان منه إلا أنه جرد قوة لتأديبهم وإخضاعهم؛ وتم له ذلك بعد جهد.[2]

ـ حكومة أفلح بن عبد الوهاب:

وبعد وفاة الإمام عبد الوهاب خلفه ولده أفلح بن عبد الوهاب؛ الذي احتل مركزا ممتازا بين أئمة الإباضيين. وقد دام حكمه ما يقارب الخمسين سنة في قول، وستين سنة؛ في قول آخر. وسبب هذا الاختلاف يعود ـ كما يبدو ـ إلى ما ظهر من اضطراب حول السنة التي توفي فيها والده الإمام عبد الوهاب. وبهذا تكون السنة الذي تولى فيها الأمير أفلح غير محققة. ربما حدثت في سنة 188هـ(803م) أو 190هـ(805م) أو

---

[1] سيرة الأئمة الرستميين، ص: 22. الأزهار الرياضية، ج: 2، ص: 137. وتاريخ الجزائر في القديم والحديث، ص: 457. وتاريخ الجزائر العام، ج: 1، ص: 169. وتاريخ المغرب الكبير، ج: 3، ص ص: 420 ـ 421. 430 ـ 431. 491. والعلاقات الخارجية للدولة الرستمية، ص: 56.

[2] تاريخ الجزائر في القديم والحديث، ص: 457. وتاريخ الجزائر العام، ج: 1، ص: 169. وتاريخ المغرب الكبير. ج: 3، ص ص: 420 ـ 421. 431. 491 ـ 495. والعلاقات الخارجية للدولة الرستمية، ص: 56.

208هـ(823م). ومع ذلك فقد اتفقت المصادر كلها على أن سنة وفاة الإمام أفلح هي 240هـ(854م). ولما تولى هذا الإمام الحكم كانت ثورة خلف بن السمح بن أبي الخطاب عبد الأعلى؛ التي اندلعت في نواحي طرابلس؛ أيام حكم والده ما زالت مشتعلة؛ فواصل جهود والده لإخمادها. هذا وقد وصفت المصادر أفلح بالشجاعة والنجدة والعدل وحب العلم والتبحر فيه؛ وله بعض المؤلفات والرسائل في: الأجوبة والنصائح والمواعظ. وكانت له مشاركة في الآداب ونظم الشعْر. وفي عهده ازدهر النشاط الاقتصادي والتجاري في تيهرت، وتوسعت التجارة مع بلاد السودان؛ خاصة مملكة **كوكو**؛ التي يقدر بعدها عن تيهرت بثلاثة أشهر سيرا بالقوافل؛ عبر وارجلان؛ كما كانت لهذه الدولة علاقات طيبة مع الدولة الأموية بالأندلس.

ويبدو أن الإمام عبد الوهاب استطاع بدهائه وحنكته تمهيد الدولة، وتيسير أمر انتقال الحكم فيها إلى أبنائه؛ دون حدوث مشاكل؛ مثلما حدث عند توليه الحكم بعد أبيه عبد الرحمن؛ وعليه لم تتكلم المصادر الإباضية ـ بدقة ـ عن الطريقة التي تمت بها بيعة ولده أفلح. مما يبعث على الاعتقاد أنها حدثت كما كان يحدث في الممالك السنية الأخرى؛ إذ رسخت لدى الرعية فكرة أحقية الإرث الملكي للأسرة المالكة؛ كما أقروا بصحة العمل بمبدأ ولاية العهد. ومع هذا فقد نشبت في عهد الإمام أفلح بعض التيارات المعارضة؛ مثل: الحركة التي سماها الإباضيون بالافتراق الثالث؛ وهي ـ في الحقيقة ـ معارضة مذهبية سلمية؛ قادها نفاث بن نصر النفوسي؛ وإن كانت المصادر الإباضية ترجع أسبابها إلى عوامل سياسية؛ وإلى الغيرة والحسد نتيجة لاستحواذ بعضهم على المناصب في الدولة دون الآخرين.[1]

---

[1] سير الأئمة وأخبارهم، ص ص: 138 ـ 146. طبقات المشائخ بالمغرب، ج: 1، ص ص: 77 ـ 82.

ـ حكومة أبي بكر بن أفلح:

وبعد وفاة الإمام أفلح سنة 140هـ تولى ولده أبو بكر الإمامة. وكانت مدة ولايته قصيرة جدا؛ إذ لم يكمل حكمه السنتين. وفي عهد هذا الإمام عرفت دولة بني رستم تحولا ملحوظا في مسارها السياسي. إذ أصبحت الدولة في قمة الثراء والازدهار؛ مما ساق أصحابها إلى الدخول في عهد جديد يتميز بالترف الفائض والنعيم الواسع. ومن الأمثلة على ذلك الثراء الذي كان متفشيا بين رعايا الدولة أن أحدهم؛ وهو يبيب بن زغلين المزاتي كان يمتلك من الإبل ثلاثين ألفا، ومن الغنم ثلاثمائة ألفا، ومن الحمير اثني عشر ألفا. أما ثروة الإمام أبي بكر بن أفلح فلا حصر لها. وعليه فقد أصيبت الدولة بالأعراض الطبيعية للترف والنعيم الفائضين عن الضروري؛ لذا فقد ابتلي الإمام أبو بكر بالداء الذي ينتج عن الترف وتوابعه؛ وهكذا فقد ركن إلى الدعة والسكون؛ وترك شئون الدولة في يد صهره محمد بن عرفة؛ وهو من أعيان البلد ذوي النفوذ والسمعة الطيبة؛ وينتمي إلى أسرة عربية؛ ولكنه مال إلى الاستبداد بالأمر؛ مما أغضب أهل البيت المالك؛ فأوغروا صدر أبي بكر ضد صهره؛ فقتله غيلة؛ الأمر الذي أشعل في المدينة ثورة أكلت الأخضر واليابس. وما حدث هنا لا يخرج عن المفهوم الذي وضعه ابن خلدون في مقدمته ضمن: "**فصل في أن من طبيعة الملك الدعة والسكون**". و"**فصل في أطوار الدولة، واختلاف أحوالها، وخلق أهلها باختلاف الأطوار**".[1]

---

[1] ففي المثال الأول يقول ابن خلدون: ((وذلك أن الأمة لا يحصل لها الملك إلا بالمطالبة. والمطالبة غايتها الغلب والملك؛ وإذا حصلت الغلبة انقضى السعي إليها... فإذا حصل الملك أقصروا عن المتاعب التي كانوا يتكلفونها في طلبه؛ وآثروا الراحة والسكون والدعة؛ ورجعوا إلى تحصيل ثمرات الملك من المباني والمساكن والملابس؛ فيبنون القصور، ويجرون المياه، ويغرسون الرياض، ويستمتعون بأحوال الدنيا، ويؤثرون الراحة على المتاعب)). أما المثال الثاني فيقول فيه: ((اعلم أن الدولة تنتقل في أطوار مختلفة، وحالات متجددة؛ ويكتسب القائمون بها في كل طور خلقا من أحوال ذلك الطور؛ لا يكون مثله في الطور الآخر؛ لأن الخلق تابع بالطبع لمزاج الحال الذي هو فيه. وحالات الدولة وأطوارها لا تعدو في الغلب خمسة أطوار: الطور الأول: طور الظفر بالبغية... فيكون صاحب الدولة=

وهذا هو الذي حصل للرستميين؛ إذ وصل مؤسس دولتهم عبد الرحمن بن رستم إلى إقامة دولته بالكدّ والجهد والمطالبة المضنية؛ فاقتصر ـ في حياته إذ ذاك ـ على الضروري من العيش. ولم يهنأ له بال، ولا استسلم للراحة ولا للدعة أو السكينة؛ حتى حقق أهدافه. ولما خلفه ابنه عبد الوهاب ضبط أمره، وحافظ على توازن ملكه؛ على الرغم من الثراء الذي بدأ يظهر عليه؛ ونظرا لكونه قد عاش في عهد والده؛ وعرف قيمة الجهود التي بذلها أبوه للوصول إلى ما هم عليه؛ فقد توازنت حياته، ولم يترك لنفسه العنان. ولما تولى ابنه أفلح بدأت بوادر الترف تدخل بيته؛ وإن كان ـ هو في ذاته ـ بقي متمسكا ببعض عادات أبيه؛ غير أن ذلك كان نسبيا. أما ولده أبو بكر فقد بعد به الزمن عن مبدأ قيام الدولة، ولم يعرف للتقشف طريقا؛ ولم يعايش حال الأولين؛ لذا فقد طغت عليه طبيعة الملك؛ المتميزة برخاء العيش؛ فانساق وراء الترف والملذات والمغريات؛ تاركا معاناة الحكم، ومشاق السياسة إلى وزيره ابن عرفة؛ فحدث ـ نتيجة لذلك ـ شرط الاستبداد عليه؛ من طرف صهره ابن عرفة؛ ولكن عصبية البيت المالك أبت عليه تراخيه، وعابت عليه ترك شئون الدولة بين يدي وزير من قبيلة أخرى؛ ليس بينهم وبينها روابط؛ سوى روابط المصاهرة؛ لذا فقد استعملوا سلاح الفتنة والخداع للتفريق بينهما؛ فكانت النتيجة هي ما حدث

=في هذا الطور أسوة قومه في اكتساب المجد، وجباية المال، والمدافعة عن الحوزة والحماية... الطور الثاني: طور الاستبداد على قومه والانفراد دونهم بالملك، وكبحهم عن التطاول للمساهمة والمشاركة. ويكون صاحب الدولة في هذا الطور معنيا باصطناع الرجال، واتخاذ الموالي والصنائع، والاستكثار من ذلك؛ لجدع أنوف أهل عصبيته...الطور الثالث: طور الفراغ والدّعة؛ لتحصيل ثمرات الملك؛ مما تَنْزع طباع البشر إليه؛ من تحصل المال، وتخليد الآثار، وبعد الصيت... الطور الرابع: طور القنوع والمسالمة. ويكون صاحب الدولة في هذا قانعا بما بنى أوّلوه، سلما لأنظاره من الملوك وأقتاله، مقلدا للماضين من سلفه... الطور الخامس: طور الإسراف والتبذير. ويكون صاحب الدولة في هذا الطور متلفا لما جمع أوّلوه في سبيل الشهوات والملاذ والكرم على بطانته... وفي هذا الطور تحصل في الدولة طبيعة الهرم. ويستولي عليها المرض المزمن؛ الذي لا تكاد تخلص منه، ولا يكون لها معه بُرءٌ؛ إلى أن تنقرض)). المقدمة، ج: 2، ص ص: 651. 663 ـ 666.

من مآسي وسفك للدماء. وما تلاها من انتفاضات للعامة، وثورات قام بها: بنو مسالة الهواريين أصحاب قلعة تاسفدالت، وفئة من الفرس المناوئين لبني رستم. ويبدو أنه تم ـ وفي عهد أبي بكر هذا ـ إلحاق بعض الجماعات من الفرس والعرب بالدولة الرستمية؛ وقد قدم هؤلاء الفرس والعرب من المشرق مباشرة، أو من القيروان.[1] ويدل هذا طبعا على التوجه الجديد للدولة الرستمية ـ في أواخرها ـ نحو استخدام المصطنعين من الجند والموظفين؛ لتعويض فئات أخرى من القبائل؛ التي قامت الدولة على كاهل أبنائها. وهذا كما سبق شرحه يفسر ظاهرة الشيخوخة التي ابتليت بها الدولة في هذا الطور من حياتها.

وجملة القول فقد شرعت الدولة الرستمية ـ بدءا بعهد أبي بكر هذا ـ في الانزلاق عبر منحدرات السقوط والاندثار. وانتهى الأمر بإمامها أبي بكر إلى أسلوب في الحكم لم تعهده الدولة من قبل؛ إذ انغمس في مستنقع الشهوات، تاركا شئون الدولة في يد وزيره؛ الأمر الذي شجعه على الاستبداد؛ وهنا استيقظت في أبي بكر غرائز الغيرة والانتقام؛ فاغتال وزيره ووضع دولته على حافة الهاوية. وكاد الأمر أن يخرج تماما من أيدي بني رستم؛ لولا ظهور أبي اليقظان بن أفلح؛ محفوفا بأنصاره من النفوسيين سنة 241هـ(855م).

ـ حكومة أبي اليقظان محمد بن أفلح:

بويع أبو اليقظان بالإمامة سنة 241هـ خارج تيهرت؛ أثناء الفتنة التي تسبب فيها أخوه أبو بكر. حدث ذلك بعد لجوئه إلى حصن لواتة المحاذي لتسلونت؛ أين ينبع نهر مينا. ولما ولي شئون الدولة عمل من فوره إلى إخماد الفتنة، وعقد صلحا مع

[1] وفي هذا يقول ابن الصغير: ((وكانت العجم قد ابتنت القصور، ونفوسة قد ابتنت العدوة، والجند القادمون من إفريقية قد بنوا المدينة العامرة اليوم)). سيرة الأئمة الرستميين. ص: 26.

بني مسالة الهواريين الذين تغلبوا على تيهرت. هذا وقد لعبت نفوسة دورا هاما في إعادة المياه إلى مجاريها، وتمهيد الأمر لعودة الدولة بقيادة أبي اليقظان. وبالفعل دخل إمام الإباضية من جديد إلى تيهرت؛ بغرض إصلاح ما تصدع، وعلاج ما أفسده الدهر والعباد.

ومع ذلك لم تجد إصلاحات أبي اليقظان في إنعاش هذه الدولة؛ لأن الداء أصبح مزمنا والعلاج مستحيلا. خاصة عندما اتضح أن العامل الديني ـ هو بدوره ـ أخذ مفعوله يتلاشى ويضعف في حياة تلك الدولة. كما أصبحت عصبية البيت المالك فاقدة لتلاحمها وفاعليتها. عندئذ برز الوجه الآخر للعصبية؛ كاشفا عن العيوب، والسلبيات التي كبحها الدين وضبط مفعولها ومؤثراتها من قبل. غير أن بوادر هذا الأمر السلبي بدأت ـ في الحقيقة ـ تظهر منذ عهد الأمير الثاني؛ ولكن الدولة كانت مازالت قوية بعصبيتها، وبمذهبها الديني. ولما حل عهد أبي بكر أخذ التنافس، والتحاسد يهيمنان على كيان التحالف القبلي المساند للدولة. وأضحت الخلافات والمؤامرات تحجب ضوء الشمس؛ في سماء الدولة الرستمية؛ وشرع أفراد العائلة المالكة في حبك المؤامرات ضد بعضهم بعضا. ووصل بهم الحال إلى سفك دماء قرابتهم وأهاليهم. وبذلك كتب لهذه الدولة صك فنائها واندثارها.

ـ حكومة أبي حاتم يوسف بن أبي اليقظان:

لما توفي أبو اليقظان سنة 281هـ(894م) ولي بعده في منصب الإمامة ولده أبو حاتم يوسف. وكان ـ حين توفي والده ـ خارج تيهرت في مهمة أسندت إليه مع جماعة من قبيلة زناتة؛ تهدف إلى حماية القوافل التجارية. وعلى الرغم من غيابه فقد خرجت العامة في شوارع تيهرت هاتفة باسمه؛ نظرا لما تخصه به من حب وإجلال. ولكنه لم يبق في منصبه أكثر من عام حتى بدأت المصاعب تظهر بوجهها القبيح؛ إذ تحركت بعض

المؤامرات التي حاكها جماعة من أصحاب المصالح؛ حيث حرضوا عليه عمه يعقوب بن أفلح. فأغروه بالملك وواعدوه بالوقوف إلى جانبه إن هو ثار على ابن أخيه. وبالفعل تحرك يعقوب محاولا الاستيلاء على سدة الحكم. وظل الصراع بينهما يتصاعد؛ وكان النجاح سجالا بينهما؛ إلى أن قتل أبي حاتم غيلة بأيدي طرف ثالث في الأسرة المالكة؛ وهم أبناء اليقظان أخيه من الأب في سنة 294هـ(1003م). وبعد أن قتلوه ولوا مكانه أخا لهم اسمه اليقظان أيضا. وهكذا أصبحت حال الأسرة الرستمية؛ حيث انحدرت في مهاوي الصراعات والمؤامرات الدنيئة؛ وذلك من علامات فساد عصبيتهم، وانهيار قيمهم.

ـ حكومة اليقظان بن أبي اليقظان:

غدت الدولة الرستمية بعد مقتل أبي حاتم في مهب الريح؛ فلم يعد حاكمها يحظى بالاحترام والتقدير الذي تحلى به الأسلاف. وهكذا بقي اليقظان في الحكم زهاء العامين؛ إلى أن حانت ساعة سقطته المحتومة على يد أبي عبد الله الشيعي سنة 296هـ(908م). والذي سهل في الإطاحة بهذه الدولة هو ذلك الانقسام الحاصل بين أبناء الأسرة المالكة. وقد ظهر هذا من خلال تحريض الأميرة الرستمية؛ دواسر أو (دوسرة) بنت أبي حاتم يوسف بن أبي اليقظان؛ أبو عبد الله الشيعي على قتل اليقظان واخوته؛ ثأرا لأبيها الإمام الرستمي الذين اغتالوه في سنة 294هـ.[1]

۞۞۞

[1] سير الأئمة وأخبارهم، ص ص: 169 ــ 170. مختصر تاريخ الإباضية، ص ص: 44 ــ 45. 47 ــ 49. وتاريخ المغرب الكبير، ج: 3، ص ص: 562 ــ 568. 609. 615. العلاقات الخارجية للدولة الرستمية، ص ص: 66 67.

ـ الحضارة والحركة الثقافية:

هذا عن الأوضاع السياسية لهذه الدولة أما بخصوص إنجازاتها الحضارية والثقافية؛ فهي ـ خلافا للدولتين السابقتين ـ قد تميزت بالمآثر الحضارية، والإنجازات الثقافية والعمرانية؛ التي عرفت تطورا ملحوظا؛ بالإضافة إلى الازدهار الاقتصادي، والاستقرار السياسي. وقد نافست تيهرت ـ في عهدها ـ حاضرة القيروان؛ في ميدان العلوم والعمران. حيث كانت ـ في ذلك الوقت ـ مركز إشعاع ثقافي، وحضاري انتشر نوره في ربوع المغرب كلها. ووصل أثره إلى عواصم الدول الإسلامية الأخرى؛ كبغداد، وقرطبة.[1] وقد برز في تربة تيهرت علماء وأدباء أجلاء؛ منهم من بقي فيها ومنهم من هاجر إلى القيروان وقرطبة؛ مثل: عبد الرحمن بن عبد الله بن محمد التميمي التاهرتي؛ فقيه سني في تيهرت أيام الدولة الرستمية؛ وهو والد الفقيه المحدث قاسم الذي هاجر مع ابنه إلى الأندلس. ثم ولده الفقيه قاسم بن عبد الرحمن بن عبد الله بن محمد التميمي التاهرتي؛ وهو من فقهاء السنة في تيهرت؛ كان قد أخذ عن بكر بن حماد؛ وهاجر إلى الأندلس مع ابنه سنة 317هـ(929م). ثم ولده الفقيه المحدث أبي الفضل أحمد بن قاسم بن عبد الرحمن بن عبد الله بن محمد

---

[1] وفي هذا يقول ألفرد بل: ((وكانت عاصمتها تاهرت مركزا مهما للدراسات الإسلامية؛ وفقا لمذهب الخوارج الإباضية. وبفضل تسامح الأئمة استطاع علماء أهل السنة القدوم لجدال علماء الاباضية في مسائل العقيدة والشريعة؛ وربما راود هؤلاء الأخيرين الأمل في أن يقنعوا علماء أهل السنة باعتناق نحلة الإباضية. ومن هذه الناحية كانت تاهرت ـ شأنها شأن القيروان وتونس، حاضرتي العلم على مذهب أهل السنة ـ مدرسة لشحذ روح الجدل وحب المناقشة والتدقيقات. وأخذ شيوخ البربر في تلقي العلم بحماسة، وأسسوا مدرسة هم بدورهم. هنالك صارت تيهرت ـ بفضل حسن موقعها من الناحية الاقتصادية، وبفضل تسامح أئمتها ـ مدينة مزدهرة. وبفضل الزراعة، والتبادل التجاري خصوصا؛ صارت من أكبر أسواق المغرب... ووسط الرخاء الذي ساد حولهم، وفي هدوء علوم الدين الأثيرة لديهم؛ لم يعد الأئمة الرستميون في تاهرت يفكرون في الحرب، وفي النضال الذي أتى في هذه النواحي بالمؤسس الكبير لدولتهم؛ وهو ابن رستم وأهملوا العناية بإعداد جيش يقدر ولو على الدفاع عن بلادهم وعاصمتهم. ولهذا انهارت هذه في سنة 909م؛ حين هاجمتها جيوش الشيعة المبتدعة بزعامة الداعي أبي عبد الله الشيعي)). الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي، ص ص: 149 ـ 150.

التميمي التاهرتي المعروف بالبزاز؛ الذي ولد في تيهرت سنة 309هـ(921م)، وهاجر مع أبيه إلى الأندلس، حيث توفي بقرطبة سنة 396هـ(1005م). ثم الأديب الشاعر أحمد بن فتح التاهرتي؛ وهو الذي وفد إلى أبي العيش عيسى بن إبراهيم بن القاسم بن إدريس في بصرة، ومدحه بقصيدة ذكرنا بعض أبياتها عند التطرق للحضارة والحركة الثقافية بدولة الأدارسة. ثم الفقيه المتكلم عبد الله بن اللمطي التاهرتي، صنفه الشماخي من بين علماء الإباضية في القرن الثالث الهجري، وقال فيه: ((**كان غاية في علم الكلام، يرد على الفرق، وينقض كلام المبتدعة، وألف كتبا في ذلك**)). ثم الفقيه الإباضي محمود بن بكر التاهرتي؛ الذي كان من المقربين من أبي اليقظان محمد بن أفلح؛ وكان بدوره من المهتمين بعلم الكلام، وله فيه تآليف. ثم يهوذا بن قريش التاهرتي؛ عاش في القرن الرابع الهجري بتيهرت؛ وهو لغوي مدقق؛ تعمق في المقارنة بين اللغات: العربية، والعبرية، والآرامية، والبربرية؛ وقد ألف في ذلك كتابا توجد مخطوطة منه في مكتبة "أوكسفورد" البريطانية؛ وقد اعتبر يهوذا بن قريش بهذا العمل أول من وضع أساس النحو التنظيري. ثم المؤرخ ابن الصغير المالكي؛ ذلك المثقف السني الذي وضع كتابا عن تاريخ الدولة الرستمية. ثم أبو عبد الرحمن بكر بن حماد بن سهل (أو سهر) الزناتي التاهرتي. ويعتبر هذا الأخير من كبار العلماء والمحدثين السنيين، ومن فحول الشعراء والأدباء الممتازين. وقد عاش في عهد أبي حاتم يوسف بن محمد أبي اليقظان؛ وهو القائل له معتذرا على ما بدر منه خلال الثورة التي قامت ضده؛ وما كان منه عندما انساق وراء المخالفين والثائرين على أبي حاتم:

ومؤنسة لي بالعراق تركتها

وغصن شبابي في الغصون نضير

فقلت كما قال النواسي قبلها
((عزيز علينا أن نراك تسير))
فقلت جفاني يوسف بن محمد
فطال علي الليل وهو قصير
أبا حاتم ما كان ما كان بغضة
ولكن أتت بعد الأمور أمور
فأكرهني قوم خشيت عقابهم
فداريتهم، والدائرات تدور
وأكرم عفو يؤثر الناس أمره
إذا ما عفا الإنسان وهو قدير

كما قال له لما مثل بين يديه:
مَاذَا يُدَبِّرُ رَبُّنَا فِي أَمْرِهِ
سُبْحَانَهُ فِي أَرْضِهِ وَسَمَائِهِ
رَدَّ المُلُوكَ إِلَى مَحَلِّ قَرَارِهِمْ
مُسْتَبْشِرِينَ بِفَضْلِهِ وَعَطَائِهِ
فَتَبَارَكَ اللَّهُ اللَّطِيفُ بِصُنْعِهِ
مَا أَغْفَلَ الثَّقَلَيْنِ عَنْ نِعْمَائِهِ
رَفَعَ السَّمَاءَ بِلاَ عِمَادٍ بَيِّنٍ
وَالبَحْرَ أَمْسَكَهُ عَلَى أَرْجَائِهِ
لَوْلاَهُ فَاضَ عَلَى العِبَادِ بِمَوْجِهِ
وَعَلَى الجِبَالِ الرَّاسِيَاتِ بِمَائِهِ
أَخَذَ البِلاَدَ بِسَيْفِهِ فَاسْتَسْلَمَتْ
وَبِعَدْلِهِ وَبِفَضْلِهِ وَسَخَائِهِ

ومن شعر أبي عبد الرحمن بكر بن حماد الزناتي في وصف البرد بتاهرت قوله:
مَا أَخْشَنَ البَرْدَ وَرَيعَانَهُ
وَأَطْرَفَ الشَّمْسَ بِتَاهَرْتِ

تَبْـدُو مِنَ الغَـيْـمِ إذا مَـا بَـدَتْ
كَـأنَّـهَـا تُـنْـشَـرُ مِن تَـخْـتِ
نَـحْـنُ فِي بَحْـرٍ بَـلا لُـجَّـةٍ
تَجْـرِي بِنَـا الرِّيـحُ عَلَـى السَّمْـتِ
نَـفْـرَحُ بِالـشَّمْسِ إذا مَـا بَـدَتْ
كَـفَـرْحَـةِ الـذِمِّـي بِالـسَّبْـتِ

ويقول في تيهرت بعد تخريبها مـن طـرف الفاطميين سنـة 296هـ(908م)؛ وهي السنة نفسها التي توفي فيها ابن حماد. فقال:

زُرنَـا مَنَـازِلَ قَـوْمٍ لَـمْ يَـزُورُونَـا
إنَّـا لَـفِـي غَـفْـلَـةٍ عَمَّـا يُـقَـاسُـونَـا
لَـو يَنْـطِقُـونَ لَـقَـالُـوا: الـزَّاد وَيْـحَكُـمُ
حَلَّ الرَّحِيلُ فَـمَا يَـرْجُـو الـمُـقِـيـمِـينَـا
الـمَـوْتُ أجْـحَـفَ بِالـدُّنْـيَـا فَـخَـرَّبَـهَـا
وَفَـعَـلْـنَـا فِعْـلَ قَـوْمٍ لاَ يَـمُوتُـونَـا
فَـالآنَ فَـابْـكُـوا فَـقَـدْ حَـقَّ الْـبُـكَـاءُ لَـكُـمْ
فَـالـحَـامِلُـونَ لِـعَـرشِ اللَّـهِ بَـاكُـونَـا
مَـاذَا عَـسَى تَـنْـفَـعُ الـدُّنْـيَـا مُـجَمِّـعِـهَـا
لَـوْ كَـانَ جَـمَّـعَ فِـيـهَـا كَـنْـزَ قَـارُونَـا

ثم ولده أبو زيد عبد الرحمن بن بكر بن حماد؛ قال فيه ابن الفرضي: ((**عبد الرحمن بن بكر بن حماد التيهرتي الشاعر؛ من أهل القيروان؛ يكنى أبا زيد؛ قدم الأندلس. حدث عن أبيه، وكتب عنه غير واحد من شعر أبيه وحديثه**)).[1] ويقول ابن الفرضي أنه توفي بقرطبة؛ بينما تذكر مصادر أخرى بأنه توفي سنة 296هـ(908م)؛ أثناء عودته مع والده إلى

[1] تاريخ علماء الأندلس، ص: 268.

تيهرت؛ في كمين نصبه لهما بعض اللصوص الأشرار. وقد رثاه والده بكر بن حماد بقصيدة جاء فيها:

بَكَيْتُ عَلَى الأحِبَّةِ إذْ تَوَلَّوْا
وَلَوْ أنِّي هَلَكْتُ بَكَوْا عَلَيَّا
فَيَا نَسْلِي بَقَاؤُكَ كَانَ ذُخْراً
وَفَقْدِكَ قَدْ كَوَى الأكْبَادَ كَيَّا
كَفَى حُزناً بِأنَّنِي مِنْكَ خُلْوٌ
وَأنَّكَ مَيِّتٌ وَبَقِيتُ حَيَّا
وَلَمْ أكُ آيِساً فَيَئِسْتُ لَمَّا
رَمَيْتُ التُّرَابَ فَوقَكَ مِنْ يَدَيَّا
فَلَيْتَ الخَلْقُ إذْ خُلِقُوا أطَاعُوا
وَلَيْتَكَ لَمْ تَكُ يَا بَكْرُ شَيَّا
تُسَرُّ بِأشْهُرٍ تَمْضِي سِرَاعاً
وَتُطْوَي فِي لَيَالِيهِنَّ طَيَّا
فَلاَ تَفْرَحْ بِدنْيَا لَيْسَ تَبْقَى
وَلاَ تَأسَفْ عَلَيْهَا يَا بُنَيَّا
فَقَدْ قَطَعَ البَقَاءَ غُرُوبَ شَمْسٍ
وَمَطْلَعُهَا عَلَيٍّ يَا أخَيَّا
وَلَيْسَ الهَمُّ يَجْلُوهُ نَهَارٌ
تَدُورُ لَهُ الفَرَاقِدُ وَالثُّرَيَّا

ورثاه بقصيدة أخرى أيضا فقال:

وَهَوَّنَ وَجْدِي أنَّنِي بِكَ لاَحِقٌ
وَأنَّ بَقَائِي فِي الحَيَاةِ قَلِيلُ
وَأنْ لَيْسَ يَبْقَى لِلْحَبِيبِ حَبِيبُهُ
وَلَيْسَ بِبَاقٍ لِلْخَلِيلِ خَلِيلُ

وَلَوْ أنَّ طُولَ الحُزْنِ مِمَّا يَرُدُّهُ
لَلازَمَنِي حُزْنٌ عَلَيْهِ طَوِيلُ
بَلَى رُبَّمَا دَارَتْ عَلَى القَلْبِ لَوْعَةٌ
فَيُرجِعُهَا صَبْرٌ هُنَاكَ جَمِيلٌ
تَبَدَّدَ مَا قَدْ كَانَ مِنْكَ مُجَمَّعاً
وجلّلهُ رمَلٌ عليك مهِيلُ
فَلاَ عَلَمٌ يُنْبِيكَ أيْنَ مَحَلّهُ
وَلا جَدَثٌ يُشْفَى عَلَيْهِ غَلِيلُ
خَلاَ أعْظُمٍ قَدْ بُدِّدَتْ وَمَفَاصِلٍ
تَمِيلُ بِهَا الأرْيَاحُ حَيْثُ تَمِيلُ

وممن ينسب ـ أيضا ـ إلى تيهرت من العلماء والأدباء: أبو العباس الفضل بن نصر التاهرتي؛ وكان من علماء الشافعية؛ وتوفي بالقيروان سنة 344هـ(955م)؛ وهو من الشعراء كذلك؛ ومن شعره:

بَلَغَ الوُشَاةُ عَلَيَّ حَيْثُ أرَادُوا
وَاللَّهُ يَسْألُهُمْ وَمَا قَدْ كَادُوا
وَاللَّهُ يَعْلَمُ أنَّنِي مَا قُلْتُ مَا
قَالَ الوُشَاةُ تَأفُّكاً وَأعَادُوا
فَهَبِ الوُشَاةُ أتَوْا بِأمْرٍ بَيِّنٍ
أيْنَ الكِرَامُ أبَدَّلُوا أمْ بَادُوا
عَفْوُ المُلُوكِ عَنِ الذُّنُوبِ مَدَائِحٌ
مَدَحُوا نُفُوسَهُمْ بِهَا فَأجَادُوا

ولما وصل إليه خبر ـ غير مؤكد ـ بوفاة ابنه في جزيرة شقر؛ قال:

فَلَوْ كَافْتِقَادِ النَّاسِ قَبْلِي بَيْنَهُمْ
أتِيحَ لَهُ مَوْتٌ وَأضْمَرَهُ قَبْرُ

إذنَ لَنصَبَرتَ النَّفسَ ثَمَّ احتَسَبْتُهُ
لِيَعظُمَ لي مِنْ بَعدِ مِيتَتِهِ الأجْرُ
ولَكِنْ طوتْ عَنِّي المقَاديرُ أمْرَهُ
فَمَالِي بِهِ مِنْذُ انتَآى شَخْصُهُ خَبرُ
فَرحْمَتُكَ اللَّهُمَّ قَدْ بَلَغَ الأسَى
نِهَايَةَ مَجْهُودي وَقَدْ غَلِبَ الصَّبْرُ

كما كان جل أئمة الدولة ـ أنفسهم ـ من العلماء والأدباء. فمؤسس الدولة عبد الرحمن بن رستم؛ يعتبر من كبار علماء الإباضية، كما كان ولوعا بأشغال العمارة، ويباشرها بنفسه؛ وإن اعتبر ما ينجزه منها بسيط المظهر. أما ولده عبد الوهاب فقد عرف بتبحره في العلوم، وولعه الشديد بالكتب؛ إذ تقول المصادر أنه بعث إلى المشرق ألف دينار لشراء الكتب؛ فأرسلت إليه الكتب التي قدرت بأربعين حملا. ويقال أنه كان ضليعا في العلوم الشرعية وعلم الفرائض والتنجيم. أما ولده الإمام أبو سعيد أفلح فكان ـ بدوره ـ عالما جليلا في علوم وفنون شتى؛ ومن شعره قصيدة في مدح العلم تصل أبياتها إلى الأربعين؛ منها:

العلم أبقىَ لأهل العلم آثارا
يريك أشخاصهم روحا وأبكارا
حي وإن مات ذو علم وذو ورع
ما مات عبد قضى من ذاك أوطارا
وذو حياة على جهل ومنقصة
كمَيِّت قد ثوى في الرمس أعصارا
لله عصبة أهل العلم إن لهم
فضلا على الناس غيابا وحضارا

وتقول المصادر أنه كان بتيهرت الرستمية مكتبة أسمها المعصومة؛ تشتمل على أزيد من ثلاثمائة ألف مجلد؛ انتهى مصيرها إلى النار التي أشعلها في معظم مجلداتها عبد الله الشيعي؛ عندما افتتح تيهرت؛ ولم يأخذ منها ستوى ما يناسب مذهبه؛ وما وجد بها من كتب الرياضة والصنائع والفنون.[1] ولو بقيت هذه المكتبة لقدمت للباحثين معلومات وافية عن هذه الدولة الإباضية.

۞۞۞

وإلى جانب كل هذا لا بد من الإشارة أيضا إلى إمارتين إباضيتين صغيرتين؛ كانتا ـ حسبما يبدو ـ في طاعة الدولة الرستمية؛ ولم تصل بهما الأهمية إلى البروز كدولتين مستقلتين. وهاتان الإمارتان هما: أولا: إمارة بني دمر: وهم بطن من قبيلة زناتة. وهذه الإمارة ـ في الحقيقة ـ لا تعدو أن تكون مجرد إمارة قبلية بدوية؛ كانت تنتجع في السهول الجنوبية لمتيجة؛ وبالتحديد في الجهة الغربية من بلدة هاز وفي الجنوب الشرقي

---

[1] وعن الاثار العمرانية لدى الرستميين؛ يقول شارل أندريه جوليان: ((واقتصر الباحثون ـ زمنا طويلا عند تقييم فن بني رستم المعماري ـ على آثار سدراتة (قرب ورقلة) وهي المدينة التي التجأ إليها أهل تاهرت عندما استولى الفاطميون على عاصمتهم سنة 911م. وتدلنا هذه الآثار على أن فنها المعماري متصل بفن إفريقية، وأن زخرفها ينتسب الى زخرف أديرة الأقباط، وان لها عناصر معمارية متأثرة بالمباني المصرية المعاصرة لها؛ وربما بقصور العراق. وكانت الدور ذات الزخرف الثمين المقامة هناك تذكر بمنازل سكان تاهرت المشارقة التي كان ابن الصغير معجبا بها. وفي سنة 1941م قام جورج مارسي ودوسي لامار بزيارة استطلاعية لمعالم تاهرت، وأجريا تنقيبا على اثارها. والذي زاد في صعوبة مهمتهما هو أن الأمير عبد القادر نزل في سنتي: 1835 و 1841م بموقع عاصمة بني رستم العتيقة، وترك فيها أطلالا بعد رحيله. ورغم هذا فإنهما تمكنا من أن يكشفا بصورة قطعية عن جزء من سور بني رستم، وعن مخازن عظيمة للماء، وبقايا من الفخار: كما أنهما ضبطا موقع القصبة؛ مقر أمراء بني رستم؛ وانتهيا بعد البحث إلى أن تاهرت كانت قبل كل شيء قلعة حصينة، مهيأة للصمود عند الحصار الطويل؛ وأن فن القصبة المعماري يذكر بقصور الشام من القرن الثامن. ومن جهة أخرى فإن ما وجداه من بقايا الفخار مكنهما من الجزم بأن فن الزخرف بتاهرت كان بدائيا بسيطا)). تاريخ إفريقيا الشمالية، ج: 2، ص ص: 43 ـ 44.

من **سوق كرام**. وقد أشار إليهم البكري حين ذكر بأن جماعة من بني دمر؛ وهم من الإباضيين؛ كانوا يقيمون بحصن **تامغيلت** الرابض في الطريق بين المسيلة وتيهرت. ويستدل من خلال النصوص أن هؤلاء الدمريين لا علاقة لهم ــ مذهبيا ــ ببني نوح الدمريين؛ أصحاب الدولة بموروور في الأندلس؛ لأن هؤلاء الأخيرين كانوا ــ كما يبدو ــ من أهل السنة. وسيأتي الكلام عن دولتهم ضمن دول زناتة.

أما الإمارة الإباضية الثانية فهي **إمارة بني مسالة الهواريين**: وقد سبقت الإشارة إليهم عند الحديث عن الإمام عبد الوهاب؛ وكيف حاربوه لأنه نافس أميرهم في الزواج من فتاة لواتية. كما ورد الكلام عنهم ــ أيضا ــ عند الحديث عن الفتنة التي وقعت في أواخر عهد أبي بكر؛ حيث احتل أمير مسالة محمد بن مسالة الهواري مدينة تيهرت بعض الوقت. وكان بنو مسالة هؤلاء متمركزين في قلعتهم المحاذية لنهر سيرات والرابضة في الجنوب الغربي من مدينة مستغانم؛ وهي المعروفة في هذه الأيام ــ بالقرب من يلل ــ بقلعة هوارة. وقد تكلم البكري عنها حين أشار إلى قلعة هوارة المسماة **تسقدالت** أو تاسفدالت. بالطبع فلا ترقى هاتان الإمارتان إلى مصاف الدول وإن كانت تتمتع بشيء من الاستقلال في حدود تلك القبيلة الصغير. وبقي الآن الكلام عن دولة بني برزال؛ التي لم يتمكن أصحابها من إقامة دولتهم في مواطنهم الأولى بالقرب من المسيلة؛ بينما ساعدتهم الظروف على إقامتها ببلاد الأندلس؛ خلال الفتنة التي أطاحت بالدولة الأموية.

۞۞۞

4)ـ دولة بني برزال:

قامت هذه الدولة في بلاد الأندلس؛ وذلك بعد أن أعلن البرزاليون قيامها في بلدة **قرمونة**؛ التي اتخذوها عاصمة لهم. هذا وقد نشأت هذه الإمارة الأمازيغية ـ ذات المذهب الخارجي ـ بعد انهيار الدولة الأموية، وانقسام بلاد الأندلس بين شلة من الأمراء، وبعض القبائل العربية والأمازيغية، وجماعات مختلفة من المولي والمماليك؛ وذلك في الفترة المعروفة بعصر الطوائف. وكانت هذه الدولة إباضية المذهب؛ حسبما ذكر كل من: ابن حيان وابن الخطيب.

ويرجع وجود بني برزال في بلاد الأندلس إلى عهد المستنصر الحكم بن عبد الرحمن الأموي ـ تولى من عام 350هـ(961م) إلى عام 366هـ(976م) ـ. وحدث ذلك بسبب وساطة قام بها حليفهم؛ عامل الفاطميين على المسيلة جعفر بن علي بن حمدون؛ بعد تمرده وهروبه إلى الأندلس؛ فاستأذن لهم من الخليفة الأموي في الانتقال إلى الأندلس؛ فأذن لهم مرحبا بمقدمهم؛ بغرض الاستعانة بهم في حروبه. ويبدو أن السبب الرئيسي في ترحيب المستنصر بهم؛ هو ما عرف عنهم من عداوة وبغضاء يكنانها للشيعة الفاطميين. وكما هو معروف؛ فهؤلاء الفاطميين هم أخطر المنافسين وأشدهم شراسة للدولة الأموية في تلك الأنحاء. ومنذ ذلك التاريخ أضحى البرزاليون جندا في خدمة الدولة الأموية. بل أصبحوا من أقرب المقربين إلى الخليفة؛ إذ كانت لهم حظوة خاصة، نظرا للثقة التي خصهم بها. ولما استبد المنصور بن أبي عامر على الخليفة هشام؛ بالغ في تكريم البرزاليين مع الوافدين من أمراء القبائل الأمازيغية الأخرى؛ إذ قربهم إليه وخصهم بالإقطاعيات والقيادات.[1] وفي هذه

[1] يقول ابن خلدون: ((ولما أراد المنصور بن أبي عامر الاستبداد على الخليفة هشام؛ وتوقع النكير من رجالات الدولة، وموالي الحكم؛ استكثر ببني برزال وغيرهم من البربر، وأفاض عليهم الإحسان؛ فاعتز أمره واشتد أزره؛ حتى أسقط رجال الدولة، ومحا رسومها، وأثبت أركان سلطانه... فأضحوا له عصبة؛ وكان يستعملهم في الولايات النبيهة والأعمال=

الأثناء أسند ولاية قرمونة إلى إسحاق البرزالي[1] وهو أحد أمرائهم الأول في الأندلس. وظل البرزاليون ـ بعدئذ ـ محتفظين بولايتهم على قرمونة؛ في عهد أبناء المنصور بن أبي عامر أيضا.

ويبدو أن المصادر التاريخية تجاهلت ذكر ما حدث في ولاية البرزاليين؛ طوال الفترة الممتدة ما بين عهد المنصور بن أبي عامر، إلى عهد المستعين بالله سليمان بن الحكم. على أنهم شرعوا في الحديث عن عبد الله البرزالي في بعض المصادر، أو محمد بن عبد الله البرزالي؛ في مصادر أخرى في أيام المستعين بالله؛ وبالتحديد في سنة 403هـ(1012م)؛ إذ كان الأمير البرزالي طرفا هاما وخطير في إشعال الفتنة الكبرى؛ التي كانت سببا في إزالة الدولة الأموية نهائيا من الأندلس. ويقال أن المستعين بالله عقد في سنة 403هـ لستة من أمراء العرب والأمازيغ على مقاطعات عديدة بالأندلس.[2] فكان نصيب عبد الله البرزالي في قول، أو محمد بن عبد الله البرزالي في قول أخر؛ هو تثبيته

=الرفيعة وكان من أعيان بني يرزال هؤلاء إسحاق بن...؛ فولاه قرمونة وأعمالها؛ فلم يزل واليا عليها أيام بني أبي عامر. وجدد له العقد عليها المستعين في فتنة البرابرة؛ ووليها من بعده ابنه عبد الله)). العبر، مج: 7 ص: 112.

[1] ورد الاسم في العبر هكذا: ((إسحاق بن)). وربما يكون الناسخون قد أسقطوا اسم الأب. وهنا لابد من الإشارة إلى أن جل المؤرخين أكثروا من الخلط في أسماء أمراء بني برزال؛ وترتيبها زمنيا؛ حسب الفترات التاريخية التي مرت بهم في الأندلس. فحين الحديث عنهم مثلا أيام المستعين سليمان بن الحكم؛ يذكرون أحيانا اسم عبد الله البرزالي، وأحيانا أخرى محمد بن عبد الله البرزالي. كما أن اسم إسحاق ورد في كثير من المصادر كحفيد لعبد الله البرزالي؛ بينما يذكر ابن خلدون هذا الاسم كجد للأمراء البرزاليين؛ يكون قد عاش في عهد المنصور بن أبي عامر. أنظر البيان المغرب، ج: 3، ص ص: 202 .203 . 206. 235. وأعمال الأعلام، ق: 2، ص ص: 236 ـ 238. والعبر، 4، ص ص: 324. 327. 337. 338. مج: 7، ص ص: 112 ـ 113.

[2] قال ابن الخطيب: ((وقسم بعض كور الأندلس بين رؤساء القبائل البربرية؛ [تكلم ابن الخطيب هنا أيضا عن رؤساء من غير الأمازيغ] وكانوا ستة: فأعطى صنهاجة منهم بني زيري بن مناد إلبيرة؛ وأعطى مغراوة جوفي البلاد؛ ومنذر بن يحيى سرقسطة؛ وبني برزال وبني يفرن جيان وذواتها؛ والمغاربة من دمر وأزداجة شذونة ومورور. وولى علي ابن حمود على سبتة. والقاسم بن حمود على مدينة طنجة وأصيلا والخضراء)). أعمال الأعلام، ق: 2، ص: 119. أنظر ذلك أيضا في البيان المغرب، ج: 3، ص ص: 113 ـ 114. وهذا الخبر منقول عن ابن حمادة؛ كما أشار ابن عذاري.

والإقرار له بإمارته السابقة؛ وبذلك ترك له ما كان في يده من مقاطعات من قبل. وهي المقاطعات التي سبق أن عين ابن أبي عامر عليها آباءه منذ مدة.

ولما استفحلت الفتنة داخل الدولة الأموية، ومال حالها إلى السقوط والانهيار؛ بادر بنو برزال إلى الاستبداد بما كان في حوزتهم أصلا. متبعين نهج غيرهم ممن استبد على الدولة من القبائل والطوائف المختلفة الأخرى. وعليه يكون البرزاليون قد أعلنوا ـ منذ تلك الفترة ـ قيام إمارتهم في كل من: **قرمونة وأستجة وحصن المدور**؛ أين تحصنوا في تلك الديار مستقلين بها؛ أسوة ببني جلدتهم: كـ: بني زيري وبني يفرن وبني دمر وبني ذي النون وبني خزرون.

هذا حال بني برزال يوم ظهورهم بالأندلس. أما فيما يخص أصولهم؛ فالمصادر تتفق كلها على أنهم بطن من بطون بني دمر الزناتيين. وكانت مواطنهم الأولى في جبل سالات؛ بجهات المسيلة حاضرة الزاب آنئذ. وكانت أعدادهم وافرة، وسطوتهم قاطعة؛ ونفوذهم واسعا في تلك الجهات. كما كانوا ـ كما يقول ابن خلدون ـ نكارية من الخوارج. ومن أتباع أبي يزيد مخلد بن كيداد؛ حيث ناصروه وحموه حين ثار على الدولة الفاطمية. ولما ضاقت به الحال هرب إليهم في جبل سالات؛ فوفروا له المأوى والحماية بعض الوقت. ولكنهم عادوا إلى طاعة الدولة الفاطمية عندما فشلت مقاومتهم، ويئسوا من جدوى المدافعة؛ خاصة بعد موت أبي يزيد. ومنذ ذلك التاريخ أضحوا في خدمة جعفر بن علي والي المسيلة. ولما ساءت علاقة جعفر بالدولة الفاطمية سنة 360هـ(970م) انحاز بنو برزال إليه وحالفوه. لذلك تكلم في أمرهم إلى الحكم المستنصر؛ فوافق على استدعائهم إلى بلاد الأندلس؛ أين ألحقهم بجنده؛ مثلهم مثل بقية القبائل الأمازيغية التي التحقت بالدولة الأموية.

وقد اشتهر من أمراء دولة بني برزال بالأندلس محمد بن عبد الله الوردسني البرزالي.[1] ثم خلفه ــ في بعض الأقوال ــ ابنه إسحاق؛ الذي يقال أنه كان عظيم الشأن، عزيز الجانب، شديد الدهاء، حاد الذكاء.[2] أما تاريخ نشأة هذه الإمارة واستبداد أمرائها ـ بصفة نهائية ــ فيعود حسب جل المصادر إلى سنة 404هـ(1013م)؛ إذ تم ذلك بفضل العزيمة التي كان يتحلى بها كل فرد من قبيلة بني برزال؛ الذين ظلوا طوال مدة إقامتهم ببلاد الأندلس؛ متضامنين ومتجمعين ضمن كتلتهم القبلية المتماسكة والمتلاحمة مع بعضها بعضا. أما إدراج إمارتهم ـ في سياق هذا الفصل المخصص لدول الخوارج ـ فيرجع لما أشيع عن بقائهم على مذهبهم الخارجي في مدة إقامتهم بالأندلس.

وكانت لهذه الإمارة أيام وفتن كثيرة مع القبائل والإمارات المجاورة كـ: بني دمر في مورور، والأدارسة بمالقة أحيانا، وبني عباد في إشبيلية. وثالث أمراء الدولة البرزالية المستبدين هو العزيز بن إسحاق بن محمد بن عبد الله البرزالي.[3] إذ يقال أنه عرض على بن ذي النون أن يتنازل له عن قرمونة؛ في

---

[1] وفيه أقوال كما سبق ذكره. أما ابن الخطيب فيقول: ((وكان هذا الرئيس يلي باديس ــ من ملوك البرابرة ـ في جلالة الشأن، وقوة السلطان؛ بقية أمراء البرابر المسلطين في هذه الفتنة، وأعظم شأنا في الدهاء والرجولة، وأبصرهم بتدبير العساكر، وأربطهم جاشا على الخطوب المقلقة. وكان مشهورا بذخيرة عتيدة من صامت المال؛ لم يزل يجمعها؛ حانطا لها بالبخل الشديد، واستظهارا بها على الخطب العتيد... وتوفي رئيسهم [رئيس بني برزال] محمد بن عبد الله عن جمع ضخم من قبيل نجيب، وخزين من الطعام؛ لم يجمعه أمير قبله في الفتنة. وصار أمره إلى ولده إسحاق)). أعمال الأعلام، ق: 2، ص ص: 236 ـ 237.

[2] وهو كما يقول ابن الخطيب نقلا عن ابن حيان: ((ورأس إسحاق بعد مهلك أبيه؛ وهو في حد الكهولة. كان مشهورا بالحزم والكفاية والبأس والفروسية؛ يتحلى بشعبة من شعب الكتابة، ويضبط شيئا من الحساب، ويقرأ الدفاتر القريبة. وهو دون أبيه محمد في القسوة والفظاظة، وأذهبُ منه في فرط العصبية. وكلاهما على ذلك موصوف بالعفة والنزاهة، والبعد عن آفات الملوك الشائنة؛ مع اشتهارهما بالنكوب عن الجماعة، واعتقادهما بمذهب النكاريين من فرق الإباضية الخوارج؛ يستأثران بذلك هما وقومهما من بني برزال؛ أعمالهم وأقوالهم في ذلك معروفة)). أعمال الأعلام، ق: 2، ص: 237. وللتوسع أنظر ايضا البيان المغرب، ج: 3، ص ص: 237 ـ 239. ودول الطوائف، ص ص: 146 ـ 149.

[3] يقول ابن خلدون أن العزيز هو ابن محمد وليس ابن إسحاق؛ لأنه يرى في إسحاق جدا لهم، وأبا لعبد الله البرزالي. أنظر العبر، مج: 7، ص ص: 112 ـ 113.

مقابل تعويضه بمقاطعة في بلاد ذي النون الجوفية؛ وذلك نكاية في عدوه المعتضد بن عباد؛ المتكالب عليه.[1] وثمة قول آخر يقولون فيه أنه تنازل عن قرمونة إلى ابن عباد نفسه.[2] ومن ذلك التاريخ المحدد بـ 459هـ(1066م)؛ انقرض ملك بني برزال من الأندلس. كما زال ذكرهم ـ كقبيلة ـ نهائيا في المغرب الأوسط. وبذلك يكون سقوط هذه الإمارة قد تم بفعل التطاحن بين القبائل، والطوائف المتكالبة على السلطان والملك في بلاد الأندلس. حيث ظل أمراء هذه الدولة في حروب وفتن؛ دارت بينهم وبين أبناء عمومتهم الأمازيغ وغيرهم؛ من المنافسين والطامعين؛ كـ: بني دمر في مورور، وبني عباد بإشبيلية؛ وبني حمود بمالقة، وبني الأفطس ببطليوس.

وجملة القول فقد جاءت نهاية الدولة البرزالية؛ كما تحل نهاية أي كيان اعتمد في حياته على المغامرات، والفتن، والمؤامرات. وهكذا انتهت بعد حروب ومعاناة وتقلبات. هذا وقد اندثرت تلك الإمارة دون أن تخلف وراءها أية مآثر حضارية تذكر؛ ولم تترك من التراث الثقافي ما يمكن نقله أو الحديث عنه. وعلى الرغم من وجود هذه الإمارة في بيئة تزخر بالمآثر الثقافية، والإنجازات الحضارية؛ فقد شحت تربتها من ثمرات الحضارة. لأنها لم تكن سوى إمارة قبلية؛ ذات طابع عسكري بحت. ودامت على ذلك الحال حتى سقطت.

هذا ما أمكن ذكره عن الدول الإباضية؛ بدءا بالدولة الرستمية العظيمة؛ التي كانت متفوقة بقيمها الإنسانية، ومزدهرة

---

[1] يقول ابن الخطيب: ((ولم تزل الحروب بينهم وبين جيرانهم من قبائل بني دمر وكورة مورور. والمعتضد بن عباد؛ إلى أن ضاقت أحوالهم بقرمونة؛ واضطروا؛ فكتب رئيسهم العزيز بن إسحاق؛ في خبر طويل؛ إلى ابن دنون أن يعطيه قرمونة وأنظارها ليتمكن من نكاية عدوه ابن عباد منها؛ على أن يعطيه المأمون بن دنون عوضا في بلاده الجوفية. فاتفقا على ذلك؛ وخرج العزيز بن إسحاق من قرمونة إلى حصن المدور؛ وقبض رجال ابن دنون ما في المدينة)). أعمال الأعلام، ق: 2، ص ص: 237 ـ 238.

[2] العبر، مج: 7، ص: 113.

بعلومها الدينية والدنيوية، ومتقدمة بتسامحها وتفتحها. كما تم التطرق - هنا - إلى بعض الإمارات القبلية الإباضية الصغرى المنضوية تحت مظلة الدولة الرستمية. بالإضافة إلى ذلك تم الحديث عن دولة بني برزال الإباضية بالأندلس. وهكذا.. فما بقي الآن سوى الانتقال إلى موضوع آخر تابع لهذا السياق مع بعض الاختلاف؛ وذلك بالإشارة - في إيجاز - للكيانات الخارجية الأخرى؛ التي لم ترق إلى مستوى الدولة ذات المؤسسات. وإن كانت تشكل شكلا من أشكال الإمارات ذات طابع القبلي حربي.

۞۞۞

أمراء الحرب والثورة من الخوارج

لا بد من الإشارة ـ في هذا المجال؛ ولو باقتضاب ــ إلى الكيانات الصفرية التي ترأسها بعض القادة الصفرية الثائرين؛ منهم: ميسرة المطغري، وخالد بن حميد الهتوري الزناتي، وعكاشة بن أيوب الفزاري، وعبد الواحد بن يزيد الهواري، وأبو قرة اليفرني، وعاصم بن جميل الورفجومي، وثابت بن وزيدون الصنهاجي، وعبد الملك بن سكرديد الصنهاجي؛ وغيرهم. ثم الحديث ـ أيضا ـ عن الكيانات الإباضية برئاسة: عبد الله بن مسعود التجيبي، والحارث بن تليد الحضرمي، وعبد الجبار بن قيس المرادي، وإسماعيل بن زياد النفوسي، وأبي الخطاب عبد الأعلى المعافري، وأبي حاتم الملزوزي وآخرين. بالإضافة إلى الكيان الذي تزعمه أبو يزيد مخلد بن كيداد اليفرني؛ المنحرف عن المذهب الإباضي.

على أنه من الضروري الإفادة بأن تلك الكيانات لا تخرج عن كونها تجمعات قبلية ذات توجهات مذهبية؛ يرأسها بعض الشيوخ والرؤساء؛ الذين توصلوا إلى مرتبة الرئاسة ضمن كتل قبلية ـ بعض الوقت ـ بحكم الحلف المعقود بينها في إطار مذهب معين؛ بغرض مواجهة ولاة القيروان أتباع الخلافة الأموية، ثم العباسية بعدها. وعلى هذا فتلك الكيانات الخارجية؛ لم تكن سوى هياكل ظرفية لأحلاف قبلية أمازيغية؛ انتهجت سبيل المذهب الخارجي. وبذلك لا يمكن وضعها في مصاف الدول؛ ذات المؤسسات الدائمة والمستقرة؛ لأنها ـ كما يبدو ــ لم

تتوصل إلى مرتبة الدولة وشروطها. هذا من جهة، ومن جهة أخرى؛ فلا يمكن اعتبار تلك التجمعات القبلية تجمعات زناتية أو هوارية أو صنهاجية لا غير؛ لأنها كانت تشتمل على خليط متنوع من الانتماءات القبلية؛ وحتى زعماء تلك الأحلاف لم يكونوا ـ بالضرورة ـ من الأمازيغ؛ إذ كان فيهم من هو عربي النسب.

هذا وتعود أسباب ظهور تلك الأحلاف القبلية الثائرة ضد الحكم الأموي؛ إلى الانحرافات التي بدأت تميز سلوك ولاة المغرب. وقد انطلقت البوادر الأولى للثورة خلال ولاية يزيد بن مسلم؛ مولى الحجاج بن يوسف الثقفي وصاحب شرطته؛ الذي كان موصوفا بالظلم والطغيان؛ لذا فقد حاول تقليد سيده، وتطبيق سياسته في بلاد المغرب.[1] إذ أنه كان إلى جانب احتقاره لحراسه من الأمازيغ ـ الذين كانوا؛ كما يقول ابن عبد الحكم: **((من البتر خاصة؛ وليس فيهم من البرانس أحد))**[2] كما حاول أيضا أن يفرض الجزية على السكان الأصليين؛ على الرغم من دخولهم في الإسلام. ونتيجة لسياسته الجائرة؛ ثار عليه حراسه البتر وقتلوه. فلم يجد الخليفة الأموي ـ يزيد بن عبد الملك ـ بدًا من تجاوز الأمر، والسكوت عن الحادث.[3] ونتيجة لذلك

---

[1] قال ابن خلدون في هذا: ((ولما تولى يزيد بن عبد الملك؛ ولى على إفريقية يزيد بن ابي مسلم مولى الحجاج وكاتبه؛ فقدم سنة إحدى ومائة، وأساء السيرة في البربر، ووضع الجزية على من اسلم من أهل الذمة منهم؛ تأسيا بما فعله الحجاج بالعراق؛ فقتله البربر لشهر من ولايته)). العبر. مج: 4. ص: 403.

[2] قال ابن عذاري: ((وفي سنة 102هـ قدم على إفريقية ـ واليا عليها ـ يزيد بن أبي مسلم. وكان ظلوما غشوما. وكان البربر يحرسونه. فقام على المنبر خطيبا؛ فقال: "اني رايت أن ارسم اسم حرسي في أيديهم كما تصنع ملوك الروم بحرسها. فأرسم في يمين الرجل اسمه، وفي يساره ((حرسي))؛ ليعرفوا بذلك بين سائر الناس؛ فإذا وقفوا على أحد؛ اسرع لما أمرت به". فلما سمعوا ذلك منه ـ أعني حرسه ـ اتفقوا على قتله؛ وقالوا: جعلنا بمنزلة النصارى!"؛ فلما خرج من داره إلى المسجد ـ لصلاة الصبح ـ قتلوه في مصلاه)). البيان المغرب، ج: 1. ص: 48. أنظر أيضا فتوح مصر والمغرب لابن عبد الحكم، ص: 289. وتاريخ إفريقية والمغرب للرقيق القيرواني، ص ص: 99 ـ 100.

[3] قال الطبري: ((وكان سبب ذلك أنه كان ـ فيما ذكر ـ عزم أن يسير بهم بسيرة الحجاج ابن يوسف في أهل العراق؛ ممن ردهم الى قراهم ورساتيقهم، ووضع الجزية على رقابهم؛ على نحو ما كانت تؤخذ منهم وهم على كفرهم؛ فلما عزم على ذلك؛ تامروا في إمره؛=

استقام الحال ـ بعض الوقت ـ وانطفأت جذوة الثورة في النفوس. غير أن هذا الهدوء لم يدم طويلا؛ إذ كان بمثابة الهدوء الذي يسبق العاصفة. حيث اندلعت ـــ بعد ذاك ـــ ثورة أمازيغية عظيمة؛ كادت أن تقضي على حكم الأمويين ـ نهائيا ـ في بلاد المغرب. حدث ذلك خلال ولاية عبيد الله بن الحبحاب ـــ الذي ولي على إفريقية سنة 116هـ(734م) ـــ حدث ذلك تبعا لسوء تدبير عامله على طنجة؛ عمر بن عبد الله المرادي؛ الذي اتسم حكمه بالتعسف والتعصب واحتقار السكان من الأمازيغ؛ الأمر الذي أغراه باتخاذ قرار مخالف للشرع؛ إذ فرض الجزية على المسلمين من الأمازيغ؛ مما تسبب في تفجير ما بالنفوس من ضغائن مكبوتة، وضغوط مكتومة؛ فانفلت ما كانت تنطوي عليه صدور سكان المغرب من شحنات مدمرة.[1] ويبدو أن الأوضاع العامة كانت جاهزة للانفجار؛ ولم يبق سوى الشرارة التي ستشعل الفتيل.[2]

=فأجمع رأيهم فيما ذكر على قتله؛ فقتلوه؛ وولوا على أنفسهم الوالي الذي كان عليهم قبل يزيد بن أبي مسلم؛ وهو محمد بن يزيد مولى الأنصار؛ وكان في جيش يزيد ابن أبي مسلم. وكتبوا إلى يزيد بن عبد الملك: "إنا لم نخلع أيدينا من الطاعة؛ ولكن يزيد ابن أبي مسلم سامنا ما لا يرضى [به] الله والمسلمون؛ فقتلناه، وأعدنا عاملك". فكتب إليهم يزيد ابن عبد الملك: "اني لم أرض ما صنع يزيد بن ابي مسلم؛ وأقر محمد بن يزيد على افريقية")). تاريخ الامم والملوك، ج: 8، ص: 167.

[1] وفيه يقول ابن عذاري: ((ثم إن عمر بن عبد الله المرادي ـ عامل طنجة وما والاها ـ اساء السيرة، وتعدى في الصدقات والعشر؛ وأراد تخميس البربر. وزعم أنهم فيء المسلمين؛ وذلك ما لم يرتكبه عامل قبله؛ وإنما كان الولاة يخمسون من لم يجب للإسلام. فكان فعله الذميم هذا سببا لنقض البلاد، ووقوع الفتن العظيمة المؤدية إلى كثير القتل في العباد. نعوذ بالله من الظلم؛ الذي هو وبال على أهله)). البيان المغرب، ج: 1، ص ص: 51 ـ 52. أنظر عن هذا ـ أيضا ـ تاريخ إفريقية والمغرب، ص: 100. والكامل لابن الأثير. ج: 4، ص: 222. والعبر. مج: 4، ص: 405.

[2] وقد أشار ابن خلدون إلى بعض الاسباب التي شحنت النفوس، وأغضبت الناس من ولاة الدولة الاموية؛ إذ قال: ((ولما ولي عبيد الله بن الحبحاب على إفريقية؛ من قبل هشام ابن عبد الملك... استعمل عمر بن عبد الله المرادي على طنجة والمغرب الأقصى، وابنه اسماعيل على السوس وما وراءه. واتصل أمر ولايتهم. وساءت سيرتهم في البربر. ونقموا عليهم أحوالهم. وما كانوا يطالبونهم به من الوصائف البربريات، والأفرية العسلية الالوان. وأنواع طرف المغرب؛ فكانوا يتغالون في جمعهم ذلك وانتحاله. حتى كانت الصرمة من الغنم تستهلك في الذبح؛ لاتخاذ الجلود العسلية من سخالها؛ ولا يوجد فيها=

ونتيجة لهذا فقد دخلت بلاد المغرب عهدا جديدا قاتما؛ سادت فيه الثورات، التي تسببت في تقلص نفوذ الخلافة الأموية، وتراجعه. وأصبحت البلاد ـ منذ ذلك التاريخ ـ مقسمة بين القبائل الأمازيغية المختلفة؛ التي استطاعت ـ في ظل الوضع المتردي ـ الخروج عن نفوذ الدولة الأم؛ وحتى إن قامت بعض الدول والإمارات في تلك الربوع؛ فقد كانت خاضعة لسلطان العصبيات والقبائل المتباينة والمتنافرة بهذه الديار. وهكذا غدت بلاد المغرب مسرحا واسعا ترتع فيه كيانات فوضوية؛ لا هدف لها سوى المكاسب المؤقتة؛ التي تأتي عن طريق المغامرات الجنونية، والفتن المدمرة. وعليه فقد انتشرت ثورات الصفرية بشكل واسع؛ بقيادة بعض الثائرين؛ الذين ترأسوا ما يمكن تسميته ـ مجازا ـ إمارة مثل:

ـ <u>إمارة ميسرة الخفير المطغري الصفري:</u> يعود ظهور ميسرة المطغري في مسرح الأحداث؛ كنتيجة حتمية لما أبداه ولاة الدولة الأموية من نهب وعسف واستهانة بأهل البلاد من المسلمين[1]. فبسبب كل ذلك انطلقت ثورة عارمة في سنة 122هـ(739م) بدءا بطنجة؛ حيث قتل فيها عمر بن عبد الله المرادي؛ العامل الذي عينه ابن الحبحاب فيها؛ ثم انتشر لهيب الثورة ـ بعد ذلك ـ إلى أماكن أخرى في بلاد المغرب. وكانت الفكرة السائدة التي فجرت هذه الثورة مستمدة من عقيدة خارجية، وصفرية بالذات كما يقال.

وانتصب ميسرة المطغري الصفري قائدا للقبائل

=مع ذلك إلا الواحد وما قرب منه. فكثر عيثهم بذلك في أموال البربر وجورهم عليهم)). العبر، مج: 6، ص ص: 239 ـ 240.

[1] قال ابن عذاري: ((وكان السبب في ثورة البربر بالمغرب، وقيام ميسرة؛ أنها أنكرت على عامل ابن الحبحاب سوء سيرته كما ذكرنا. وكان الخلفاء بالمشرق يستحبون طرائف المغرب، ويبعثون فيها إلى عامل إفريقية؛ فيبعثون لهم البربريات السنيات. فلما أفضى الامر الى ابن الحبحاب؛ مناهم بالكثير. وتكلف لهم ـ أو كلفوه ـ أكثر مما كان. فاضطر الى التعسف وسوء السيرة؛ فحينئذ عدت البرابر على عاملهم؛ فقتلوه وثاروا بأجمعهم على ابن الحبحاب)). البيان المغرب، ج: 1، ص: 52.

الأمازيغية الثائرة؛ بل يقال أنه بويع بالخلافة؛ ولكن أنصاره انتفضوا عليه، ثم قتلوه بعد فترة قصيرة؛ ربما حدث له ذلك العزل، ثم القتل؛ بسبب خروجه عن الضوابط المتفق عليها في تسيير شئونهم؛ أو لعجزه وضعف كفاءته الحربية؛ خاصة وأن انسحابه أمام جيش القيروان بالقرب من طنجة؛ دون سبب مقنع؛ قد يجيز ما تعرض له من عزل. أما ما تذكره المصادر التاريخية - دون تفسير أيضا - عن قتل الصفرية لميسرة؛ فربما حدث ذلك بسبب رفضه ترك منصب القيادة. ويبدو أن ضعف موقفه - أيضا - جاء من كون قبيلته مطغرة؛ لم تكن تمثل القوة الرئيسية الضاربة في ذلك الحلف القبلي الصفري. وهذا يتفق مع نظرية ابن خلدون التي فسرها ضمن: "**فصل في أن الرياسة لا تزال في نصابها المخصوص من أهل العصبية**".[1]

- <u>**إمارة خالد بن حميد الهتوري الزناتي الصفري**</u>: وبعد أن قتل ثوار الصفرية قائدهم ميسرة المطغري في سنة 122هـ(739م)؛ أسندوا قيادتهم إلى خالد بن حميد الزناتي؛ الذي ينتمي إلى بطن من زناتة يسمى هتورة. فتولى أمرهم بجدارة واقتدار؛ إذ قادهم في معارك ضد الأمويين؛ برهن فيها على قدرات عسكرية كبيرة. افتتح انتصاراته بالهزيمة التي ألحقها بجيش الأمويين في الموقعة المسماة غزوة الأشراف.[2] وكانت تلك الهزيمة ضربة

---

[1] ويقول فيها: ((أعلم أن كل حي أو بطن من القبائل - وإن كانوا عصابة واحدة لنسبهم العام لهم - ففيهم أيضا عصبيات أخرى لأنساب خاصة هي أشد التحاما من النسب العام لهم... والرياسة فيهم إنما تكون في نصاب واحد منهم؛ ولا تكون في الكل. ولما كانت الرياسة إنما بالغلب؛ وجب أن تكون عصبية ذلك النصاب أقوى من سائر العصائب؛ ليقع الغلب بها وتتم الرياسة لأهلها... ولا تنتقل الا إلى الأقوى من فروعه؛ لما قلناه من سر الغلب؛ لان الاجتماع والعصبية بمثابة المزاج في المتكون والمزاج في المتكون لا يصلح إذا تكافات العناصر؛ فلا بد من غلبة احدها؛ وإلا لم يتم التكوين. فهذا هو سر اشتراط الغلب في العصبية)). المقدمة، ج: 2، ص ص: 598 - 599.

[2] قال ابن الأثير في ذلك: ((ثم التقى خالد بن حميد [الزناتي] - ومعه البربر - خالد بن حبيب [الفهري] - ومعه العرب وعسكر هشام - وكان بينهم قتال شديد صبرت فيه العرب؛ وظهر عليهم كمين من البربر؛ فانهزموا؛ وكره خالد بن حبيب [الفهري] أن ينهزم من البربر؛ فصبروا معه؛ فقتلوا جميعهم؛ وقتل في هذه الوقعة حماة العرب وفرسانها؛ فسميت وقعة الأشراف؛ فانتقضت البلاد، ومرج أمر الناس؛ وبلغ أهل الأندلس الخبر؛ فثاروا=

شديدة المفعول؛ بحيث هزت الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك وأغضبته إلى أبعد الحدود؛ فلم يتمالك نفسه حين قال بعصبية عربية واضحة: ((**والله لأغضبن لهم غضبة عربية، ولأبعثن لهم جيشا أوله عندهم وآخره عندي. ثم لا تركت حصنَ بربري إلا جعلت إلى جانبه خيمة قيسي أو تميمي**)).[1] وهكذا لا تخلو قولته هذه ـ طبعا من عاطفة ونزعة مفعمة برواسب العصبية العربية المعهودة في بني أمية:

وكانت معركة الأشراف إشارة خطيرة لبني أمية؛ كان من المفروض تداركها بعلاج سليم يسمح بلأم الجراح وشفاء النفوس العليلة؛ ولكن غضب الخليفة لم يترك له مجالا لإصلاح ما فسد. وعليه فيمكن اعتبار ردود أفعال الخليفة هشام بمثابة الخطوة الخطيرة؛ التي أدت إلى خروج مناطق كثيرة من بلاد المغرب ـ الأقصى والأوسط ـ عن النفوذ الأموي نهائيا. هذا بالإضافة إلى ما حدث من عصيان في بلاد الأندلس. تلك الديار التي ثار بها ـ أيضا ـ جمع من الأمازيغ ومن العرب كذلك؛ أولئك العرب الذين كانت تتقاذفهم الصراعات القبلية؛ بين يمنية وقيسية. الأمر الذي حال دون أن تتمكن أي عصبية من التغلب على العصبيات والقبائل الأخرى المنتشرة في ربوع الأندلس الواسعة. وهذا يؤكد ما فسره ابن خلدون في الفقرات السابقة؛ التي تتكلم عن ضرورة تغلب أحد العناصر على بقية العناصر لكي يتحقق المزاج في المتكون.[2]

وحتى الجيش الذي بعث به الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك ـ بقيادة كلثوم بن عياض القشيري ـ سنة 123هـ(740م)؛ بهدف تأديب الأمازيغ؛ أضحى ـ في حد ذاته ـ عامل فرقة

=بامير هم عقبة بن الحجاج؛ فعزلوه وولوا عبد الملك بن قطن؛ فاختلطت الأمور على ابن الحبحاب)). الكامل في التاريخ، ج: 4، ص: 223. أنظر أيضا تاريخ إفريقية والمغرب للقيرواني، ص ص: 100 ـ 101.

[1] تاريخ افريقية والمغرب، ص: 111. والكامل في التاريخ، ج: 4، ص: 223. والبيان المغرب، ج: 1، ص: 54.

[2] أنظر المقدمة، ج: 2، ص ص: 598 ـ 599.

لصفوف العرب؛ أكثر من أن يكون عامل وحدة والتحام. إذ بمجرد وصول طليعة ذلك الجيش العربي ـ التي كان على رأسها بلج بن بشر القشيري (ابن عم الوالي الجديد كلثوم بن عياض القشيري) ـ إلى القيروان؛ حتى انقسم الناس بين عرب استوطنوا القيروان من قبل؛ وعرب وفدوا إليها حديثا. فها هو بلج بن بشر يستفز الناس بعنجهيته، وبعصبيته القيسية الحمقاء؛ حين أراد ـ بكل صفاقة وغرور ـ إنزال عساكره في منازل أهل المدينة. حيث تفوه بكلام أغضبهم ـ كما جاء في المصادر ـ فبعثوا شكواهم إلى حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع الفهري؛ الذي كان مرابطا في مواجهة الأمازيغ بتلمسان. فكتب إلى كلثوم بن عياض يقول له: ((**إن ابن عمك السفيه قال كذا وكذا. فارحل بعسكرك عنهم؛ وإلا حولنا أعنة الخيل إليك**)).[1] فسارع كلثوم بن عياض إلى الاعتذار لحبيب؛ وضرب له موعدا في شلف. غير أن كلثوم بن عياض تمادى في سلوكه الخاطئ؛ إذ أن سكوته عن حماقة بلج؛ شجعه على معاودة تهوره؛ حين اشتبك ـ أيضا ـ مع حبيب عند التقائهما بشلف.[2] هذه هي العصبية عندما تصبح قاتلة ومدمرة. إذ انتهى الحال بالعرب إلى هزيمة أفظع من الأولى؛ حيث كان الخلاف بينهم شديدا، والشنآن يقسم صفوفهم؛ فلا يتفقون عل خطة، ولا يجتمعون على رأي

---

[1] البيان المغرب، ج: 1، ص: 54. أنظر أيضا الكامل في التاريخ، ج: 4، ص: 123. والعبر. مج: 4، ص: 406.

[2] وقد أورد ابن عذاري نصا مهما يشرح ما دار بين الطرفين. وهذا النص التاريخي يفسر الحال المزرية؛ التي أضحى عليها العرب في ديار المغرب. فمما قاله: ((فاستخلف كلثوم على القيروان عبد الرحمن بن عقبة الغفاري؛ وسار حتى وصل عسكر حبيب فرفضه، واستهان به؛ وسب بلج بن بشر لحبيب وتنقصه؛ وقال: "هذا الذي يحول أعنة الخيل الينا"؛ فقام إليه عبد الرحمن بن حبيب؛ وقال: "يا بلج! هذا حبيب! فإذا شئت؛ فأعرض له للمقابلة!" وصاح الناس: "السلاح! السلاح!" فمال أهل إفريقية إلى ناحية، ومعهم أهل مصر. ثم سعى بينهم في الصلح. فكان هذا الاختلاف سبب هلاكهم؛ مع سوء رأي كلثوم وبلج)). البيان المغرب، ج: 1، ص ص: 54 ـ 55. أنظر أيضا تاريخ إفريقية والمغرب، ص: 113.

سليم.[1] وكانت النتيجة هي قتل كلثوم وأكثر قادة جيشه وفرسانه؛ بينما فر بلج بن بشر ومن لحق به من أهل الشام إلى سبتة؛ حيث بقي بها محاصرا إلى سنة 124هـ(741م)؛ أين تمكن مع أتباعه من الالتحاق بأرض الأندلس.

وغدا ـ بعد ذاك ـ المغرب كله مسرحا واسعا ترتع فيه مختلف القبائل والفرق الخارجية: من صفرية وإباضية. وقد يعتبر هذا التاريخ؛ هو نهاية العهد الذي كانت فيه الخلافة العربية ـ في الشام ثم بغداد بعدئذ ـ هي السلطة المركزية؛ المهيمنة بنفوذها وسلطانها على تلك الأنحاء؛ إذ غدت ديار المغرب ـ منذئذ ـ أقطارا خارجة عن حكم الخلافة؛ تلك الخلافة التي لم يبق لها سوى ربوع إفريقية بقاعدتها القيروان. وحتى هذه الأخيرة أصبحت في أيدي بعض الولاة المستبدين بالبلاد دونها.

وبهذا أصبح العرب منشغلين بحماية القيروان نفسها؛ ضد هجمات الأمازيغ؛ سواء كانوا من أتباع المذهب الصفري، أو من أصحاب المذهب الإباضي. ولم تعد الغزوات البعيدة تستهويهم؛ بسبب تغلب الخوارج ـ من صفرية وإباضية ـ على تلك المناطق النائية. وهكذا.. فقد أذهلتهم الهزيمة الأخيرة؛ التي لحقت بالجيش العربي؛ وانكشف للناس ما أضحى عليه العرب من ضعف وتفكك بسبب العصبية الهوجاء. كما ظهرت لهم عيوب الوالي الجديد كلثوم بن عياض؛ الذي لا رأي له ولا حكمة. وعليه فقد وجدوا أنفسهم ـ فجأة ـ بدون قائد عام؛ ينسق بين القيادات، ويرعى شئون العامة.

---

[1] شرح ابن الأثير ما جرى بقوله: ((وتقدم إليهم البربر من طنجة؛ فقال لهم حبيب: "اجعلوا الرجالة للرجالة، والخيالة للخيالة؛ فلم يقبلوا منه؛ وتقدم كلثوم بالخيل؛ فقاتله رجالة البربر فهزموه؛ فعاد كلثوم منهزما؛ ووهن الناس ذلك؛ ونشب القتال، وانكشفت خيالة البربر. وثبتت رجالتها؛ واشتد القتال، وكثر البربر عليهم؛ فقتل كلثوم بن عياض. وحبيب بن أبي عبيدة، ووجوه العرب؛ وانهزمت العرب وتفرقوا؛ فمضى أهل الشام إلى الأندلس ومعهم بلج بن بشر. وعبد الرحمن بن حبيب بن أبي عبيدة، وعاد بعضهم إلى القيروان)). الكامل في التاريخ، ج: 4، ص: 223.

- **إمارة عكاشة بن أيوب الفزاري الصفري**: ينتسب هذا الثائر الصفري إلى قبيلة عربية[1] - كما يظهر من اسمه - وهي قبيلة فزارة العدنانية القيسية. وكان في البداية أحد القادة الفرسان في جيش عبيد الله بن الحبحاب؛ إذ قدم معه إلى المغرب؛ ضمن جند الشام.[2] ولكنه انضم - رفقة أخيه - إلى الصفرية، ولا يعرف حتى الآن متى اعتنق مذهبهم؛ هل حدث ذلك بعد وصوله إلى إفريقية؛ أم جاء من المشرق بقناعاته الخارجية. المهم أنه أصبح بسهولة - في ظروف غامضة - قائدا وزعيما لفئة من الثوار الأمازيغ الصفرية. ومع هذا يبدو أنه كان أضعف من بقية الثوار الأمازيغ. وربما رجع السبب إلى ما تفرضه سنن العصبية؛ التي لا يستهويها سوى الانتساب المطلق إليها؛[3] ولما كان عكاشة من المنتسبين إلى العرب فقد قل أنصاره، وضعفت شوكته. غير أن عاملي: الدين والمذهب ساعداه - شيئا ما - في جمع بعض الفئات الزناتية الساخطة على الحكم الأموي. ومع ذلك لا يكفي العامل الديني والمذهبي وحده؛ إذ لا بد من توفر شرط العصبية؛ كما قال ابن خلدون ضمن: "**فصل في أن الدعوة الدينية من غير عصبية لا تتم**".[4] المهم أنه انطلق بثورته في جهات قابس؛ منتهزا فرصة خروج كلثوم ابن عياض بالجند إلى طنجة. وكان كلثوم قد استخلف على القيروان عبد الرحمن بن عقبة الغفاري، وعقد لمسلمة بن سوادة القرشي لواء الحرب فيها. فبدأ عكاشة حركته بإرسال أخيه إلى (صبرة) قصد تعبئة عشائر زناتة - في تلك الجهات - والعمل على التغلب عليها.

---

[1] أخطأ كثير من المؤرخين المحدثين حين نسبوه الى زناتة؛ نظرا لقيادته لجماعة من زناتة.

[2] أنظر تاريخ إفريقية والمغرب للرقيق القيرواني. ص: 114.

[3] يقول ابن خلدون ضمن: "فصل في أن الرياسة على أهل العصبية لا تكون في غير نسبهم ((والساقط في نسبهم بالجملة لا تكون له عصبية فيهم بالنسب؛ إنما هو ملصق لزيق؛ وغاية التعصب له بالولاء والحلف؛ وذلك لا يوجب له غلبا عليهم ألبته)). المقدمة. ج: 2. ص: 599.

[4] انظر المقدمة. ج: 2. ص ص: 638 - 642.

وبالفعل تمكن أخو عكاشة من جمع أعداد كبيرة من الزناتيين؛ الذين حاصر (صبرة) بهم؛ إلا أن عامل طرابلس صفوان بن مالك تفطن للخطر المداهم؛ فسارع إلى الخروج إليه؛ أين تمكن من التغلب عليه؛ وأجبره على الانهزام إلى حيث أخيه في جهات قابس. وكرد فعل غير مدروس خرج مسلمة بن سوادة في جيش من القيروان؛ قصد تأديب عكاشة الفزاري في قابس؛ ولما التقى الجمعان حلت الهزيمة بمسلمة بن سوادة؛ حيث قتل من أتباعه عدد كبير؛ فعاد إلى القيروان منهزما؛ وهناك عزله عبد الرحمن بن عقبة الغفاري، وكلف بدلا منه سعيد بن بجرة الغساني؛ فاختاروا التحصن خلف أسوار القيروان خوفا من عكاشة.[1]

وبقيت الحال ـ بين عكاشة وعمال الدولة الأموية في القيروان وطرابلس ـ متشنجة ومضطربة؛ اضطر فيها عكاشة إلى شن حرب عصابات عليهم ـ انتصر فيها حينا وانهزم حينا أخر ـ ومن نتائجها قتل عبد الرحمن بن عقبة الغفاري؛ الذي وجهه لقتال عكاشة والي إفريقية الجديد حنظلة بن صفوان الكلبي؛ الذي قدم إليها في سنة 124هـ(741م).[2] وكان حنظلة ابن صفوان يختلف كثيرا عن سابقه كلثوم بن عياض؛ حيث اتصف بالحنكة والذكاء والدهاء. وفي خضم هذه الأحداث؛ ظهر ـ في الأفق ـ قائد صفري آخر؛ وهو عبد الواحد بن يزيد الهواري ـ سيأتي الحديث عنه لاحقا ـ حيث اتفق معه عكاشة على التعاون والتنسيق بهدف احتلال القيروان؛ فزحف عكاشة من جنوبها؛ بينما أتاها عبد الواحد من الشمال.

ويبدو أن منافسة خفية كانت بين القائدين الصفريين؛ فعلى الرغم من مظهر التنسيق بينهما؛ إلا أن عكاشة تسرع في زحفه

---

[1] فتوح مصر والمغرب، ص ص: 294 ـ 295.
[2] نفسه، ص: 298.

نحو القيروان قبل وصول عبد الواحد إليها.[1] وقد يكون ذلك تعبيرا عما في نفسه من أطماع؛ أغرته بمحاولة احتلال القيروان قبل وصول حليفه عبد الواحد الهواري. الأمر الذي سيعزز مركزه أمامه. وبالفعل فقد التقى عكاشة مع الوالي الجديد ـ حنظلة بن صفوان ـــ في موضع قريب من القيروان يسمى (القرن)؛ وانتهت المعركة بهزيمة كاسحة لجيش عكاشة؛ الذي فر؛ ولكن أدركه من ساقه أسيرا إلى حنظلة؛ حيث أمر بقتله في سنة 125هـ(742م).[2] وهكذا ارتكب عكاشة خطأ فادحا؛ بمخالفته الخطة التي اتفق عليها مع حليفه عبد الواحد بن يزيد؛ إذ تعجل في القدوم إلى مشارف القيروان؛ قبل أن يصل إليه جيش عبد الواحد؛ الأمر الذي جعل حنظلة بن صفوان يسارع إلى انتهاز الفرصة؛ قبل اجتماع الجيشين عليه؛ فبدأ بالهجوم على عكاشة؛ الذي ظهر لحنظلة أنه يشكل الطرف الضعيف بين خصميه. وهكذا استغل والي القيروان المحنك هذا النصر في رفع معنويات جنوده، وشحذ هممهم؛ استعدادا للمعركة القادمة.

ـ إمارة عبد الواحد بن يزيد الهواري الصفري: كان ظهوره الأول في شرق طرابلس؛ حيث استنجد به عكاشة؛ في قتاله ضد عبد الرحمن بن عقبة. ولما انتصرا في الموقعة التي قتل فيها عبد الرحمن؛ اتفق الاثنان على الذهاب إلى المغرب الأوسط؛ لكي يبحثا عن أنصار جدد، ويحرضا الصفرية فيه على احتلال

---

[1] قال في هذا ابن عبد الحكم: ((ثم مضى عبد الواحد بن يزيد؛ فأخذ تونس واستولى عليها؛ وسلم عليه بالخلافة. ثم تقدم إلى القيروان؛ وانتبذ الفزاري بعسكره ناحية؛ وكلاهما يريد القيروان؛ يتبادران إليها؛ أيهما يسبق صاحبه فيغنم)). فتوح مصر والمغرب، ص ص: 298 ـ 299.

[2] اختلفت رواية ابن عبد الحكم عن روايات: الرقيق القيرواني، وابن الأثير وابن عذاري؛ حيث ذكر ابن عبد الحكم أن أول من التقى به جيش حنظلة هو عبد الواحد؛ ثم توجه بعده إلى عكاشة. بينما يخالفه في ذلك الرقيق وابن الأثير وابن عذاري الذي يقول: ((فرأى حنظلة أن يعجل قتال عكاشة؛ قبل أن يجتمعا عليه. فزحف إليه بجماعة أهل القيروان. فالتقوا بـ(القرن)؛ وكان بينهم قتال شديد. فهزم الله عكاشة ومن معه؛ وقتل من البربر ما لا يحصى كثرة)). البيان المغرب، ج: 1، ص: 58. وتاريخ إفريقية والمغرب، ص: 116. والكامل، ج: 4، ص: 223.

مركز الولاية الأموية بالقيروان. وبالفعل تمكن الاثنان من جمع أعداد كبيرة من المتحمسين للقضاء على الحكم الأموي وإزالته من ديار المغرب. وقبل انطلاق المتحالفين من منطلقهم في ناحية من نواحي الزاب؛ وضعوا خطة محكمة؛ ربما كانت كفيلة بنجاح مسعاهم ـ لو طبقت بدقة ـ إذ تقتضي الخطة أن يزحف جيشان إلى القيروان: الأول بقيادة عكاشة؛ من جهة الجنوب؛ والثاني بقيادة عبد الواحد؛ من الشمال؛ على أن يلتقيا في وقت واحد حول القيروان؛ وبذلك يكونان كماشة تنقض على عدوهما؛ فيعجز عن المقاومة ويسقط فريسة بين أيديهم.

وبالفعل انطلق عكاشة عبر السهول الممتدة جنوب الأوراس؛ في اتجاه تبسة وباجة ثم القيروان. أما عبد الواحد فقد زحف من الشمال؛ عبر المناطق الجبلية[1] الصعبة؛ التي كانت كفيلة بتعطيل حركته؛ كما أنه ـ بسعيه لجمع متطوعين جدد من القبائل الأمازيغية ـ زاد في ثقل حركته وبطء سيره. ولكنه استفاد إذ حقق نجاحات معتبرة؛ عندما التحق به عدد كبير من أبناء تلك القبائل. وقد ـ تمكن في خط سيره ـ من احتلال مدينة باجة؛ أين اشتبك ـ هناك ـ مع جيش القيروان مرات عديدة؛ حالف النصر فيها عبد الواحد. وبعدها انتقل عبد الواحد إلى تونس فدخلها منتصرا. وفي الأخير زحف إلى القيروان؛ حيث وصله خبر هزيمة حليفه عكاشة؛ بعد أن خالف الخطة المتفق عليها؛ إذ انتهز فرصة تعطل عبد الواحد؛ فسولت له نفسه الانفراد باحتلال القيروان؛ الأمر الذي سيساعده على التفوق عليه؛ وبذلك يمكنه تعديل الكفة؛ التي مالت إلى صالح حليفه ومنافسه عبد الواحد؛ بحكم امتلاكه لعامل العصبية الأمازيغية؛ تلك العصبية التي يفتقر إليها عكاشة.

وبعد سماع عبد الواحد بهزيمة عكاشة، والتأكد من مقتله؛ اضطر إلى خوض المعركة بجيشه منفردا. وبالفعل حدثت

---

[1] تاريخ إفريقية والمغرب، ص: 116. والبيان المغرب، ج: 1، ص: 58.

المعركة الكبرى الفاصلة؛ في موضع يبعد عن القيروان بثلاثة أميال تقريبا؛ يسمى (الأصنام). وكانت معركة مهولة؛ حالف النصر فيها حنظلة بن صفوان؛ حيث تمكن جيشه من قتل آلاف من الصفرية؛ بما فيهم عبد الواحد بن يزيد نفسه؛ وذلك في سنة 125هـ(742م).

هذا وتجدر الإشارة أن أهل القيروان تمكنوا من النصر؛ بفضل شعورهم بوحدة المصير، وبفضل المجهودات التي بذلها علماء المدينة؛ حيث كثفوا نشاطهم في الدعوة إلى القتال، وحث الناس على المقاومة، إذ حذروهم من مغبة الفرقة أو التهاون والخذلان؛ كما ذكروهم بما قد يلحق بهم وبنسائهم من طرف الصفرية؛ الذين يستحلون سبي المسلمات، ويجيزون استعباد الأبناء؛ كما يبيحون سفك دماء المسلمين من أطفال وشيوخ. وبالفعل حققت دعوتهم نجاحات كبيرة؛ إذ حميت همم الناس؛ فكسروا أجفان سيوفهم؛ وخرجوا للقتال ومعهم نساؤهم يحرضنهم ويشحذن هممهم. ونتيجة لتلك العوامل النفسية؛ تمكنوا[1] من التغلب على الصفرية؛ وفتكوا بهم فتكا عظيما؛ على الرغم من قلة عددهم؛ وكثرة أعداد أعدائهم.

- **إمارة ثابت بن وازيدون الصنهاجي الصفري:** لا يعرف عن هذا الرجل ما يمكن به تكوين فكرة واضحة عنه؛ إذ يكتنف أخباره غموض كثيف؛ ويبدو أنه كان من أتباع عبد الواحد بن يزيد الهواري الصفري؛ ولم تذكر المصادر التاريخيّة عنه سوى خبر ثورته في باجة، وتغلبه عليها سنة 130هـ(747م)؛ في أيام عبد الرحمن بن حبيب الفهري - الذي عزل حنظلة وافتك منه القيروان - وبعدها صمتت المصادر - نهائيا - عن الحديث في شأن ثابت الصنهاجي هذا؛ ولم تشر إن كان قد فر حيا أم قتل.

- **إمارة عاصم بن جميل الورفجومي الولهاصي الصفري:** لقد ترك هذا الرجل - وأخوه المدعو مكرم - أثرا سيئا في تاريخ

---
[1] تاريخ إفريقية والمغرب، ص: 119 - 122.

إفريقية والمغرب؛ نتيجة للفظائع وللوحشية التي ارتكبها هو وأتباعه من صفرية ورفجومة في القيروان سنة 138هـ(755م). ويقول فيه ابن الأثير: ((**وكان مقدم ورفجومة رجلا اسمه عاصم بن جميل؛ وكان قد ادعى النبوة والكهانة؛ فبدل الدين، وزاد الصلاة، وأسقط ذكر النبي ﷺ من الأذان... ودخل عاصم ومن معه القيروان. فاستحلت ورفجومة المحرمات؛ وسبوا النساء والصبيان؛ وربطوا دوابهم في الجامع وأفسدوا فيه**)).[1]

وذكر ابن خلدون؛ اسم رجل آخر كان بين المرافقين لعاصم بن جميل ـ في زحفه إلى القيروان. وقال أنه: يزيد بن سكوم الولهاصي.

ـ **أمير ولهاصة يزيد بن سكوم الولهاصي النفزاوي**. ولا يوجد ما يفيد عن هذا الرجل؛ سوى ما ذكره ابن خلدون؛ إذ قال أنه كان يرافق رئيس ورفجومة عاصم بن جميل؛ حين غزا القيروان سنة 138هـ.

ـ **إمارة عبد الملك بن أبي الجعد النفزي الصفري**: قدم هذا الرجل مع عاصم بن جميل إلى القيروان أيضا في سنة 138هـ؛ حيث ولاه عليها؛ عند خروجه لمطاردة أعدائه. ولما قتل عاصم أصبح أمر ورفجومة بين يدي عبد الملك بن أبي الجعد؛ فحكم القيروان بيد من نار وحديد؛ وسار على نهج عاصم في العيث والفساد وارتكاب المحرمات. وكانت نهايته بواسطة أبي الخطاب عبد الأعلى الإباضي؛ الذي استاء مما سمعه عن عيث ورفجومة؛ وما قامت به من فساد في القيروان؛ فزحف إليها، حيث تغلب على القيروان، وأخرج ورفجومة منها؛ بعد أن قتل

---

[1] **الكامل في التاريخ، ج: 4، ص: 280. أما القيرواني فيقول: ((ودخلت ورفجومة القيروان؛ فاستحلوا المحارم، وارتكبوا العظائم؛ نزل عاصم ـ بعسكره ـ في الموضع الذي يسمى (مصلى روح) واستخلف على القيروان عبد الملك بن أبي الجعد النفزي... ولما حكمت ورفجومة على القيروان؛ قتلوا من كان بها من قريش، وساموهم العذاب؛ وربطوا دوابهم في المسجد الجامع)). تاريخ إفريقية والمغرب، ص: 141.**

عبد الملك بن الجعد، وفتك بأتباعه؛ من تلك الفئة الباغية سنة 140هـ(757م).

- **إمارة عبد الملك بن سكرديد الصنهاجي الصفري:** هكذا سماه ابن عذاري؛ ولا يعرف عن هذا القائد الصفري؛ سوى أنه كان يقود ألفين من الصفرية؛ خلال حصارهم — ضمن الحلف الصفري الإباضي - لعمر بن حفص بن قبيصة والي إفريقية؛ بمدينة طبنة حاضرة الزاب في سنة 153هـ(770م). غير أن ابن خلدون سماه عبد الله بن سكرديد؛ وقال أنه أحد أمراء الصفرية الصنهاجيين؛ ومن أتباع ثابت بن وازيدون الصنهاجي المذكور آنفا.

- **إمارة أبي قرة بن دوناس اليفرني الصفري:** ينسبه بعضهم إلى مغيلة؛ غير أن المحققين من المؤرخين ينسبونه إلى بني يفرن.[1] وكان أول ظهور لهذا الرجل - في مسرح الأحداث بشكل واضح - أثناء زحف عبد الواحد بن يزيد الهوري إلى القيروان؛ حيث ذكرت الأخبار أن عبد الواحد جعله على رأس مقدمة جيشه.[2] وإن كان - في الحقيقة - من بين زعماء الصفرية؛ المتحالفين في السابق مع ميسرة المطغري؛ إلا أنه لم يلفت نظر المؤرخين. ولما قدم عبد الواحد بن يزيد الهواري — مع عكاشة — إلى المغرب الأوسط طالبين المؤازرة والدعم؛ بغرض الهجوم على القيروان؛ كان أبو قرة هذا من الملبين لدعوتهما. فانضم إلى عبد الواحد؛ حيث تولى أمر مقدمة جيشه.

ولما حلت الهزيمة بالصفرية، وقتل قائدهم عبد الواحد بن يزيد؛ عاد أبو قرة إلى المغرب الأوسط؛ حيث لعب — مرة أخرى — دور المشاغب في سنة 150هـ(767م)؛ خلال ولاية الأغلب بن سالم التميمي على القيروان. إذ عمل على استفزاز الأغلب في جهات طبنة؛ وتظاهر بالانسحاب والتراجع إلى داخل

[1] العبر، مج: 7، ص: 24.
[2] فتوح مصر والمغرب، ص: 299. والبيان المغرب، ج: 1، ص: 58.

البلاد؛ محاولا استدراج الأغلب، وإبعاده عن مركز قيادته في القيروان؛ إلا أن بعض القادة في جيش القيروان؛ تخوفوا من تلك المغامرة؛ وتفرقوا عن الأغلب؛ عائدين إلى القيروان؛ فعاد ـ عند ذلك ـ عما كان قد عزم عليه. وتقول المصادر التاريخية أن أبا قرة بويع بالإمامة ـ أو الخلافة ـ من طرف أنصاره من الصفرية. وقد دامت قيادته عليهم أربعين سنة كما يقال.

كما كانت لأبي قرة بن دوناس ـ بجيشه المقدر بأربعين ألفا ـ مشاركة رئيسية في حصار والي إفريقية عمر بن حفص ابن قبيصة؛ بين جدران حاضرة الزاب طبنة سنة 153هـ(770م)؛ ولكن أخاه أفشل حصار الصفرية والاباضية؛[1] بعد أن استسلم لأطماعه؛ عندما عرض عليه عمر بن حفص ـ بوساطة إسماعيل بن يعقوب المكناسي ـ مبلغا من المال قدر بأربعين ألف درهم؛ على أن يسعى لفك الحصار، وانفضاض جموع الثوار عن طبنة. وبالفعل تمكن من ذلك؛ حينما أغرى قادة جيش أخيه ـ أبي قرة ـ بالعودة إلى ديارهم في جهات تلمسان؛ إذ تقول المصادر أن أبا قرة لم يشعر إلا وجموع جيشه تعمل على الرحيل؛ فاضطر إلى مسايرتهم. وهكذا تكون سلطة رؤساء القبائل؛ التي تفتقد لشروط سلطة ملك الدولة؛ تلك السلطة التي تتطلب حكما قاهرا متغلبا؛ حسبما ذكره ابن خلدون ضمن: "**فصل في أن الغاية التي تجري إليها العصبية هي الملك**".[2]

---

[1] اتفق القيرواني، وابن خلدون على أنه ابن أبي قرة؛ بينما اتفق ابن الأثير وابن عذاري على انه أخوه. أنظر تاريخ إفريقية والمغرب، ص: 143. والعبر، مج: 6، ص: 226. ومج: 7، ص: 25. ثم الكامل في التاريخ، م: 5، ص: 32. والبيان المغرب، ج: 1، ص: 76.

[2] اذ يقول: ((وقدمنا أن الآدميين ـ بالطبيعة الإنسانية ـ يحتاجون في كل اجتماع إلى وازع يزع بعضهم عن بعض؛ فلا بد أن يكون متغلبا عليهم بتلك العصبية؛ وإلا لم تتم قدرته على ذلك. وهذا التغلب هو الملك؛ وهو أمر زائد على الرياسة؛ لأن الرياسة إنما هي سودد وصاحبه متبوع؛ وليس له عليهم قهر في أحكامه؛ ,وأما الملك فهو التغلب والحكم بالقهر. وصاحب العصبية إذا بلغ إلى رتبة طلب ما فوقها؛ فإذا بلغ رتبة السودد والإتباع ووجد السبيل الى التغلب والقهر لا يتركه؛ لأنه مطلوب للنفس. ولا يتم اقتدارها عليه إلا بالعصبية التي يكون بها متبوعا. فالتغلب الملكي غاية للعصبية كما رأيت)). المقدمة. ج: 2. ص 609.

ومع هذا ذكرت المصادر التاريخية ـ أيضا ـ بأن أبا قرة عاد إلى مواصلة الحصار بمن تبقى معه من الأنصار ـ بعد خروج عمر بن حفص من طبنة ـ بهدف ابتزاز عامل عمر بن حفص على طبنة؛ المهنأ بن مخارق بن عفان الطائي؛[1] ولكنه هزم مدحورا. ومنذ تاريخ هذه الموقعة لم تعد جل المصادر التاريخية تذكر أباقرة شيئ؛ ما عدا الإشارة الخاطفة التي ذكرها الطبري؛[2] ـ ثم نقلها عنه ابن عذاري ـ مع ما فيها من خلط. إذ يبدو أنه التبس عليه الأمر؛ وخلط بين ما حدث في حصار طبنة؛ وما يمكن أن يكون حصل في القيروان. لأن أبا قرة ـ كما يبدو ـ قد اضطرته الظروف للعودة إلى نواحي تلمسان؛ بعد حصار طبنة.

ـ <u>إمارة جرير بن مسعود المديوني الصفري:</u>[3] كان ظهوره الأول في سنة 153هـ(770م)؛ أثناء الحصار المضروب على عمر بن حفص بطبنة. ولما انفضت الجيوش المحاصرة لطبنة؛ انضم إلى صفوف أبي حاتم الملزوزي؛ في حربه ضد والي إفريقية بالقيروان. وعلى هذا ظهر من جديد في أيام أبي حاتم الملزوزي الإباضي؛ حيث استعان به هذا الأخير في مطاردة بعض القادة الثائرين ضد الإباضيين المتغلبين على القيروان؛

---

[1] إذ يقول القيرواني: ((فلما بلغ أبو قرة مسير عمر بن حفص؛ أقبل في جمع كثير حتى حصر المهنأ؛ فأرسل إلى أبي قرة يسأله الانصراف عنه؛ فأرسل أبو قرة إليه:"تصيبي منك ومن قبلك أحرار؛ ولكن لا سبيل إلى ترك غنيمة المسلمين". فلما قال له ذلك تحمّلوا عليه؛ فانهزم أبو قرة، واستباحوا عسكره)). تاريخ إفريقية والمغرب، ص: 143.

[2] حين قال: ((وفي هذه السنة [أي سنة 153هـ] قتل عمر بن حفص بن عثمان بن أبي صفرة بإفريقية؛ قتله أبو حاتم الإباضي، وأبو عاد [أبو قادم كما يبدو لأنه لقب أبي حاتم]، ومن كان معهما من البربر؛ وكانوا فيما ذكر ثلاثمائة ألف وخمسين ألفا؛ الخيل منها خمسة وثلاثون ألفا؛ <u>ومعهم أبو قرة الصفري في أربعين ألفا؛ وكان يسلم عليه ـ قبل ذلك ـ بالخلافة أربعين يوما.</u> [ربما قصد أربعين سنة. وهي الفترة الزمنية التي أجمعت المصادر أنها مدة حكمه]])). تاريخ الأمم والملوك، ج: 9، ص: 284.

[3] سماه الرقيق القيرواني: حريز بن مسعود المديوني. تاريخ إفريقية والمغرب، ص: 148. أما ابن الأثير فسماه: مسعود الزناتي الإباضي. الكامل في التاريخ، ج" 5، ص: 32. أما ابن خلدون فسماه جرير بن مسعود؛ العبر. مج: 6، ص: 226. وفي موضع أخر قال: ((وكان من رجالاتهم المذكورين جرير بن مسعود؛ كان أميرا عليهم؛ وكان مع أبي حاتم وأبي قرة في فتنتهم)). العبر، مج: 6، ص ص: 256.

منهم: عمر بن عثمان والمخارق بن غفار الطائي. وكان أولئك الهاربون قد التحقوا بجيجل؛ حيث احتموا ببعض العشائر من كتامة. فانتصروا لهم؛ وتصدوا لجرير بن مسعود الصفري؛ فهزموه وقتلوه في سنة 154هـ(770م).

- <u>إمارة أبو زرجونة الورفجومي الصفري:</u> ظهر في عهد والي إفريقية يزيد بن حاتم بن المهلب؛ حيث ثار مع عشيرته ورفجومة ضد السلطة المركزية؛ فأرسل إليهم يزيد بن حاتم - والي إفريقية - قوة بقيادة ابن مجزأ المهلبي؛ ففشل في مواجهتهم؛ وقتل في المعركة عدد من جند القيروان. فعاود يزيد ابن المهلب - في سنة 156هـ(772م) - إرسال قوة أخرى؛ على رأسها ولده المهلب، ويزيد بن العلاء بن سعيد بن مروان المهلبي؛ فتغلب على ورفجومة واجتثهم، وطارد مقاتليهم في كل جهة.[1] هذا ولم يعرف مصير أبي زرجونة الورفجومي بعد هذه الموقعة.

- <u>إمارة عبد الرزاق الفهري الخارجي الصفري:</u> ظهر هذا الرجل في جبال ويلان بعمالة فاس؛ في العقد الأخير من القرن الثالث للهجرة. وبذلك تكون الصفرية قد حولت ثوراتها وحروبها من إفريقية والقيروان؛ إلى ديار المغرب الأقصى؛ حيث توجد الدولة الإدريسية. ولم تأت المصادر بما يفيد عن هذا الثائر شيئا كافيا؛ أكثر من اسمه المقتضب، ومنطلق ثورته. حيث اكتفت معظم المصادر بالقول عنها: أنها انطلقت من جبل مديونة.[2] ويبدو أن الذي توسع في الحديث عنه - ولو باحتشام - هو على بن عبد الله بن أبي زرع الفاسي؛ حيث ذكر بأن اسمه هو عبد الرزاق الفهري - الأمر الذي يفهم منه أنه ينحدر عن أسرة الفهريين؛ إن لم يكن قد اكتسب هذا الاسم بواسطة الولاء -

---

[1] تاريخ إفريقية والمغرب، ص ص: 161 - 162.

[2] أنظر المغرب، ص: 125. والأنيس المطرب بروض القرطاس، ص ص: 47 - 48. والبيان المغرب، ج: 1، ص: 212. وأعمال الأعلام؛ ق: 3، ص ص: 208 - 209. والعبر. مج: 4، ص: 30.

ثم قال إنه من مدينة وشقة بالأندلس؛ قدم إلى العدوة المغربية؛ حيث ثار في جبال ويلان؛ التي تبعد عن مدينة فاس بمسافة تقدر بمسيرة يوم ونصف يوم. وهناك التحق به عدد كبير من الأمازيغ؛ التابعين لقبائل عديدة؛ منها: مديونة وغياثة وغيرهم. وقام عبد الرزاق هذا ببناء قلعة حصينة في جبل سلا ـ بنواحي مديونة ـ سماها وشقة؛ تيمنا بمدينته في الأندلس.

ويقول ابن زرع أنه اتجه نحو قرية صفراو؛ حيث دخلها، وبايعه فيها الصفرية من الأمازيغ بكاملهم؛ فانطلق بهم جميعا إلى مدينة فاس ـ عاصمة الدولة الإدريسية آنذاك ـ فتصدى له سلطان الدولة الإدريسية علي بن عمر بن إدريس الحسني؛ إذ حدثت بينهم حرب عظيمة؛ انتهت بتغلب عبد الرزاق الخارجي؛ وانهزام علي بن عمر وتقهقره إلى بلاد أوربة. ولما انهزم سلطان الأدارسة تمكن عبد الرزاق من دخول عدوة الأندلسيين من فاس؛ بينما امتنعت عنه عدوة القرويين. وبقي على ذلك إلى أن قدم يحيى بن القاسم بن إدريس الحسني؛ الذي زحف نحو فاس من الريف؛ أين اشتبك مع جيش عبد الرزاق؛ وأخرجه من عدوة الأندلسيين وطرده منها. وهنا توقف ابن أبي زرع عن مواصلة الحديث عن كل ما كان يعرفه عن هذا الثائر الخارجي الصفري. وحتى ابن عذاري فقد تعمد الإشارة إليه بجملتين خاطفتين؛ مع أنه يعترف بأن خبر تلك الحوادث كان طويلا.[1] وكما هو واضح من النص الذي كتبناه؛ لم نتمكن من تحديد تاريخ ظهور عبد الرزاق هذا بدقة؛ نظرا للغموض الذي غلف أحداث تلك الفترة بمدينة فاس.

المهم هنا؛ أنه يمكن اعتبار ثورة عبد الرزاق الصفري؛ هي آخر ثورة هامة لهذه الفئة المتطرفة؛ من الخوارج بإفريقية

---

[1] قال ابن عذاري: ((ثم قام عليه [أي علي بن عمر الحسيني] عبد الرزاق الخارجي الصفري من مديونة؛ فدارت بين علي وعبد الرزاق حروب كثيرة؛ إلى أن هزمه الخارجي)). ((ثم ملك [أي يحيى بن القاسم] بعد ذلك عدوة الأندلسيين؛ وأخرج منها عبد الرزاق؛ في خبر طويل)). البيان المغرب، ج: 1، ص: 212.

وبلاد المغرب: الأوسط والأقصى. حيث لوحظ ـ بعد ذلك ـ انتقال مركز القوة إلى فئة أخرى؛ صنفها المؤرخون السنيون ضمن الخوارج. وتلك الفئة الصاعدة كانت تتشكل من الإباضيين؛ الذين استطاعوا ـ باعتدالهم وثباتهم ـ استقطاب عدد كبير من الأتباع والأنصار؛ المنتمين إلى مختلف القبائل في تلك الجهات. الأمر الذي ساعدهم على تحقيق شروط الاستمرار والدوام؛ بفضل بساطة مذهبهم الديني والسياسي، وبفضل ما يدعوا إليه من مساواة بين الناس كافة؛ سواء كانوا من العرب أو من الأمازيغ أو أجناس أخرى. وعليه فقد أضحت المناطق الجنوبية من إفريقية والمغرب الأوسط؛ مناطق نفوذ للإباضيين؛ حيث خضعت ـ فيما بعد ـ لنفوذ الدولة الإباضية التي قامت بتيهرت؛ نتيجة لثورات الإباضيين المتتالية. وقد تحقق ذلك كله بجهود متواصلة شارك فيها عدد من القادة الإباضيين، ومن رؤسائهم الثوار. وتم ذلك خلال فترة زمنية بدأت بالعقد الثالث من القرن الثاني للهجرة، وحتى سنة 160هـ(776م) سنة قيام الدولة الرستمية.

۞۞۞

ـ **<u>إمارة عبد الله بن مسعود التجيبي الإباضي</u>:** ظهر ـ لأول مرة ـ اسم هذا الرجل في مسرح الأحداث بالمغرب؛ خلال الفترة التي اغتصب فيها عبد الرحمن بن حبيب ولاية القيروان؛ بعد انقلابه على والي إفريقية حنظلة بن صفوان سنة 126هـ(743م). وتم ذلك عندما بايع الإباضيون من قبيلة هوارة بطرابلس عبد الله بن مسعود هذا إماما عليهم؛ ولكن عبد الرحمن بن حبيب لم يمهله طويلا؛ إذ سارع إلى إرسال أخيه إلياس؛ لاجتثاث بوادر الثورة والانفصال. وبالفعل فقد قضى إلياس على تلك الحركة بعنف شديد؛ ثم قبض على عبد الله بن مسعود التجيبي

وقتله. والمعلومات عن شخصية هذا الرجل شحيحة للغاية، وغير كافية تماما. وكل ما يستحق الذكر أن ابن عبد الحكم هو أول من ذكره؛ إذ سماه بهذا الاسم منسوبا إلى تجيب اليمنية؛[1] بينما تجاهل ذكره كل من: القيرواني وابن الأثير وابن عذاري وابن خلدون. وحتى المراجع الإباضية تجنبت الحديث عنه في غالب الأحيان.[2] بينما ذكره علي يحيى معمر في سياق رده على الطاهر الزاوي؛ بما يفهم أنه أمازيغي الأصل.[3] فإن كان عبد الله بن مسعود التجيبي هذا حقيقة أمازيغيا؛ يمكن في هذه الحال اعتباره من بين الذين نسبوا إلى قبيلة تُجيب الحضرموتية اليمنية بواسطة الولاء والالتحاق.

- <u>إمارة الحارث بن تليد الحضرمي الإباضي:</u>[4] أقامه الإباضيون من هوارة في طرابلس إماما عليهم؛ بعد مقتل عبد الله بن مسعود. هذا وقد شاركه في شئون الحكم **عبد الجبار بن قيس المرادي**؛ الذي كان بمثابة الوزير أو القاضي داخل هذا الكيان الإباضي؛ غير أن ابن عبد الحكم جعل عبد الجبار بن قيس المرادي هو الإمام؛ بينما وضع الحارث بن تليد الحضرمي في مرتبة المساعد له. وقد خالفته المراجع الإباضية في هذا الرأي.[5]

---

[1] إذ قال: ((ثم بعث عبد الرحمن أخاه ابن حبيب عاملا على أطرابلس؛ فأخذ عبد الله بن مسعود التُجيبي؛ وكان إباضيا ورئيسا فيهم؛ فضرب عنقه؛ واجتمعت الإباضية بأطرابلس)). فتوح مصر والمغرب، ص: 301.

[2] لم يتكلم عنه أبو زكرياء صاحب كتاب سير الأئمة وأخبارهم. كما تجاهل أمره الدرجيني في طبقات المشائخ بالمغرب، وكذلك سليمان الباروني صاحب كتاب مختصر تاريخ الإباضية؛ بينما اشار إليه بسطحية وغموض محمد علي دبوز.

[3] الاباضية في موكب التاريخ (الحلقة الثانية القسم الأول)، ص: 33.

[4] يكتفي ابن الاثير وابن خلدون باسم مفرد له؛ وهو الحرث بدون الألف بعد الحاء.

[5] إذ يقول: ((وكان على الإباضية ـ حين اجتمعت ـ عبد الجبار بن قيس المرادي؛ ومعه الحارث بن تليد الحضرمي... واستولى عبد الجبار على زناتة وأرضها)). فتوح مصر والمغرب، ص: 301. وفي هذا يقول سليمان الباروني: ((والظاهر أن عبد الجبار هو الإمام والحارث وزيره أو قاضيه)). مختصر تاريخ الإباضية، ص: 33. ويقول علي يحيى معمر معلقا على رأي طاهر الزاوي: ((بويع الحارث بن تليد إماما؛ وعين زميله وصديقه عبد الجبار المرادي قاضيا؛ خلافا لما ضنه الزاوي)). الإباضية في موكب التاريخ، (الحلقة الثانية ـ القسم الاول)، ص: 34. ويؤكد هذا أيضا محمد علي دبوز حين قال: ((وبايعوا=

أما القيرواني وابن الأثير وابن خلدون فيفهم من رواياتهم أن الحارث وعبد الجبار كانا يحكمان الناس حكما جماعيا. ومع هذا فهم يقدمون اسم الحارث على اسم عبد الجبار؛ إذ يكتبون في سياق الحديث: ((**الحارث وعبد الجبار**)).

أما نسبهما فيكتنفه بعض الغموض أيضا؛ لأن كلمتي: حضرمي، ومرادي؛ لا تعنيان ـ بالضرورة ـ الانتساب إلى حضرموت أو لقبيلة مراد اليمنية؛ إذ ربما كانت الكلمتان ترميان إلى الانتماء بالولاء لقبيلة من قبائل حضرموت أو لقبيلة مراد. المهم أن القيرواني يصرح بأنهما من الأمازيغ؛[1] ويسايره في ذلك ابن خلدون الذي يقول أنهما من هوارة.[2] أما سليمان الباروني فيقول: ((**والظاهر أن عبد الجبار هو الإمام والحارث وزيره أو قاضيه. وهما إخوان لأم أو أبنا خالة؛ وقبيلتهما هوارة**)).[3]

ويتفق ـ أيضا ـ القيرواني وابن خلدون حول رواية مقتلهما؛ إذ يقولان أن عبد الرحمن بن حبيب هو الذي قتلهما في سنة 131هـ(748م)؛ دون شرح للكيفية التي تم بها القتل.[4] وهذا الرأي يخالف رواية ابن عبد الحكم الذي يرى أنهما اقتتلا؛ فقتل بعضهما بعضا؛ بعد الفتنة التي نشبت بينهما.[5] أما بعض المراجع الإباضية؛ فتشير إلى دسيسة؛ قد يكون حبكها عبد الرحمن بن حبيب؛ فنجح فيها بتمكنه من قتل الأميرين

=الحارث: فطهر طرابلس من ظلم الملوكيين وجبروتهم. وكان إنشاء هذه الامامة في سنة ثلاثين ومائة. وكان الحارث بن تليد الحضرمي. ووزيره عبد الجبار بن قيس المرادي)).تاريخ المغرب الكبير. ج: 2. ص: 411.

[1] يقول القيرواني: ((وخرج بناحية طرابلس رجلان: يقال لأحدهما عبد الجبار. والاخر الحارث: وهما من البربر: يدينان بدين الخوارج)). تاريخ إفريقية والمغرب. ص: 128.

[2] يقول: ((وثار بطرابلس عبد الجبار والحرث: من هوارة؛ وكانا يدينان برأي الإباضية... ثم زحف اليهم عبد الرحمن بن حبيب سنة إحدى وثلاثين [ومائة] فقتل عبد الجبار والحارث. وأوعب في قتل البربر. واثخن فيهم)). العبر. مج: 6. ص: 223.

[3] مختصر تاريخ الاباضية. ص: 33.

[4] تاريخ افريقية والمغرب. ص ص: 128 ـ 129. والعبر، مج: 6. ص: 223.

[5] يقوا ابن عبد الحكم: ((واستفحل أمر عبد الجبار والحارث؛ ثم اختلف أمرهما؛ وتفاقم ما بينهما: فاقتتلا: فقتل عبد الجبار والحارث جميعا)). فتوح مصر والمغرب، ص: 302. انظر ايضا كتاب سير الائمة واخبارهم. ص: 57. ومختصر تاريخ الإباضية، ص: 33.

غيلة.[1] ويبدو أن هذا الرأي يمكن تأييده؛ خاصة إذا اعتمد على ما أورده ابن عبد الحكم؛ حين ذكر أن عبد الرحمن بن حبيب ارسل مجاهد بن مسلم الهواري إلى قبيلة هوارة؛ لكسب أنصار في القبيلة التي ينتمي إليها؛ طمعا في تحريك سنن العصبية فيهم؛ ولكنه ـ كما يقول ابن عبد الحكم ـ فشل؛ حيث طردته هوارة؛ بعد أن أقام بينهم أشهرا عديدة.

وهنا يمكن التساؤل: ألا يكون قتل الحارث وعبد الجبار حدث بتدبير من مجاهد بن مسلم هذا؟ خاصة إذا أخذ بعين الاعتبار الفشل الذي لحق بحملات عبد الرحمن بن حبيب العسكرية؛ ضد الحارث وعبد الجبار. إذ يقول ابن عبد الحكم أنهما تصديا لقوة يقودها محمد بن مقرون، مرفوقا بعامل طرابلس يزيد بن صفوان، ومجاهد بن مسلم الهواري؛ وكانت النهاية هي مقتل محمد بن مفروق ويزيد بن صفوان؛ بينما انهزم مجاهد مع من بقي معه من الأحياء. ولما أعاد عبد الرحمن الكرة؛ بإرسال عمر بن عثمان؛ انهزم هو أيضا أمامهما في طرابلس. وعاود المحاولة عمر بن عثمان مرفوقا بمجاهد بن مسلم الهواري في دغوغا؛ ولكنهما هزما، وجرح عمر بن عثمان.[2]

ـ <u>إمارة إسماعيل بن زياد النفوسي الإباضي</u>: ذكره ابن عبد الحكم وابن خلدون؛ بينما تجاهل ذكره القيرواني وابن الأثير وابن عذاري. وحتى بعض المصادر والمراجع الإباضية أغفلت ـ هي الأخرى ـ أمر هذا الأمير الثائر. لعل سبب ذلك يكمن في

---

[1] اذ يقول محمد علي دبوز: ((وكانت العصابة التي دسها عبد الرحمن بن حبيب في طرابلس: ترقب الحارث وعبد الجبار. وتتحين الفرصة فيهما؛ حتى كانا ذات يوم وحدهما في دار الندوة والحكم؛ والمكان خال؛ فتظاهروا بأنهم من ذوي الحاجات؛ فدخلوا عليهما فقتلوهما؛ ثم ادخلوا في كل واحد منهما سيفا، وجعلوا مقبضه إلى جهة الأخر؛ ليتوهم الناس أنهما تنازعا فتقاتلا؛ فقتل كل منهما صاحبه)). تاريخ المغرب الكبير. ج: 2. ص: 413. وقد أورد الرواية نفسها صاحب كتاب الإباضية في موكب التاريخ، (الحلقة: 2. القسم: 1). ص ص: 46 ـ 47.

[2] أنظر فتوح مصر والمغرب، ص ص: 301 ـ 302.

قصر الفترة الزمنية التي تولى فيها. المهم فقد ولي الإمامة في سنة 132هـ(749م)؛ أي بعد مقتل الحارث وعبد الجبار. ولم يمهله عبد الرحمن بن حبيب؛ حيث زحف نحوه؛ فالتقيا بجهات قابس؛ أين جرت موقعة بين إسماعيل بن زياد النفوسي؛ وجيش القيروان بقيادة شعيب بن عثمان؛[1] وانتهت المعركة بمقتل إسماعيل وهزيمة أنصاره الإباضيين. كان ذلك في سنة 132هـ؛ حيث لم تتجاوز فترة حكم إسماعيل بن زياد النفوسي أشهرا قليلة. وبعد ذلك تحول عبد الرحمن بن حبيب نحو سكان طرابلس؛ ففتك بهم، وسلط عليهم آلة القتل والانتقام بشكل فظيع.[2]

ـ إمارة أبي الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري الإباضي:

ينسب هذا الرجل إلى قبيلة معافر الكهلانية اليمنية. نشأ في المشرق وكان من دعاة الإباضية بالشام قبل مجيئه إلى المغرب.[3] وقد كان من بين طلبة العلم الخمسة؛ الذين بعثوا في سنة 132هـ(749م)؛ من طرف الإباضيين في بلاد المغرب؛ بغرض تلقي العلم في البصرة؛ على يد شيخ الإباضية في المشرق أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة.[4] ولما عادوا في سنة 139هـ(756م)؛ محملين بعلوم المذهب الإباضي؛ بادروا بإنشاء

---

[1] قال ابن عبد الحكم أن عبد الرحمن بقي في المعسكر ولم يشهد الموقعة. فتوح مصر والمغرب، ص: 302.

[2] وفي ذلك يقول ابن خلدون: ((وثار إسماعيل بن زياد فيمن معه من نفوسة؛ وتغلب على قابس. ثم زحف اليهم عبد الرحمن بن حبيب سنه إحدى وثلاثين؛ فقتل عبد الجبار والحارث، وأوعب في قتل البربر، وأثخن فيهم)). أما القيرواني فتكلم عن فتك عبد الرحمن بالخوارج دون ذكر إسماعيل بن زياد؛ حيث قال: ((وأوعب عبد الرحمن في قتل البربر؛ وامتحن الناس بهم وابتلاهم بقتل الرجال صبرا: يؤتى بالاسير من البربر؛ فيأمر من يتهمه بتحريم دمه بقتله. فابتلى جماعة من الناس؛ فما سلم منهم غير عبد الرحمن ابن زياد بن أنعم: أبى ذلك؛ وعصمه الله منه)). تاريخ إفريقية والمغرب، ص: 129. وقد أشار ابن عذاري لهذه المجزرة؛ بأسلوب القيرواني نفسه، البيان المغرب، ج: 1، ص: 61.

[3] سير الائمة واخبارهم، ص: 57. والفرق الإسلامية لالفرد بل، ص: 170.

[4] طلبة العلم الخمسة هم: أبو الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري، وعبد الرحمن بن رستم الفارسي، وعاصم السدراتي، وإسماعيل بن درار الغدامسي، وأبو داود القبلي النفزاوي.

دولتهم الإباضية؛ حيث بايعوا أبا الخطاب عبد الأعلى إماما على الإباضيين في ديار المغرب. وكان الإعلان عن هذه الدولة في سنة 140هـ(757م)؛ خارج طرابلس ـ في بداية الأمر ـ[1] في موضع غربي طرابلس يقال له (صياد). وقد أشاعوا أنهم ينظرون في خلاف بين جماعتين على قطعة أرض. ويبدو ـ من كلام الرقيق القيرواني وابن الأثير ـ أن منشأ هذه الدولة تم أيام احتلال ورفجومة للقيروان.[2]

وقد تمكن هذا الأمير الإباضي من الاستيلاء على أجزاء كبيرة من إفريقية وبرقة؛ ثم امتد سلطانه جنوبا حتى فزان. وأهم إنجاز حققه لدولته هو احتلال القيروان؛ التي كانت تعتبر بمثابة مركز السلطة العامة، وعاصمة شرعية لبلاد المغرب كله؛ ولو كان ذلك بصورة نظرية؛ وذلك على الرغم مما كان يحدث من تقلص نفوذها بين الحين والآخر. كما أن أبا الخطاب قد اكتسب احتراما وتقديرا عظيمين؛ من قبل المسلمين كافة؛ نتيجة لما قام به من تطهير للقيروان، وما حققه في القضاء على فساد وعيث الصفرية من قبيلة ورفجومة. وقد اشتهر عن أبي الخطاب تدينه وورعه وصلاح حكمه.

ومع هذا لم يهنأ بشيء من الاستقرار والأمن؛ إذ تعرض مرارا عديدة لهجمات العباسيين القادمين من مصر. وكان النصر

---

[1] أنظر كتاب سير الأئمة وأخبارهم، ص: 57. وكتاب طبقات المشائخ بالمغرب، ج:، 1، ص ص: 22 ـ 23. ومختصر تاريخ الإباضية، ص: 33.

[2] وقد كان نص ابن الأثير أكثر وضوحا إذ قال: ((فاتفق أن رجلا من الإباضية دخل القيروان؛ لحاجة له؛ فرأى ناسا من الورفجوميين قد أخذوا امرأة قهرا ـ والناس ينظرون ـ فأدخلوها الجامع. فترك الإباضي حاجته، وقصد أبا الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري فأعلمه ذلك؛ فخرج أبو الخطاب وهو يقول: "بيتك اللهم بيتك"؛ فاجتمع إليه أصحابه من كل مكان، وقصدوا طرابلس الغرب، واجتمع إليه الناس من الإباضية والخوارج وغيرهم. وسير اليهم عبد الملك ـ مقدم ورفجومة ـ جيشا فهزموه، وساروا إلى القيروان؛ فخرجت إليهم ورفجومة واقتتلوا واشتد القتال؛ فانهزم أهل القيروان الذين مع ورفجومة وخذلوهم؛ فتبعهم ورفجومة في الهزيمة، وكثر القتل فيهم؛ وقتل عبد الملك الورفجومي، وتبعهم أبو الخطاب يقتلهم حتى أسرف فيهم؛ وعاد إلى طرابلس؛ واستخلف على القيروان عبد الرحمن بن رستم الفارسي؛ وكان قتل ورفجومة في صفر سنة إحدى وأربعين)). الكامل في التاريخ، ج: 4، ص: 281.

حليفه في كل مرة؛ حتى حلول عام 144هـ(761م)؛ العام الذي اشتبك فيه مع جيش العباسيين بقيادة محمد بن الأشعث الخزاعي. وكانت هذه المعركة هي الفاصلة؛ حيث تمكن ابن الأشعث ـ بفضل خدعة بارعة ـ من إيهام الإباضيين بأنه امتثل لأمر الخليفة العباسي بالعودة إلى مصر؛ فعاد؛ ولكنه بقي على مسافة أيام؛ ثم رجع مسرعا إلى جيش أبي الخطاب؛ الذي تفرق عنه عدد كبير من أنصاره. وكانت المعركة النهائية في صالح العباسيين؛ حيث قتل فيها أمير الإباضيين أبو الخطاب، وانكسر جيشه، وتشتت أنصاره.

حدث ذلك جراء العقلية القبلية البدوية، وتبعا لسلبيات العصبية القبلية المميتة؛ إذ تقول المصادر أن فئة كبيرة من جيش أبي الخطاب تفرقت عنه قبل وصول ابن الأشعث إلى برقة؛ وذلك عندما حل وقت حصاد الزرع؛ إذ فضل هؤلاء المقاتلون حصاد زرعهم على البقاء في الميدان؛ منتظرين موعد المعركة.[1] وثمة فئة أخرى انفضت وانسحبت من الميدان بفعل النعرة الهوجاء والعصبية القبلية؛ وذلك عندما اختلفت قبيلة زناتة مع قبيلة هوارة؛ بسبب قتيل سقط بينهما. فاتهمت زناتة أبا الخطاب بالتحيز لهوارة؛ فانفضوا عنه. ولم يبق مع أبي الخطاب العدد الكافي من المقاتلين؛ كي يتصدى بهم للجيش العباسي؛ فكانت الهزيمة الكبرى التي أسقطت إمارة الإباضيين بطرابلس والقيروان نهائيا.[2] ولما وصل خبر الهزيمة إلى عبد الرحمن بن

---

[1] يقول الدرجيني: ((فلما وصلت عيون أبي الخطاب إليه من عسكر ابن الأشعث تخبره برجوعه ـ وقد اجتمع على أبي الخطاب زهاء تسعين ألفا ـ ابتدرت الناس إلى مواطنهم؛ وذلك في زمان الحصاد؛ فقال لهم أبو الخطاب: يا قوم إن العرب أهل مكر وغدر؛ فلا تتفرقوا عن ملككم؛ حتى تستيقنوا برجوع القوم؛ وغلبت عليه العامة؛ فأذن لهم باللحاق بأهليهم؛ فساروا وتفرقوا عنه)). طبقات علماء المغرب، ج: 1، ص: 33. أنظر ـ أيضا ـ كتاب سير الأئمة وأخبارهم، ص: 68.

[2] شرح ابن الأثير ما جرى بقوله: ((ثم إن جماعة كثيرة من المسودة سيرهم محمد بن الأشعث الخزاعي ـ أمير مصر للمنصور ـ إلى طرابلس؛ لقتال أبي الخطاب؛ وعليهم أبو الاحوص عمر بن الأحوص العجلي؛ فخرج إليهم أبو الخطاب، وقاتلهم وهزمهم سنة اثنين واربعين؛ فعادوا الى مصر؛ واستولى أبو الخطاب على سائر إفريقية. فسير إليه=

رستم ـ وهو بالقيروان ـ سارع إلى الخروج؛ طلبا للنجاة.[1] وقد نتج عن حركته هذه قيام الدولة الإباضية الثانية بالمغرب؛ وهي الدولة الرستمية.

ـ إمارة عاصم السدراتي الإباضي: وهو من بين طلبة العلم الخمسة؛ الذين أرسلهم إباضيو المغرب إلى البصرة؛ لأخذ العلم عن أبي عبيدة مسلم. وقد ذكره ابن عذاري ضمن قادة الجيوش الصفرية والإباضية؛ الذين حاصروا عمر بن حفص في طبنة سنة 153هـ(770م)؛ حيث قال أنه كان يقود زهاء ستة آلاف مقاتل.[2] مع العلم أن بقية المصادر لم تذكره في هذا الحصار. وبهذا يفهم أنه يكون قد انضم إلى صفوف أبي حاتم. ومما يؤكد الالتباس الذي وقع فيه ابن عذاري؛ أن المصادر الإباضية تقول أنه توفي مسموما بقثاء؛ أثناء حصار الإباضيين للقيروان؛ بقيادة أبي الخطاب عبد الأعلى بن السمح في سنة 140هـ(757م). فإذا كان ما ذكرته تلك المصادر صحيحا؛ فكيف ـ إذن ـ يكون من

=المنصور محمد بن الاشعث الخزاعي اميرا على إفريقية؛ فسار من مصر سنة ثلاث واربعين: فوصل اليها في خمسين ألفا؛ ووجه معه الاغلب بن سالم التميمي. وبلغ أبا الخطاب مسيره؛ فجمع أصحابه من كل ناحية؛ فكثر جمعه وخافه ابن الأشعث لكثرة جموعه؛ فتنازعت زناتة وهوارة بسبب قتيل من زناتة؛ فاتهمت زناتة أبا الخطاب بالميل إليهم؛ ففارقه جماعة منهم؛ فقوي جنان ابن الأشعث، وسار سيرا رويدا؛ ثم أظهر ان المنصور قد أمره بالعود، وعاد إلى ورائه ثلاثة أيام سيرا بطيئا؛ فوصلت عيون أبي الخطاب؛ وأخبرته بعوده؛ فتفرق عنه كثير من أصحابه. وأمن الباقون؛ فعاد ابن الأشعث وشجعان عسكره مجدا؛ فصبح أبا الخطاب وهو غير متأهب للحرب؛ فوضعوا السيف في الخوارج؛ واشتد القتال؛ فقتل أبو الخطاب وعامة أصحابه في صفر سنة أربع وأربعين ومائة)). الكامل في التاريخ، ج: 4، ص: 281. ويتفق ابن عذاري مع ابن الأثير في هذه الرواية، انظر البيان المغرب، ج: 1، ص ص: 71 ـ 73.

[1] تقول رواية أخرى لبعض الإباضيين؛ أن عبد الرحمن بن رستم عندما سمع بقدوم ابن الاشعث؛ خرج في قوة عسكرية لدعم أبي الخطاب؛ ولما وصل إلى قابس علم بمقتل أبي الخطاب وهزيمة جيشه؛ فافترقت عنه القوة التي جاءت معه؛ فقرر العودة إلى القيروان؛ ولكنه فوجئ بثورة أهل القيروان عليه؛ فخرج منها خائفا مع ابنه عبد الوهاب وعبد لهما. أنظر كتاب سير الأئمة وأخبارهم، ص: 70. وطبقات علماء المغرب، ج: 1، ص: 35.

[2] البيان المغرب، ج: 1، ص: 75.

بين قادة الإباضية الذين حاصروا عمر بن حفص سنة 153هـ(770م)؟[1]

ـ **إمارة أبي هريرة الزناتي الإباضي:** هكذا ورد اسمه دون تفصيل. ويبدو أنه كان زعيما لبطن من بطون زناتة في جهات طرابلس؛ ولما قتل أبي الخطاب؛ انتهز غفلة من ابن الأشعث؛ وهجم عليه؛ في ستة عشر ألفا؛ ولكن ابن الأشعث تدارك الأمر؛ وتمكن من صد هذه القوة، وقتل قائدها أبي هريرة الزناتي. وتم ذلك في السنة التي قتل فيها أبي الخطاب؛ وهي سنة 144هـ(761م). والذي يلفت النظر ـ هنا ـ أن المصادر الإباضية أغفلت ذكر أخبار أبي هريرة؛ ولم يشر إليه سوى محمد على دبوز في جملة مقتضبة.[2] وكذلك الحال بالنسبة للمؤرخين السنيين؛ إذ تجاهل ذكره أكثرهم؛ ولم يتكلم عنه سوى: ابن الأثير، وابن عذاري؛ في جملة قصيرة أيضا.[3]وقد يكون هذا القائد من بين الزناتيين الذين انسحبوا غاضبين على أبي الخطاب من قبل؛ ولما سمعوا بهجوم أبي الأشعث عادوا إلى المعركة؛ فوجدوا أن المبادرة خرجت من أيديهم.

ـ **إمارة عبد الله بن حيان الزويلي الإباضي:** وهو ـ كما يبدو ـ هواري النسب. وكان في زمن أبي الخطاب رئيسا في زويلة؛ فبعث ابن الأشعث جيشا إلى تلك الجهات سنة 145هـ(762م)؛ حيث افتتح ودان وزويلة؛ أين قتل من بهما من الإباضيين؛ ومن جملتهم عبد الله بن حيان هذا.

---

[1] قال ابو زكرياء يحيى بن أبي بكر: ((ثم إن عاصما السدراتي مرض مرضا شديدا؛ وكان من خيار العسكر؛ وهو أحد الخمسة الحملة للعلم؛ وأشد شوكة على أهل القيروان. فسمع أهل القيروان بمرضه؛ وأنه اشتهى قثاة؛ فبعث أهل القيروان رجلا بياعا يبيع القثاء؛ فسموا منها قثاة، وأمروه أن لا يبيعها إلا لعاصم السدراتي... واشترى لعاصم أصحابه القثاة المسمومة وأتوه بها فأكلها؛ فقطعه السم فمات،؛ وهرب البياع حين باعها لهم)). كتاب سير الأئمة وأخبارهم. ص: 62.

[2] تاريخ المغرب الكبير، ج: 3، ص: 19.

[3] الكامل في التاريخ، ج: 4، ص: 281. والبيان المغرب، ج: 1، ص: 72.

ـ **إمارة المسور بن هانئ الزناتي الإباضي**[1]: ذكره بعض المؤرخين ضمن جيوش الصفرية والإباضية؛ الذين كانوا، محاصرين لعمر بن حفص بطبنة في سنة 153هـ(770م)؛ إذ قالوا أنه كان يقود عشرة آلاف مقاتل من زناتة؛ قدموا معه من شمال تيهرت. وما عدا هذا؛ لا يوجد ما يمكن إضافته من أخباره.

ـ **إمارة أبي حاتم يعقوب بن حبيب بن مُدين بن يطوفت الملزوزي المغيلي المعروف بأبي قادم**:[2]هكذا سماه ابن خلدون؛ إذ نسبه إلى قبيلة ملزوزة المنحدرة عن قبيلة مغيلة. أما المصادر الأخرى فقد اكتفت بالقليل عند سرد اسمه؛ على أن بعضهم ينسبه ـ بالولاء ـ إلى قبيلة كندة العربية.[3] ويقول محمد علي دبوز أن أباه ـ أو أحد أجداده ـ انتقل إلى طرابلس؛ فانتسب إلى قبيلة هوارة بالالتحاق. المهم أن بعض الآراء تقول أن أبا حاتم هذا تولى أمر الإباضيين في سنة 145هـ(762م).[4] أي بعد فترة من مقتل أبي الخطاب. إذ كان يجمع الصدقات، ويبعث بها إلى عبد الرحمن بن رستم؛ قبل أن يتولى ولاية الظهور؛ أي الولاية المعلنة للملأ. وهذا يبعث على الاعتقاد أنه قد ولي أمر الإباضيين سرا في سنة 151هـ(768م) أو قبلها.

هذا وقد سمى أبو زكرياء ولاية أبي حاتم بولاية الدفاع. وذكر أنه بويع خارج طرابلس؛ بالطريقة السرية ذاتها؛ التي

---

[1] سماه ابن عذاري: المصور ـ بالصاد ـ الزناتي؛ دون الإشارة إلى مذهبه هل هو صفري أم اباضي. البيان المغرب، ج: 1، ص: 75. أما ابن خلدون فقد سماه المسور ـ بالسين ـ الزناتي؛ ثم ذكر أنه إباضي المذهب. العبر، مج: 4، ص: 413. أما في مج: 4، ص: 226؛ فسماه المسور بن هانئ.

[2] سماه أبو زكرياء يحيى بن أبي بكر: أبا حاتم يعقوب بن لبيب الملزوزي. كتاب سير الأئمة وأخبارهم، ص: 73. أما الدرجيني فسماه: أبا حاتم يعقوب بن لبيب الملزوزي الهواري، ج: 1، ص: 36. أما سليمان الباروني فسماه: أبا حاتم يعقوب بن حبيب، مختصر تاريخ الإباضية، ص: 34.

[3] الكامل في التاريخ، ج: 5، ص: 32. والعبر، مج: 4، ص: 412.

[4] كتاب سير الأئمة وأخبارهم، ص: 73. وفي كتاب طبقات المشائخ بالمغرب: ولي سنة 154هـ. وفي مختصر تاريخ الإباضية في سنة 154هـ.

تمت في بيعة أبي الخطاب من قبل. إذ تظاهروا أنهم مجتمعون من أجل إصلاح بين زوج وامرأته؛ بينما هم — في الحقيقة — يأتمرون فيما بينهم لإعلان الإمامة، والبيعة للإمام. ولكن عيون عامل طرابلس كشفت أمرهم؛ فحاول إفساد ما اجتمعوا عليه؛ عندها لم يجدوا أمامهم بدا من إعلان العصيان؛ وانطلقوا إلى طرابلس فاحتلوها وقتلوا من بها من الجند. ثم أمر أبو حاتم أتباعه بالزحف نحو إفريقية؛ وفي الطريق التقوا بجيش القيروان؛ زاحفا في اتجاههم؛ فاشتبكوا معه وهزموه.

وحسب ما يبدو فهذا الأمر يكون قد تم بعد سنوات من التاريخ الذي اتفق فيه الإباضيون على إمامة أبي حاتم. لأن ظهوره بشكل علني ربما حدث في سنة 153هـ(770م)؛ وهي السنة التي تحرك فيها لحصار القيروان؛ منتهزا فرصة غياب الجند عنها؛ أي عندما لاحظ أنهم خرجوا مع والي إفريقية عمر ابن حفص؛ بهدف بناء وتحصين عاصمة الزاب طبنة. ويظهر أن الفترة الزمنية الفاصلة بين مقتل أبي الخطاب، ومقتل أبي حاتم يكتنفها غموض كثيف. وهذا ما جعل المؤرخين يخلطون في السنوات التي تؤرخ للأحداث. وقد اعترف ابن عذاري بالخلل الحاصل في التحقق من الأحداث.[1]

والواقع أن الفترة الممتدة من 144هـ(761م) إلى 154هـ(770م)؛ كلها تحمل أخبارا مضطربة ومتناقضة. فهذا على سبيل المثال صاحب كتاب سير الأئمة وأخبارهم — حين تكلم عن بدء ولاية أبي حاتم ـ يقول أنها تمت في رجب من سنة 145هـ(762م)؛ ثم يضيف أن أبا حاتم بقي في طرابلس أربع سنين؛ وبعدها سكت عن ذكر التواريخ؛ حتى أن مقتل أبي حاتم لم يذكر تاريخه. أما صاحب كتاب طبقات المشائخ

[1] إذ قال: ((ولم يعط الحال تفصيل هذه السنين من سنة 151 إلى 153 بعدها سنة سنة: فاجملت أمرها هنا إجمالا مختصرا؛ يغني عن إعادتها في كل واحدة منها)). البيان المغرب. ج: 1، ص: 76.

بالمغرب فقد اختلف مع أبي زكرياء في تاريخ بدء الولاية؛ الذي قال أنها تمت في رجب من سنة 154هـ(770م). أما باقي الأخبار فيبدو أنه نقلها عنه؛ دون إضافة شيء جديد. أما سليمان الباروني فيجعل تاريخ بدء الولاية في سنة 154هـ؛ ثم يحدد وفاة أبي حاتم بسنة 155هـ(771م). ولكنه يعود فيشكك في صحة ما أورده.[1] ومع هذا يمكن اعتبار إعلان خبر ولاية أبي حاتم، وخروجه من العمل السري؛ قد تم في سنة 153هـ(770م)؛ وهي السنة التي استفحل فيها أمره. حيث ذكرت المصادر خبر مشاركته مع الإباضيين والصفريين؛ في حصار عمر بن حفص بطبنة في هذه السنة بالذات. وإن كان بعض المؤرخين يخلطون ـ أيضا ـ في السنة التي حدث فيها الحصار. حيث يقرون ببدء ولاية عمر بن حفص لإفريقية في سنة 151هـ(768م)؛ ثم يذكرون أنه تمتع بفترة من السكينة والهدوء؛ تقدر بثلاث سنين؛ ظل فيها في القيروان لا يبرحها؛ ومن جهة أخرى يجعلون تاريخ حصاره بطبنة سنة 151هـ(768م).[2] فكيف يكون ذلك؟

وجملة القول هي أن أبا حاتم هذا تولى شئون الإباضيين بمرتبة إمام عليهم؛ في الوقت الذي بايعت فيه الصفرية أبا قرة خليفة عليهم ببلاد المغرب. ويبدو أنهما كانا يتنافسان على قيادة الفرق المصنفة ضمن المذهب الخارجي؛ وهذا ما يمكن ملاحظته من خلال تصرفهما؛ حينما التقيا في حلف واحد؛ غير متجانس على أبواب طبنة. ويبدو أن أبا حاتم تمكن من حصار القيروان

---

[1] إذ يضيف: ((فتكون مدة إمامته سنة واحدة فقط. والظاهر أن الواقع غير هذا؛ بل الصحيح لا بد أن تكون مدته أكثر من السنة والسنتين بكثير جدا؛ لأن التاريخ يحدثنا أنه بقي محاصرا لمدينة القيروان وحدها نحوا من سنة أو سنتين؛ فكيف يتصور هذا؛ مع أن المورخين فضلا ـ عن ذلك ـ ذكروا له وقائع عديدة شرقا وغربا وشمالا؛ كان له النصر فيها حليفا؛ وذكروا أن عساكره كانت تعد بمئات الألوف من المشاة، وعشرات الالوف من الفرسان. ولا يخفى ان حشد مثل هذه الجحافل وتحويلها ونقل معداتها ـ من مكان إلى مكان بعيد عنه بمراحل واسابيع ليس بالامر السهل الهين في ذلك الوقت المفقودة فيه وسائل النقل السريعة)).

[2] أنظر الكامل في التاريخ، ج: 5، ص ص: 31 ـ 33. والبيان المغرب، ج: 1، ص ص: 75 ـ 78. والعبر، مج: 4، ص ص: 412 ـ 413. ومج: 6، ص: 226.

مدة تجاوزت السنة.[1] وفي الأخير تحقق له اجتياح عاصمة ولاية إفريقية العباسية، وإلحاقها بطرابلس. إلا أن الأمر لم يطل به كثيرا؛ حيث قدم يزيد بن حاتم المهلبي من المشرق؛ فأعاد السيطرة على القيروان وإفريقية كلها؛ بعد أن قتل أبا حاتم، وهزم جيشه، وفرق شمل الإباضيين. وتم ذلك حسبما ذكرت بعض المصادر في سنة 154هـ(770م).

ـ <u>إمارة أبو يحيى بن قرياس الهواري الإباضي:</u> ذكره ابن عذاري بهذا الاسم؛[2] حين نسب إليه الثورة التي يكون قد قام بها في طرابلس سنة 156هـ(772م)؛ في عهد يزيد بن حاتم؛ فتصدى له عبد الله بن السمط الكندي؛ قائد طرابلس من طرف يزيد بن حاتم؛ فهزم الإباضيين وفرق جمعهم. ولكن ابن عذاري

---

[1] ذكرت مصادر عديدة خبر حصار أبي حاتم للقيروان؛ وأهم خبر هو ما ذكره ابن الأثير؛ حين قال: ((فقدم القيروان [أي عمر بن حفص] في صفر سنة إحدى وخمسين ومائة في خمسمائة فارس؛ فاجتمع وجوه البلد؛ فوصلهم وأحسن إليهم. وأقام والأمور مستقيمة ثلاث سنين؛ فسار إلى الزاب لبناء مدينة طبنة؛ بأمر المنصور؛ واستخلف على القيروان حبيب ابن حبيب المهلبي؛ فخلت إفريقية من الجند؛ فثار بها البربر؛ فخرج إليهم حبيب فقتل. واجتمع البربر بطرابلس، وولوا عليهم أبا حاتم الإباضي ـ واسمه يعقوب بن حبيب مولى كندة ـ وكان عامل عمر على طرابلس الجنيد بن بشار الأسادي؛ وكتب إلى عمر يستمده فأمده بعسكر؛ فالتقوا وقاتلوا أبا حاتم الإباضي فهزمهم؛ فساروا إلى قابس؛ وحصرهم أبو حاتم ـ وعمر مقيم بالزاب على عمارة طبنة ـ وانتفضت إفريقية من كل ناحية. ومضوا إلى طبنة فأحاطوا بها في اثني عشر عسكرا؛ منهم أبو قرة الصفري في أربعين ألفا، وعبد الرحمن بن رستم في خمسة عشر ألفا، وأبو حاتم في عسكر كثير... فلما سارت الصفرية... فضعف أمر الإباضية عن مقاومة عمر؛ فساروا عن طبنة إلى القيروان؛ فحصرها أبو حاتم وعمر بطبنة يصلح أمورها، ويحفظها ممن يجاوره من الخوارج. فلما علم ضيق الحال بالقيروان سار إليها... وأما أبو حاتم فإنه لما حصر القيروان كثر جمعه، ولازم حصارها وليس في بيت مالها دينار ولا في أهرالها شيء من الطعام؛ فدام الحصار ثمانية اشهر... حتى جهدهم الجوع، وأكلوا دوابهم وكلابهم؛ ولحق كثير من أهلها بالبربر؛ ولم يبق غير دخول الخوارج إليها. فأتاهم الخبر بوصول عمر ابن حفص من طبنة؛ فنزل الهريش وهو في سبعمائة فارس؛ فزحف الخوارج إليه بأجمعهم وتركوا القيروان؛ فلما فارقوها سار عمر إلى تونس؛ فتبعه البربر؛ فعاد إلى القيروان مجدا، وأدخل إليها ما يحتاج من طعام ودواب وحطب وغير ذلك. ووصل أبو حاتم والبربر إليه؛ فحصروه؛ فطال الحصار حتى أكلوا دوابهم... فلما ضاق الأمر بعمر وبمن معه... وخرج وقاتل فقتل منتصف ذي الحجة سنة أربع وخمسين ومائة)). الكامل في التاريخ، ج: 5، ص ص: 31 ـ 32.

[2] البيان المغرب، ج: 1، ص: 79. أما ابن الأثير فسماه: أبا يحيى فانوس الهواري، الكامل في التاريخ، ج: 5، ص: 40.

سكت عن الحديث في مصير هذا الثائر الإباضي؛ ولم يذكر إن كان قتل أم لا. وحتى ابن الأثير لم يشر إلى مصيره النهائي.

ـ <u>إمارة صالح بن نصير النفزي الإباضي:</u>[1] وكان من رؤساء نفزاوة الإباضيين؛ إذ ثار مع قبيلته سنة 161هـ(777م) على والي إفريقية بالقيروان؛ داود بن يزيد بن حاتم ـ في حياة والده يزيد الذي أقعده المرض ـ فأرسل داود إليهم قوة لتأديبهم؛ بقيادة سليمان بن الصمة بن يزيد بن حبيب بن المهلب؛ في عشرة آلاف من الجند؛ ففتك بهم، وفرق جمعهم؛ غير أن صالح بن نصير ـ كما يبدو ـ استطاع الإفلات؛[2] ولم يعرف مصيره بعدئذ.

ـ <u>إمارة أيوب الهواري:</u> أورد خبره ـ باقتضاب شديد ـ ابن الأثير ؛ إذ قال أنه ثار مع قبيلة ورفجومة في الزاب سنة 164هـ(780م)؛ خلال عهد يزيد بن حاتم؛ الذي سير إليهم عسكرا كثيرا؛ بقيادة يزيد بن مجزأ المهلبي؛ حيث قتل في تلك الأحداث، وانهزم جيشه؛ كما قتل فيها أيضا المخارق عامل الزاب. فاسند يزيد بن المهلب القيادة إلى العلا بن سعيد المهلبي؛ فتمكن من دحر ورفجومة واستلحمهم؛ حيث تتبعهم في كل مكان؛ حتى قضى عليهم[3]. ولم يذكر ابن الأثير مذهب هذا الرجل؛ هل هو صفري أم إباضي.؟ وكالعادة بقي مصير هذا القائد الثائر غير معروف.

وخلاصة القول ـ هنا ـ أنه حصل ـ كما يبدو ـ بعض الإلتباس؛ إذ أورد هذه الرواية ـ الرقيق القيرواني ـ الذي نسب أفعالها إلى ثائر صفري يسمى أبا زرجونة الورفجومي؛ على أن الأحداث وقعت في سنة 156هـ(772م).[4] ولا يعرف إن كانت

---

[1] سماه ابن عذاري: نصير بن صالح الإباضي. البيان المغرب، ج: 1، ص: 83.

[2] أنظر تاريخ إفريقية والمغرب، ص: 169. والعبر مج: 6، ص: 228.

[3] الكامل في التاريخ، ج: 5، ص: 33.

[4] تاريخ إفريقية والمغرب، ص ص: 161 ـ 162.

ثورة أبي أيوب ـ هذه ـ هي ثورة أبي زرجونة نفسه؛ أم يتعلق الأمر بثورتين مختلفتين؛ قادهما شخصان متباينان.

وبحلول الربع الأخير من القرن الثاني للهجرة؛ أصبح الوضع السياسي في بلاد المغرب غير ما كان عليه في السابق. حيث شهدت هذه الربوع بعض التحولات الجوهرية؛ صبغت ثورات الخوارج ضد حكم العباسيين بالمغرب؛ بمفاهيم جديدة أعطت شرعية لشكل من أشكال الاستقلال للخوارج؛ حيث قامت دولة للصفرية في أقصى المغرب، ودولة للإباضية في المغرب الأوسط. (بالإضافة إلى دولة برغواطة المنحرفة). وعليه فلم يبق للخلافة في بغداد إلا القليل القليل؛ المتمثل في الدعاء على المنابر؛ لحفظ ماء الوجه لا غير. ومنذ هذا التاريخ أصبحت المواجهات المسلحة تتم بين دول خارجية في هذه الديار، وبين ولاية إفريقية في القيروان؛ التابعة شكليا إلى الخلافة العباسية ببغداد.

ولما سقطت الدول التي كانت سائدة في بلاد المغرب مثل: الدولة الأغلبية السنية في القيروان، والدولة السنية الإدريسية بفاس، والدولة الرستمية الإباضية في تيهرت، والدولة المدرارية الصفرية بسجلماسة. وبعد أن التهمت تلك الدول كلها دولة جديدة صاعدة؛ تتمثل في الدولة الشيعية الفاطمية؛ لم يجد الخوارج أمامهم سوى الثورة ـ من جديد ـ في ظل قيادة ثائرة أخرى؛ يمكنها أن تحقق آمالهم؛ في عودة دولتهم الخارجية وبروزها إلى الوجود. وهكذا ظهر رجل خارجي؛ في ثورة أقلقت الدولة الشيعية وزعزعت أركانها.

۞۞۞

<u>ـ إمارة أبي يزيد مخلد بن كيداد اليفرني الزناتي الملقب بصاحب الحمار:</u> ظهر هذا الرجل في بلاد قسطيلية بالنواحي

الجنوبية من إفريقية؛ بعد سقوط الدولة الرستمية الإباضية؛ وبعد أن التهمها الفاطميون. وتتلمذ هذا الثائر الخارجي - في صغره ببلاد قسطيلية - على بعض النكارية؛ منهم عبد الحميد بن عبد الله الحميدي الحجري؛ الملقب بأبي عمار الأعمى؛ الذي قال عنه محمد الصنهاجي أنه كان مقدما في الإباضية، وقال فيه ابن خلدون أنه رأس النكارية.[1] كما تذكر مصادر الإباضيين أنه درس على بعض العلماء في سجلماسة. ونظرا لفقر أبي يزيد، وشدة حاجته؛ فقد عمل في تعليم القرآن للصبيان؛ فكانت فرصة له؛ كي يبث فيهم مذهب النكارية.

وتقول المصادر التاريخية أنه ذهب إلى الحج، وعاد في سنة 325هـ(926م)؛ حيث أخذ - بعد عودته - في التشويش والمشاغبة وتأليب العامة على الحكام. فقبض عليه ابن فركان - مقدم توزر - وأودعه السجن؛ بتهمة ما كان يدعو إليه من تكفير المسلمين، وسبِّ علي كرم الله وجهه؛ وما كان يصرح به من وجوب الخروج عن السلطان. على أن أبا يزيد استطاع التخلص من سجنه؛ إما بتقديم بعض الأعذار؛ كما جاء في قول؛ وإما بالقوة والتمرد؛ حين تمكن من الهرب من سجنه؛ بمساعدة شيخه أبي عمار؛ وجماعة من قبيلة زناتة؛ في قول آخر ذكره ابن خلدون.[2] عندها اتجه أبو يزيد - أولا - إلى وركلا، ثم التجأ - بعد ذلك - إلى جبل أوراس عند عشيرة بني كملان وهم من هوارة؛ وكانوا على مذهبه.[3] ومنها أخذ يتردد مرة على بني برزال جنوب المسيلة، ومرة أخرى على بني زنداك المغراويين. وفي تلك الأثناء أخذ له أبو عمار البيعة من القبائل المنضوية تحت طاعته؛ فتلقب بشيخ المؤمنين.[4]

---

[1] أخبار ملوك بني عبيد، ص: 30. والعبر، مج: 7، ص: 27.
[2] العبر، مج: 7، ص: 27.
[3] أخبار ملوك بني عبيد، ص: 30.
[4] البيان المغرب، ج: 1، ص: 217. والعبر، مج: 7، ص: 28.

ولما أحس بقوة أنصاره وصدق طاعتهم وانصياعهم لأوامره؛ أعلن الثورة على الفاطميين؛ في عهد ثاني ملوكهم أبي القاسم محمد بن عبيد الله. وتمكن ـ في البداية ـ من جمع كتلة قبلية هامة حوله؛ وقد تمكن من تحقيق ذلك نظرا لما كان يظهره ـ في البداية ـ من تدين وورع وانسجام مع المذاهب الأخرى ـ سنية أم خارجية ـ تلك المذاهب المعادية للمذهب الفاطمي.[1] ومن جهة أخرى فقد استغل كراهية فئة عريضة من القبائل والعشائر في بلاد المغرب لحكام الدولة الفاطمية. أضف إلى ذلك كله؛ أن علماء المذاهب السنية ي هذه الديار أشاعوا على الفاطميين صفات كريهة؛ وضعتهم في مصاف المخالفين لشرع الله، واتهمتهم بانتحال البدع والأكاذيب؛ بل اتهمتهم بالكفر أحيانا؛ كما كذبوا رواية انتسابهم إلى فاطمة البتول رضي الله عنها.[2]

وبفضل ذلك كله، وبسبب عوامل أخرى كثيرة؛ تمكن أبو يزيد من استقطاب أهم تجمع قبلي ثائر على الدولة الفاطمية؛ حيث كانت قبائل زناتة فيه هي الركيزة الكبرى ـ بحكم أنها

---

[1] قال ابن عذاري: ((قال ابن سعدون: "فبعث الله على أبي القاسم الشيعي مخلد بن كيداد الخارجي؛ فقهره، وقتل جنده؛ وقام المسلمون معه. وخرج الفقهاء والعباد مع أبي يزيد لحربه ؛ وسماهم ابن سعدون في كتابه رجلا رجلا. "فركبوا معه؛ ونهضوا إلى القيروان؛ فدخلوها في صفر العام، [يقصد عام 332هـ] وأظهر لأهلها خيرا؛ وترحم على أبي بكر وعمر ـ رضي الله عنهما ـ ودعا الناس إلى جهاد الشيعة؛ وأمرهم بقراءة مذهب مالك. فخرج الفقهاء والصلحاء في الأسواق بالصلاة على النبي ﷺ وعلى أصحابه وأزواجه؛ حتى ركزوا بنودهم عند الجامع؛ فلما كان يوم الجمعة؛ اجتمعوا بالمسجد الجامع، وركبوا مع أبي يزيد بالسلاح؛ ومعهم البنود والطبول... فلما اجتمع الناس، وحضر الإمام، وطلع إلى المنبر؛ خطب خطبة أبلغ فيها، وحرض الناس على جهاد الشيعة، وأعلمهم بما لهم فيه من الثواب؛ ثم لعن عبيد الله الشيعي وابنه؛ ثم نزل فخرج، وخرج الناس معه لقتال الشيعة الفجار؛ فلم يزل قاهرا لهم، غالبا عليهم. قاتلا لجنودهم؛ حتى لم يبق لهم من بلاد إفريقية إلا اليسير)). البيان المغرب، ج: 1، ص ص: 217 ـ 218.

[2] أورد ابن عذاري بعض التهم التي وجهت إلى الفاطميين؛ منها نحلة التشريق الإلحادية؛ التي زعم أعداؤهم أنها صدرت عنهم وعن أنصارهم. وأورد أيضا موجزا لما خطه محمد ابن سعدون بن علي في كتابه "تعزية أهل القيروان بما جرى على البلدان؛ من هيجان الفتن، وتقلب الأزمان" وكان هذا الكتاب مشحونا بالتهم والأوصاف الكريهة للفاطميين؛ الذين يسميهم العبيديين؛ وينكر نسبهم للرسول محمد ﷺ . أنظر البيان المغرب، ج: 1، ص ص: 185 . 281 ـ 287.

قبيلته التي انحدر منها أبوه ـ بالإضافة إلى هوارة ــ وهي قبيلة أمه ــ ثم القبائل ذات المعتقد الإباضي مثل: مزاتة ونفزة ونفوسة؛ وقبائل أخرى كانت ساخطة على الحكم الفاطمي. ولكن الإباضيين ما فتئوا ـ بعد فترة ـ حتى اكتشفوا مخالفته للمذهب الإباضي الوهبي؛[1] الذي لا يكفر بقية المسلمين من أهل المذاهب الأخرى، ولا يبيح سفك دمائهم، ولا يسمح بسلب أموالهم وسبي نسائهم وذريتهم. وهذا الأمر كله كان يخالفه أبو يزيد؛ إذ يجيز تكفير أهل الملة، ويستبيح الغنائم والسبي فيهم.[2] وعليه فقد أعتبره الإباضيون الوهبيون نكاريا ومخالفا لمذهبهم.[3] وصنفوه ضمن فئات الخوارج المتطرفين. ومع هذا فقد كان يرى في نفسه الوارث الشرعي للدعوة الإباضية؛ بعد سقوط الدولة

---

[1] أورد أبو زكرياء حوارا دار بين فقيه الإباضية أبي الربيع سليمان بن زرقون النفوسي ورجل من الإباضيين؛ فقال: ((فسأل رجل أبا الربيع؛ فقال له: "ما تقول في النكارة يا شيخ.؟" فقال: "هم كفار")). وقد أورد أبو زكرياء أيضا حوارا دار بين أبي الربيع وأبي يزيد مخلد بن كيداد؛ أثناء جولة لهما في نواحي سجلماسة؛ التي كانا يتعلمان فيها على يد عالم الإباضية ابن الجمع. فمرا ببعض الوهبية؛ فلم يضيفوهما كما تمنيا؛ ومرا بجماعة أخرى من النكارة فأكرموهما وضيفوهما؛ فقال أبو يزيد لأبي الربيع: (("يا أبا الربيع؛ ألا ترى ما بين الرجال والرجال؛ فهل لك في الرجوع بنا إلى مذهب هؤلاء القوم" فقال له أبو الربيع: لست أريد الدنيا؛ ولو كانت مرادي؛ إذاً لنلتها بعلمي". قال: فافترقا؛ فرجع ابو يزيد نكاريا؛ وثبت أبو الربيع على مذهب الحق)). كتاب سير الأئمة وأخبارهم، ص: 195.

[2] أجمعت المصادر التاريخية كلها على سماح أبي يزيد بسفك دماء المسلمين المنتمين لغير مذهبه؛ كما أجمعت على استباحته للمحرمات، وتحريضه على سلب أموال المسلمين، وسبي نسائهم واستعباد أطفالهم. وهذا نص ـ كعينة ـ كتبه أبو زكرياء ـ وهو أحد العلماء الإباضيين ـ يصف فيه أبا يزيد بصفات تضعه في مصاف الكفرة؛ إذ قال: ((ثم إن عدو الله [يقصد أبا يزيد] سار يريد القاسم بالقيروان؛ وكل قرية ومدينة مر بها ـ في طريقه ـ خربها، وسبا ذريتها، وغنم أموالها؛ كفعل نافع بن الازرق وغيره من الخوارج؛ بل قد زاد عليهم وأربى... وذكروا أنه بلغ عدة ما خرب على يده ـ في إفريقية ـ ثلاثون ألف قرية؛ لم تعمر إلى يومنا هذا. وفعل في إفريقية من الفسوق والمعاصي والفجور ما لم يبلغنا مثله عن الفراعنة والأكاسرة والقياصرة والجبابرة... وبلغنا أنه نزل بالساحل؛ فاخذ أهل عسكره صبيتين؛ فجاءته أمهما تشكو إليه؛ فقالت له: "يا شيخ؛ إن العزابة سبوا لي ابنتين؛ وهما حرتان؛ وغصبوهما"؛ فلم يجبها عدو الله بجواب؛ غير أنه قال: "هل في إفريقية حرة". فخافت المرأة على نفسها؛ فهربت ونجت بنفسها)). كتاب سير الأئمة وأخبارهم، ص ص: 180 ـ 182.

[3] أنظر كتاب سير الأئمة وأخبارهم، ص ص: 175 ــ 187. وكتاب طبقات المشائخ بالمغرب، ج: 1، ص ص: 96 ــ 104. فكلها تتبرأ منه، وتخرجه من المذهب الإباضي الوهبي.

الرستمية. لذا فقد حاول استعادة مجد الإباضيين، والنهوض بدولتهم من جديد؛ ولكنه فشل في الأخير.[1] وانتهت حركته بانتهاء حياته؛ إذ قتل مسلوخا، وممثلا به في سنة 335هـ(949م) بالمهدية.

وقد تمكن هذا الثائر الخارجي من زعزعة أركان الدولة الفاطمية ـ بعض الوقت ـ حيث شغلها بالفتن مدة من الزمن؛ وكاد أن يطيح بأركانها ويسقطها نهائيا؛ لولا معاكسة الأقدار له.[2] وقد استند أبو يزيد ـ في بدية أمره ـ إلى روح العصبية الموغلة في نفوس أبناء القبائل الزناتية؛ ذات الطابع البدوي. كما استطاع ـ بواسطة الدعوة الدينية ـ أن يحقق التلاحم بين القبائل السائرة خلفه؛ تبعا للقاعدة التي تنص على تزايد قوة العصبية؛ عندما تعتمد على الدعوة الدينية.[3] غير أنه عجز عن المحافظة على مكتسباته؛ بسبب ما كان يصدر عنه من نزوات؛ لم يتمكن من كبتها.[4] حيث أدى الشك في صدق دعوته إلى نكسة؛ أثرت

---

[1] وهذا ما جعل أبا القاسم بن عبيد الله يقول: ((لقد فتح فيهم [أي في الإباضيين] بابا، إلا أنه لم يحسن السيرة)). كتاب سير الأئمة وأخبارهم؛ ص: 181.

[2] أنظر قصة أبي يزيد في كتاب سير الأئمة وأخبارهم، ص ص: 175 ــ 187. وكتاب أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم، ص ص: 29 ـ 47. وكتاب الكامل في التاريخ، ج: 6، ص ص: 302 ـ 311. وكتاب طبقات المشائخ بالمغرب، ج: 1، ص ص: 96 ــ 104. وكتاب البيان المغرب، ج: 1، ص ص: 216 ــ 220. وكتاب العبر، مج: 7، ص ص: 26 ــ 35. وكتاب اتعاظ الحنفا باخبار الائمة الفاطميين الخلفا، ص ص: 109 ـ 125.

[3] يقول ابن خلدون في هذا: ((إن الصبغة الدينية تذهب بالتنافس والتحاسد الذي في أهل العصبية؛ وتفرد الوجهة إلى الحق. فإذا حصل لهم الاستبصار في أمرهم لم يقف لهم شيء؛ لأن الوجهة واحدة، والمطلوب متساو عندهم؛ وهم مستميتون عليه؛ وأهل الدولة التي هم طالبوها ـ وإن كانوا أضعافهم ـ فأغراضهم متباينة بالباطل؛ وتخاذلهم لتقية الموت حاصل؛ فلا يقاومونهم؛ وإن كانوا أكثر منهم)). المقدمة، ج: 2، ص: 337.

[4] فمما قاله محمد الصنهاجي: ((وكان أبو يزيد في أول أمره يلبس خشن الثياب، ويمسك العصا، ويسمى شيخ المسلمين؛ ثم انتقل عن ذلك، وركب عتاق الخيل، ولبس الديباج؛ وكان يرى الجمع بين الاختين بملك اليمين، ويستبيح نساء المسلمين ممن خالفه، ويسفك الدماء. وكان أصحابه البربر يقتلون كل من ظفروا به من الناس؛ كائنا من كان؛ عيثا وعبثا؛ خاصة من خرج من المهدية عند حصارهم إياها؛ فرارا من الجوع والحصار؛ ويشقون بطونهم أحيانا فتشا عن المال؛ توهما منهم أنهم ابتلعوه)). أخبار ملوك بني عبيد، ص: 31. وقال أيضا ابن خلدون: ((واستخف أبو يزيد بالناس؛ بعد قتل ميسور؛ فلبس الحرير، وركب الفاره؛ ونكر عليه أصحابه ذلك، وكاتبه به رؤساؤهم من البلاد...

على حركته؛ فأخذ العامل الديني يتلاشى؛ بفعل الشكوك التي غزت بعض أنصاره؛ فضعف تماسكهم، وانحلت وحدتهم؛ بفساد العصبية المناصرة له وتفككها[1]، وافتراق القبائل المتحالفة معه؛ حيث عادت إلى سابق عهدها؛ عصبيات عديدة؛ تفرقها الأهواء والأطماع.[2]

وهنا تظهر الحاجة إلى العصبية، والدعوة الدينية معا. فغياب إحداهما؛ يخل باستقرار الأخرى. وهكذا أخمدت ثورة أبي يزيد؛ بواسطة عصبية أقوى من عصبيته؛ كانت هي الأخرى معززة بدعوة دينية تتمتع بفعالية وقدرة على تحقيق أهدافها. وربما عاد سبب فشله ـ في تحقيق هدفه ـ إلى ما لاقاه من خذلان، وتنكر من قبل حلفائه قبائل زناتة؛ وذلك بعد تخليهم عن مناصرته ومساندته؛ في أشد الظروف التي مرت به؛ حيث تركوه فريسة سهلة؛ بين براثن أعدائه. هذه هي العصبية القبلية؛ حين تظهر في زيها السلبي البشع.

فثورة أبي يزيد كانت ـ في الظاهر ـ ثورة خارجية المذهب؛ نشبت ـ بضراوة ـ ضد دولة شيعية المذهب؛ ومع هذا فتلك الثورة لا تخلو من نفحات العصبية القبلية ونزواتها؛ حيث كانت تلك الثورة تتغذى بشحنات من العصبية الأمازيغية الزناتية والهوارية؛ تلك العصبية المناهضة لتسلط قبائل كتامة، وقبائل صنهاجة؛ التي تستتر تحت ستار المذهب الشيعي. لأن الفكرة المذهبية ـ في الحقيقة ـ أخفت ظاهرة العصبية، وغلفتها بالوشاح

وعذله أبو عمار فيما أتاه من الاستكثار من الدنيا؛ فتاب وأقلع؛ وعاود لبس الصوف والتقشف)). العبر، مج: 7، ص ص: 30 ـ 31.

[1] ويشرح ابن خلدون الكيفية التي تنكسر فيها العصبية؛ تبعا لضعف الصبغة الدينية؛ بقوله: ((واعتبر ذلك إذا حالت صبغة الدين وفسدت؛ كيف ينتقض الأمر، ويصير الغلب على نسبة العصبية وحدها؛ دون زيادة الدين؛ فيغلب الدولة من كان تحت يدها من العصائب المكافئة لها أو الزائدة القوة عليها؛ الذين غلبتهم بمضاعفة الدين لقوتها؛ ولو كانوا أكثر عصبية منها وأشد بداوة)). المقدمة، ج: 2، ص: 638.

[2] أنظر أخبار بني عبيد وسيرتهم، ص ص: 31. 33. 34. 38 ـ 41. والكامل في التاريخ، ج: 6، ص ص: 309 ـ 310. واتعاظ الحنفا، ص ص: 115. 116. والعبر، مج: 7، ص ص: 31. 32 ـ 33

الديني. وقد أكدت هذا التفسير الأحداث التي وقعت بعد موت أبي يزيد؛ إذ ظلت بعض القبائل الأوراسية التي كانت ثائرة معه من قبل ـ كقبيلة هوارة ـ في عصيانها مشاغباتها؛ حتى عهد المعز لدين الله؛ إذ تقول المصادر أنه شن عليها حملات تصفية وتطهير في نواحي الأوراس سنة 342هـ(953م).[1]

والمهم هنا هو أن إخماد ثورة أبي يزيد؛ تم ـ في الظاهر ـ بواسطة عصبية مناوئة للعصبية الزناتية؛ وهي عصبية كل من: كتامة وصنهاجة؛ ولكن من الواجب الاعتراف ـ أيضا ـ بأن خذلان أبي يزيد من طرف القبائل الزناتية؛ لعب دورا حاسما في إمالة الكفة لصالح الشيعة. ويمكن التحقق من ذلك؛ بالإطلاع على الكيفية التي انفضت بها عصبيته؛ أثناء حصاره للمهدية سنة 334هـ(945م)، والكيفية التي تنكر بها أمير مغراوة الزناتية لأبي يزيد؛ مما أدى إلى انفضاض قبيلة مغراوة عنه. إن هذا الأمر كله أضعف العصبية الزناتية وأفسدها؛ وعزز ـ بالمقابل ـ موقف الشيعة، والعصبية: الكتامية والصنهاجية. وهكذا تبددت أحلام زناتة؛ في إنشاء دولة قوية وموحدة بالمغرب الإسلامي؛ بزعامة أبي يزيد. وبهذا بقي الحديث عن ثورة أبي يزيد في حدود الكيان الثائر، المتمرد؛ الذي لم يصل إلى مرتبة الدولة؛ لأنه ـ حتى وإن كاد أبو يزيد أن يقضي على الدولة الفاطمية ـ لا يمكن وضع كيانه في مصاف الدول؛ إذ لم يكن سوى ثائر؛ حالفه الحظ أحيانا، وخانه أحيانا أخرى.

ـ **إمارة أبي خزر يغلي بن زلتاف الوسياني الإباضي:** وهو من علماء الإباضية الوهبيين المعتدلين. وقد قام هذا الرجل ـ مع رفيقه وصنوه في العلم ـ **أبي نوح سعيد بن زنغيل الوسياني** ـ بثورة مضادة للدولة الفاطمية؛ وذلك في بلاد قسطيلية أيضا سنة 358هـ(968م). أي بعد ثلاث وعشرين سنة ـ تقريبا ـ من مقتل

[1] أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم، ص ص: 48 ـ 49. والعبر، مج: 4، ص: 95. واتعاظ الحنفا، ص: 134.

أبي يزيد مخلد بن كيداد. وتقول المصادر أن السبب في تلك الثورة كان بدافع الثأر؛ وليس بحافز عقائدي أو سياسي. وحدث ذلك بعد إعدام أحد علماء الإباضية الأعيان ـ ظلما كما يقال ـ من طرف سلطان الدولة الفاطمية ـ آنذاك ـ المعز لدين الله تميم بن إسماعيل. وهذه الحركة الإباضية ـ في الحقيقة ـ لم تصل إلى درجة الثورة العارمة؛ إذ كانت عبارة عن عصيان وسخط على سلطان الدولة الفاطمية؛ الذي قتل ـ كما يعتقدون ـ ظلما أحد علمائهم؛ وهو أبو القاسم يزيد بن مخلد الوسياني.[1]

والجدير بالملاحظة هنا؛ أن جل المصادر التاريخية السنية صمتت عن هذه الحركة، ولم تشر إليها؛ وقد يكون ذلك بسبب عدم أهميتها، ونظرا لقلة تأثيرها على الدولة الفاطمية. ولم تتكلم عنها سوى المصادر الإباضية؛ التي أضفت عليها ـ بدورها ـ صفة العصيان القبلي؛ احتجاجا على قتل أحد الأعيان المبجلين في: قسطيلية، وبلاد ريغ، ومنطقة الزاب. لذا فقد نهض الساخطون في تلك الجهات؛ وطالبوا بالثأر لأبي القاسم. ويقال أن الذين اجتمعوا للقتال؛ من مزاتة وحدها اثنا عشر ألف فارس؛ باستثناء الراجلين؛ الذين كان عددهم أكثر من ذلك.[2] ويقول أبو زكرياء أن جموع الثائرين عقدوا لأبي خزر ولاية الدفاع؛ بهدف المطالبة بدم أبي القاسم. على أن يعقدوا له

---

[1] يقول أبو زكرياء في هذا الموضوع: ((ذكر أبو الربيع سليمان بن يخلف ﷺ؛ أن أبا القاسم ﷺ تحدث مع يهودي: فجرى بينهما كلام في أمر أبي تميم [المعز لدين الله] فقال له أبو القاسم ﷺ ليس بيننا وبينه إلا يسيرا؛ فنقوم عليه؛ ونخرجه من تلك المدينة ـ إن شاء الله ـ يعني مدينة القيروان. فلما افترقا قام اليهودي مبادرا؛ فبلغ قوله لأبي تميم. وبلغ المشائخ ما قاله أبو القاسم لليهودي؛ فأتوه وعاتبوه على ذلك ولاموه. وقالوا له: "لو كنت على ذلك؛ فمثلك لا يفشي سره، ولا يهتك ستره؛ أحسن الله عزاءنا فيك")). سير الأئمة وأخبارهم، ص ص: 210 ـ 211. وذكر الدرجيني الرواية نفسها في طبقات المشائخ بالمغرب؛ ج: 1، ص: 124.

[2] سير الأئمة وأخبارهم، ص: 216. وطبقات المشائخ بالمغرب، ج: 1، ص: 124.

ـ بعد تحقيق هدفهم الأول ـ ولاية الظهور؛[1] أي الولاية المعلنة صراحة.

ويبدو أن أبا خزر لم يكن على درجة من الحنكة العسكرية. ذلك لأنه تسرع في زحفه نحو باغاي. ويقول أبو زكرياء أنه لم ينتظر إمدادات أصحابه كلهم؛ الممثلين في جموع أهل الزاب وورجلان.[2] وعليه فلم يكن في وسعه الصمود أمام قوة الأعداء؛ إذ أنه بعد أن حاصر باغاي ـ بعض الوقت ـ بقوة من قبيلة مزاتة؛ تلك القوة التي كانت في معظمها تتشكل من طلبة العلم؛ انتهى الأمر بهم جميعا إلى الهزيمة والهرب. على أنه من الجدير التنبيه والإشارة لما فعلته الأطماع، والأهواء الذاتية في ضعضعة موقف الثائرين، وإحباط نفوسهم. لقد انجر عن العصبية القبلية الضيقة ـ التي فعلت فعلها السيئ في صفوف مناصري أبي خزر من بني يليان ـ أن شرخا خطيرا حدث في صفوف الثوار. وبذلك انبثقت في وسطهم ـ فجأة ـ علة عاتية؛ تشخص ما في العصبية من عيوب ومفاسد؛ حيث تسببت ـ بفعل عواملها السلبية ـ في هزيمة جيش الإباضيين؛ وفي تشتت أفراده في الآفاق.[3] عندها لم يجد قائد الثورة أبو خزر وصاحبه أبو نوح أمامهما من وسيلة؛ إلا الهرب والاختفاء ؛ متنكرين في

---

[1] قال أبو زكرياء: ((ثم إن الشيخ أبا خزر ﷺ عقدوا له الولاية على الدفاع والطلب بحق الشيخ ﷺ فإن أدركوا حاجتهم عقدوا له ولاية الظهور)). سير الأئمة وأخبارهم، ص: 216.

[2] يقول أبو زكرياء: ((لما استنفر أهل الزاب وأريغ وورجلان؛ خرجوا في جموع عظيمة؛ فخرج خزرون بن فلفول؛ فلما وصل خزرون ـ ومن معه ـ إلى الموضع الذي يقال له أفودان تطلا (أو أفوداد لكلا)؛ كان بينه وبين باغاي مسافة قصيرة ـ فيما قيل والله أعلم ـ سمع بخبر الهزيمة فرجع)). سير الأئمة وأخبارهم، ص: 218.

[3] قال أبو زكرياء واصفا ما جرى في باغاي: ((وبلغنا أن أهل باغاي جاعلوا ناسا من مزاتة؛ يقال لهم بنو يليان؛ على أن يجعلوا في أنفسهم الهزيمة ـ فكان بينهم وبين (بدنة) [أو يدبة] ضغائن ودحول [أي مخادعات] وثارات ـ فلما التحم القتال؛ تنحت بنو يليان، وانحازوا إلى ناحية، وألقوا في مسامع العسكر أن بني بدنة تخلفت لهم لتستولي على أموالهم وأنعامهم ومواشيهم وأحيانهم؛ وجعلوا في أنفسهم الهزيمة؛ وانهزم العسكر)). سير الأئمة وأخبارهم، ص: 217. وقد أورد القصة الدرجيني بأسلوب واضح ومفصل، أنظر طبقات المشائخ بالمغرب، ج: 1، ص ص: 129 ـ 130.

الصحراء وجبل نفوسة؛ انتظارا وطمعا في عفو السلطان؛ الذي عفا عنهما فيما بعد.

وبهذا القدر من المعلومات – حول دور العصبية القبلية في تشييد دول الخوارج، وتحريك كياناتهم الثائرة ببلاد المغرب والأندلس – يمكن إنهاء هذا الفصل؛ على أن يتبعه – لاحقا – فصل آخر، يعالج موضوع نشأة الدول العلوية بتأثير العصبية القبلية بهذه الديار أيضا.



الدول العلوية

المقصود بالدول العلوية هي تلك الدول التي أنشأها أحفاد علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، أو المنتسبون إليه من أهل الشيعة. وقد يحدث أن تكون الدولة علوية النسب؛ ولكنها سنية المذهب. وهذا هو الخط الفاصل بينها وبين الدولة الشيعية؛ ذات المذهب المخالف للمذاهب السنية؛ في الجوانب الكلامية والفقهية. أما الجانب السياسي؛ الذي ينص على وجوب إسناد الإمامة إلى عائلة علي بن أبي طالب ﷺ؛ فهو متفق عليه؛ بين أنصار النموذجين من هذه الدول. ولا يدخل في هذا المجال الدول الشيعية التي يحكمها أمراء من غير العلويين؛ مثل: بني زيري أمراء إفريقية والمغرب، وبني أبي الحسين أمراء صقلية.

بدأت الخلافات السياسية تظهر، وتنمو بين المسلمين؛ منذ اليوم الأول لوفاة رسول الله ﷺ. وكان منطلقها؛ اختلافهم في اختيار خليفة له. فأهل يثرب قالوا بأنهم أجدر الناس بمنصب الخلافة؛ لكونهم أنصار محمد ﷺ. ولكن المهاجرين تصدوا لهم؛ وأعطوا لأنفسهم الحق في الخلافة؛ كونهم أهل رسول الله، وأسبق الخلق إسلاما. ولما توصل الطرفان إلى الاتفاق؛ على أن تكون الخلافة في قريش؛ ظهر فريق ثالث ينادي بأحقية علي بن أبي طالب بمنصب الخلافة؛ نظرا لكونه ابن عم الرسول، وزوج ابنته فاطمة، ووالد الحسن والحسين. ثم شرعت كل جماعة في نشر آرائها خفية وجهارا. وانجر عن ذلك كله حدوث بعض

الفتن بين المسلمين؛ بدءا بالفتنة التي قتل خلالها عثمان بن عفان ﷺ؛ ثم الفتن الدامية الأخرى؛ المشتعلة بين علي بن أبي طالب وخصومه؛ في وقعة الجمل، ووقعة صفين وغيرهما.

وبعد تمام الغلبة للأمويين؛ لم يستسلم العلويون، ولا شيعتهم؛ بل ظلوا في صف المعارضة؛ حتى سقوط الدولة الأموية؛ تحت ضربات الهاشميين، وحلفائهم. ولكن خلافا جديدا ظهر بين أهل البيت؛ وذلك عندما استبد بنو العباس بالسلطة، وانفردوا بها دون بقية الهاشميين؛ من أبناء على بن أبي طالب. وعليه فقد ثار ـ نتيجة لذلك ـ العلويون وشيعتهم ـ مرات عديدة ـ بسبب إحساسهم بالظلم والغبن.[1]

ونتج عما لحق ببني علي بن أبي طالب ـ من شتات وتشرد في الآفاق ـ أنهم انتشروا في الأقطار النائية؛ حيث تمكن بعضهم من إقامة إمارات خاصة بهم في مشرق البلاد ومغربها؛ بعيدا عن مركز الخلافة العباسية. وقد عُرفت هذه الإمارات بالدول العلوية. وإذا كان مصير بعضها انتهى بالسقوط السريع؛ فإن بعضها الآخر تميز بالصمود والمقاومة؛ إذ استطاعت ـ بإصرار أصحابها، وبصبرهم ـ مزاحمة الدولة العباسية، ومنافستها في ميادين عديدة. وسيقتصر الحديث في هذا السياق على الدول العلوية ببلاد المغرب والأندلس؛ وأهم تلك الدول:

۞۞۞

---

[1] وقد فسر ابن خلدون هذا الأمر في مقدمته؛ طبقا لنظريته عن العصبية؛ فقال: ((وكان امر بني امية نافذا في جميع العرب؛ بعصبية بني عبد مناف... ثم تلاشت عصبية بني امية؛ بما أصابهم من الترف؛ فانقرضوا. وجاء بنو العباس؛ فغضوا أعنّة بني هاشم، وقتلوا الطالبيين، وشردوهم؛ فانحلت عصبية عبد مناف وتلاشت، وتجاسر العرب عليهم؛ فاستبد عليهم أهل القاصية؛ مثل: بني الأغلب بإفريقية، وأهل الأندلس، وغيرهم؛ وانقسمت الدولة. ثم خرج بنو إدريس بالمغرب. وقام البربر بأمرهم؛ إذعانا للعصبية التي لهم، وأمنا أن تصلهم مقاتلة، أو حامية للدولة)) المقدمة، ج: 2، ص: 865.

1)- الدولة الإدريسية:

نشأت الدولة الإدريسية بواسطة إدريس بن عبد الله الكامل ابن الحسن المثنى ابن الحسن السبط ابن علي كرم الله وجهه.[1] وذلك سنة 172هـ (788م) ببلدة وليلي في المغرب الأقصى؛ حيث تم ذلك في حماية قبيلة أوربة البرنسية. ولما كان إدريس من أهل النصاب الملكي؛ فقد انقادت إليه هذه القبيلة الأمازيغية بسهولة ويسر؛ وذلك حينما قبل أعضاؤها بتوليه الحكم فيهم؛ ملكا وإماما. وقد تعزز انقيادهم وتحقق قبولهم به نظرا لأنه حفيد لرسول الله محمد ﷺ.

وهكذا تحقق – أيضا – ما قرره ابن خلدون؛ من أنه يحدث لأهل النصاب الملكي؛ أن يقيم أحدهم دولة؛ بفضل عصبية أخرى؛ غريبة عنه؛ فتغنيه عن الحاجة إلى عصبيته الخاصة.[2] وهكذا.. فقيام الدولة الإدريسية ببلاد المغرب جاء – إذن – كنتيجة طبيعية لما وصلت إليه عصبية بني هاشم المركبة؛ من ضعف وانقسام؛ الأمر الذي استدعى اللجوء إلى عصبية أخرى؛ يمكنها تعويض العصبية المفككة؛ التي تسرب الوهن والانحلال إليها.

وحتى تتعمم الفائدة أذكر – هنا – بما تضمنه كتابي المعنون بـ: العصبية القبلية ظاهرة اجتماعية وتاريخية؛ من شروح وافية تخص نظرية ابن خلدون بخصوص الكيفية التي تسقط بها الدول؛ حينما يتسرب الخلل إليها؛ وذلك بعد أن يتنكر حاكم الدولة لأهل عصبيته؛ فيسعى لتأديبهم، ويتمادى في إذلالهم؛ لذا يلجئون إلى أقصى البلاد؛ هاربين من بطشه؛ حيث يتطلعون

---

[1] أنظر جمهرة أنساب العرب لابن حزم، ص: 49.

[2] وذلك بقوله: ((لما انتبذ الطالبيون من المشرق إلى القاصية، وابتعدوا عن مقر الخلافة، وسموا إلى طلبها من أيدي بني العباس؛ بعد أن استحكمت الصبغة لبني عبد مناف. لبني امية أولا. ثم لبني هاشم؛ من بعدهم. فخرجوا بقاصية المغرب، ودَعَوْا لأنفسهم، وقام بأمرهم البرابرة؛ مرة بعد أخرى؛ فاوربة، ومغيلة؛ للأدارسة. وكتامة، وصنهاجة، وهوارة؛ للعبيديين. فشيدوا دولهم، ومهدوا بعصائبهم أمرهم. واقتطعوا من ممالك العباسيين المغرب كله، ثم إفريقية)). نفسه، ص: 635.

ـ في تلك الجهات ـ إلى إنشاء دول خاصة بهم؛ بموازرة قبائل خارجة عن سلطان الدولة الأم القائمة. وهذا هو الذي حدث ـ بالفعل ـ للعلويين الذين انفصلوا عن عصبيتهم المركبة؛ التي تشمل بني هاشم كافة.[1]

ـ حكومة إدريس بن عبد الله:

يقول البكري بخصوص إدريس بن عبد الله؛ حينما وصل إلى المغرب الأقصى: أنه وجد شيخا على رأس قبيلة أوربة ـ عندما نزل عليهم ـ يسمى إسحاق بن محمد بن عبد الحميد؛ وكان على مذهب المعتزلة.[2] وكما يقول البكري فإن إدريسا يكون قد تابعه في اعتقاده، وأظهر اعتناقه لهذا المذهب.[3] فقام ذلك الشيخ بعقد البيعة لإدريس؛ معلنا إمامته للمؤمنين. فأجمعت أحياء قبيلة أوربة كلها على طاعته. وعندما سمعت به عشائر

---

[1] يقول ابن عذاري: ((أن إدريس وسليمان ابني عبد الله بن حسن بن الحسن بن علي ابن أبي طالب ـ رضهم ـ فروا من الوقعة التي كانت في أيام جعفر المنصور؛ وهي وقعة فخ؛ وكانوا ست اخوة: إدريس، وسليمان، ومحمد، وإبراهيم، وعيسى، و يحيى. أما محمد فخرج بالحجاز؛ وقتل. وأما إبراهيم فقام بالبصرة من العراق؛ فقتل في أيام المنصور. وأما يحيى فقام في الديلم ـ في خلافة الرشيد ـ وهبط على الأمان، ثم سم ومات. وأما إدريس ففر الى المغرب؛ ودخل اليه ـ في أيامه ـ من الطالبيين: أخوه سليمان؛ فاحتل بتلمسان. وداود بن القاسم بن إسحاق بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب؛ ثم رجع داود إلى المشرق؛ وبقيت ذريته بالمغرب. واحتل إدريس بن عبد الله بالغرب سنة 170هـ؛ واستوطن وليلي ـ وكانت ازلية ـ وكان وصوله مع مولاه راشد؛ ثم نزل على إسحاق بن عبد الحميد سنة 172هـ؛ فقدمه قبائل المغرب وأطاعوه)). البيان المغرب، ج: 1، ص: 210.

[2] المعتزلة فرقة من الكلاميين ذات اتجاهات دينية خالصة. وقد انبثق هذا المذهب بين تلاميذ الحسن البصري؛ ومنهم: عمرو بن عبيد، وواصل بن عطاء. وهذا الأخير تنسب اليه الجماعة المسماة بالواصلية؛ وهم طبعا من المعتزلة؛ وعن هذه الفرقة يقول الشهرستاني: ((الواصلية؛ أصحاب أبي حذيفة واصل بن عطاء الغزال الألثغ. كان تلميذا للحسن البصري؛ يقرأ عليه العلوم والأخبار. وكانا في أيام عبد الملك بن مروان، وهشام ابن عبد الملك. وبالمغرب الأن منهم شرذمة قليلة في بلد إدريس بن عبد الله الحسني؛ الذي خرج بالمغرب في أيام أبي جعفر المنصور)). الملل والنحل، ج: 1، ص: 46. وكان قد أشار إلى الواصلية هؤلاء البكري عندما تكلم عن مدينة تيهرت؛ في كتابه المغرب، ص: 67. كما تكلم عنهم أيضا أبو زكرياء في كتابه سير الأئمة وأخبارهم، ص: 102. ويبدو ان ياقوت الحموي اقتبس قول البكري حين اشار إلى الواصلية؛ في كتاب معجم البلدان، ج: 2. ص: 8.

[3] المغرب، ص: 118.

من: زناتة وزواغة ولواتة ولماية وسدراتة وغياتة ونفزة ومكناسة وغمارة؛ أوفدت إليه الوفود، وبايعته طوعا؛ على السمع والطاعة؛ اعترافا منها بفضله، وتبركا بنسبه الشريف. هذا من جهة، ومن جهة أخرى يبدو أنها وجدت فيه عاملا هاما؛ يساعدها في كبح أطماع ولاة القيروان.

هذا ولم يبق إدريس في موقف المنتظر بعد إعلان البيعة له؛ بل نهض إلى الغزو والجهاد بمجرد إحساسه باكتمال قوته. فزحف على بقايا اليهود والنصارى والوثنيين؛ في: قندلاوة وبهلوانة وفازاز وتامسنا وشالة وتادلة. ولما أخضع تلك الديار بقبائلها؛ اتجه شرقا؛ حيث فتح تلمسان صلحا؛ بعد أن خرج إليه محمد بن خزر بن صولات المغراوي؛ طالبا الأمان، ومقدما بيعته، وبيعة أعيان قبيله، ووجوه تلمسان.[1]

وهكذا أصبحت الدولة الإدريسية قوة يحسب حسابها. فأحس الخليفة العباسي ـ هارون الرشيد ـ بالخطر الذي يمثله إدريس؛ بوجوده على رأس تلك الدولة النائية؛ والتي تزداد قوة وثراء كلما مر الزمن. كما تشتد صلابة وحصانة مع مرور الأيام؛ بفضل تلك القبائل الأمازيغية الملتفة حولها، والحارسة على أمنها وأمن عدوه. ولما شعر بهول الموقف؛ قرر من فوره اللجوء إلى الأسلوب المتاح لديه؛ والأكثر أمانا له ولجيوشه. ويتمثل ذلك الأسلوب في الخديعة والاغتيال. لأنه بعد أن تأكد هارون الرشيد من صعوبة القيام بأي عمل ذي طابع عسكري؛ ورأى استحالة نجاح ذلك العمل المكلف؛ ذي الأبعاد الخطيرة. خاصة عندما يتخيل وجوب حدوث ذلك العمل في مناطق اعتبرت ـ منذ أيام الدولة الأموية ـ مناطق مستقلة عن الخلافة؛ ولا تخضع لنفوذها المباشر. لذا فإنه لم يكن أمامه سوى التحرك بسرعة ـ بمعاونة مساعديه ـ قصد وضع خطة لقتل إدريس بن

---

[1] الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص ص: 7 ـ 8. وأعمال الأعلام؛ ق: 3، ص ص: 191 ـ 192. والعبر، مج: 4، ص: 24.

عبد الله. وبالفعل استطاع هارون تحقيق ذلك؛ بتدبير وزيره يحيى بن خالد؛ وبتنفيذ أحد أتباع الدولة العباسية؛ اسمه سليمان ابن حريز الجزري، وسماه آخرون الشماخ اليمني. وكان هذا الرجل من القائلين بمذهب الزيدية؛ بل من المتكلمين المدافعين عن هذا المذهب الشيعي.[1]

وتم ـ بالفعل ـ ما خطط له يحيى بن خالد؛ إذ قام حريز الجزري هذا ـ بفضل ما كان يتمتع به من دهاء ومكر ـ بتنفيذ الخطة بدقة ودهاء؛ حيث سافر إلى أقصى المغرب؛ ومثل أمام

---

[1] ثمة روايات عديدة عن اغتيال إدريس؛ منها هذه الرواية التي ذكرها البكري؛ فقال: ((حتى انتهى إلى الرشيد خبره [أي خبر إدريس] فكربه، وشكا ذلك إلى يحيى بن خالد؛ فقال: "أنا أكفيك خبره يا أمير المؤمنين". فأرسل إلى سليمان بن حريز الجزري؛ وهو رجل من ربيعة، وكان متكلما؛ ممن يرى رأي الزيدية؛ وكان حلوا شجاعا؛ أحد شياطين الانس. وكانت له إمامة في الزيدية؛ إذ كان متكلمهم؛ وهو الذي جمع الرشيد بينه وبين هشام بن الحكم؛ حين ناظره في الإمامة. فأرغبه يحيى بن خالد في مال، ووعده ـ عن نفسه وعن الخليفة ـ بمواعد عظيمة؛ ودعاه إلى قتل إدريس، والتلطف في ذلك؛ فأجابه؛ فأعطاه مالا جزلا، ووجه معه رجلا يثق به وبشجاعته. ودفع إلى سليمان قارورة فيها غالية مسمومة [والغالية هي خليط من السم]؛ فانطلق مع صاحبه؛ فلم يزالا يتغلغلان حتى وصلا إلى إدريس. وكان إدريس عالما بسليمان ورياسته في الزيدية. فلما وصل إليه قال: "إنما جيتك وحملت نفسي على ما حملته عليه؛ لمذهبي الذي تعرفني به؛ وإن السلطان طلبني هذا لمحبتي في الخروج معكم أهل البيت. فجيتك لآمن في ناحيتك وأنصرك بنفسي"؛ فسره قوله، وقبله وأحسن مثواه، وأكرم نزله، وأنس به. وكان سليمان يجلس في مجالس البربر، ويظهر الدعاء إلى ولد رسول الله ﷺ ويحتج لأهل هذه المقالة؛ كاحتجاجه بالعراق. فاعجب ذلك إدريس منه؛ فمكث عنده مدة؛ وهو يطلب غرته، ويرصد الفرصة في أمره، ويرمق باب الحيلة عليه؛ حتى غاب راشد مولاه؛ غيبه في بعض أموره؛ فدخل عليه ومعه القارورة؛ فلما انبسط إليه وخلا وجهه؛ فقال: "جعلني الله فداك؛ في هذه القارورة غالية؛ حملتها معي؛ وليس ببلدك من الطيب ما يتخذ هذا منه؛ فجيتك بها لتطيب بما فيها". ووضعها بين يديه؛ ففتحها إدريس؛ وتغلف منها، وشمها. وانصرف سليمان إلى صاحبه ـ وقد أعدا فرسين قبل ذلك مضمرين ـ فركباهما وخرجا مركضين؛ يطلبان النجاة؛ فلما وصل السم إلى دماغ إدريس وكان في خياشيمه؛ سقط مغشيا عليه؛ لا يعقل ولا يدري من يختص به ما شأنه؛ فبعثوا إلى راشد؛ فجاء مسرعا؛ وتشاغل بمعالجته، والتخبر في أمره ـ وقطع سليمان وصاحبه على فرسيهما بلادا في مدة ذلك ـ وأقام إدريس في غشيته عامة نهاره وعروقه تضرب؛ ثم مات. وتبين راشد أمر سليمان بن حريز؛ فركب في طلبه ـ في جماعة من أصحابه ـ فجعلت الخيل تنقطع تحت أصحابه، ويتخلفون لشدة السير، وحث الطلب؛ حتى لحقه راشد؛ فانحرف إليه سليمان ليمنعه من نفسه؛ فخبطه راشد بالسيف فكنع يده، وضربه على وجهه ورأسه ثلاث ضربات؛ كل ذلك لا يصيب مقتلا؛ مع دفع سليمان عن نفسه؛ وما كان عليه من الجنة؛ وقام فرس راشد لشدة حمله عليه؛ ونجا سليمان بحشاشة نفسه؛ وصاحبه قد خذله؛ فلم يغن عنه شيئا؛ ولم يكن عنده إلا الهرب)). المغرب، ص ص: 120 ـ 121. أنظر القصة مفصلة أيضا في كتاب الأنيس المطرب، ص ص: 8 ـ 10. وكتاب أعلام الأعلام؛ ق: 3، ص ص: 192 ـ 194.

إدريس في وليلي؛ مقدما نفسه كنصير للعلويين، ومظهرا تشيعه لأهل البيت. ولما كان إدريس ــ كما تقول بعض المصادر ــ يعرف عنه بعض الأخبار التي تفيد بأنه زيدي المذهب؛ فقد سهل أمر اقترابه منه؛ دون حذر أو شك فيه. وبذلك تمكن من اغتيال إدريس بن عبد الله؛ بعد أن كسب ثقته التامة. إذ يقال أنه ناوله سما؛ زعم أنه دواء ناجع لألم الأسنان. وربما يكون ما قدمه إليه هي زجاجة من الطيب المسموم؛ كما جاء في رواية ثانية. وثمة أيضا أقوال كثيرة أخرى لا تهم هنا. والخلاصة هي أن وفاة إدريس الأول حدثت بوليلي سنة 175هـ (791م)؛ بعد أن حكم الدولة ثلاثة أعوام ونصف. ولما مات إدريس؛ نصب رؤساء القبائل الفاعلة في الدولة راشدا وصيا على العرش. في انتظار اليوم الذي تلد فيه زوجة إدريس التي كانت حاملا آنئذ؛ حيث سيعرف عندئذ جنس المولود المنتظر؛ وعندها يقررون مصير الدولة بصفة نهائية.[1]

ـ حكومة إدريس الثاني:

هذا ولم يحقق هارون الرشيد هدفه الأساسي؛ على الرغم من كل ما حشده؛ من تحرشات ومؤامرات؛ بغرض القضاء على الدولة الإدريسية، والإطاحة بها؛ خاصة بعد مقتل أميرها ومؤسسها إدريس بن عبد الله. إذ أنها تمكنت من البقاء

---

[1] في هذا يقول أبي زرع: ((لم يكن لإدريس ـ حين وفاته ــ ولد؛ إلا وليدة تركها حبلى. ـ قال عبد الملك بن محمود الوراق ـ في كتاب المقباس ـ والبكري، والبرنوسي وغيرهم ممن عني بتاريخ أيام الأدارسة: " أن الإمام إدريس بن عبد الله ـ لما توفي ـ لم يترك ولدا مولودا؛ الا أنه ترك جارية له ـ مولدة من تاليد البربر اسمها كنزة ـ حاملا منه؛ في الشهر السابع من حملها. فجمع راشد رؤساء القبائل، ووجوه الناس ـ بعد فراغه من دفن إدريس ـ فأخبرهم أن إدريس لم يترك ولدا؛ إلا حملا بجاريته كنزة؛ وهي في الشهر السابع من حملها؛ فإن رأيتم أن تصبروا على الجارية حتى تضع حملها؛ فإن كان ذكرا ربيناه؛ فإذا بلغ مبلغ الرجال؛ بايعناه تبركا بأهل البيت، وذرية رسول الله ﷺ؛ وإن كانت جارية؛ نظرتم لأنفسكم من ترونه أهلا لذلك. فقالوا له: " أيها الشيخ المبارك؛ مالنا رأي إلا ما رأيت؛ فإنك عندنا عوض من إدريس... حتى تضع هذه الجارية)). الأنيس المطرب، ص: 10. أنظر أيضا: المغرب، ص: 122. وأعمال الأعلام؛ ق: 3، ص: 195.

والاستمرار في الوجود؛ خاصة بعد ميلاد ولي العهد الذي سمي ـ أيضا ـ إدريسا؛ تيمنا بأبيه وإحياء لذكراه. بل ظهر ـ كذلك ـ أن هذه الدولة تعزز شأنها، وشاع ذكرها، وقوي ملكها، واستفحل أمرها في عهد إدريس بن إدريس؛ خاصة عندما أضحى عاهل الدولة ـ هذه المرة ـ يجمع بين عصبيتين: الهاشمية والأمازيغية. إذ أصبح له فضل أبيه؛ بنسبه الشريف، إلى جانب ما له من لحمة وانتساب للأمازيغ؛ بحكم نسب أمه؛ التي ينسبها بعضهم إلى قبيلة نفزة البترية؛ أو قبيلة أوربة البرنسية كما يرى آخرون. هذا وقد سهر الوصي على إدريس وعلى ملكه ـ مولاه راشد ـ في تربيته تربية مكتملة وسديدة؛ أعده بها للقيام بأعباء الدولة أحسن قيام؛ حيث مكنه من حفظ القرآن وهو في الثامنة من عمره؛ كما أشرف على تدريسه علوم: الحديث والفقه واللغة والنحو؛ وسهر على ضمان استيعابه لفنون الأدب والشعر؛ بالإضافة إلى تدريبه على ركوب الخيل، وفنون القتال؛ حتى قيل: أنه استوعب هذه العلوم والفنون كلها حينما وصل سنه إلى الحادية عشر.

وهكذا باءت محاولات الدولة العباسية كلها بالفشل. حتى المؤامرات التي نفذت بواسطة أتباعها ـ ولاة القيروان ـ والتي ذهب ضحيتها مولى إدريس راشد؛ (الوصي على إدريس الثاني وعلى عرشه) لم تحقق أهدافها. حيث انتصب وصي آخر؛ هو أبو خالد يزيد ابن إلياس العبدي؛ فواصل نهج راشد، وتابع طريقه الصالح في بناء مؤسسات الدولة الإدريسية؛ حتى اشتد ساعد الأمير وكبر. وقد عقدت البيعة لإدريس الثاني سنة 186هـ (802م) في قول؛ بينما جعلها آخرون في سنة 187هـ أو 188هـ (803م).

ولما خابت مساعي العباسيين؛ التي كانت تستهدف إزالة الدولة الإدريسية نهائيا ـ بعد قتل إدريس بن عبد الله، ثم تلاه اغتيال الوصي راشد ـ شرعوا في حوك مؤامرات جديدة ترمي

ـ أيضا ـ إلى تصفية إدريس الثاني جسديا.[1] وبعد أن فشل العباسيون في مساعيهم السابقة؛ تحولوا إلى تطبيق خطة أخرى؛ مفادها: بث الفوضى داخل صفوف القبائل المناصرة للدولة الإدريسية؛ وعليه فقد أخذوا ـ مرة أخرى ـ يسعون لضرب السبب الأساسي الذي جمع شمل تلك القبائل؛ والعمل على إزالته. لذا فقد استماتوا في سبيل تفكيك التركيبة القبلية القوية؛ التي اجتمعت خلف الإمام إدريس. وهكذا لم يجدوا وسيلة أكثر فعالية من استثارة سلبيات العصبية القبلية داخلهم؛ وبث روح الفرقة بين القبائل المساندة لإدريس؛ وزرع التناقضات بين مصالح كل منهم؛ بهدف تفكيك لحمتهم، وتشتيت شملهم. وعليه فقد توصل ابن الأغلب ـ والي العباسيين على القيروان ـ إلى كسب ولاء شيخ قبيلة أوربة إسحاق بن محمد بن عبد الحميد ـ بعد فترة سيأتي ذكرها ـ ثم شيخ قبيلة مطغرة بهلول بن عبد الواحد؛ غير أن تلك المحاولات اليائسة أجهضها إدريس الثاني؛ بفضل حزمه وحسن سياسته.

وازدادت الدولة الإدريسية ـ مع مرور الوقت ـ عزة وعنفوانا؛ تبعا لمن وفد إليها من وجوه العرب وفرسانهم أصحاب الخبرة والكفاءة. إذ جاء بعضهم من إفريقية، وبعضهم الآخر من الأندلس.[2] وتقدر المصادر عدد الوافدين من العرب ـ خلال سنة واحدة فقط؛ وهي سنة 189هـ (804م) ـ بحوالي: خمسمائة فارس؛ ينتمون إلى قبائل عربية مختلفة؛ كبني يحصب،

---

[1] وهذا هو الذي صرح به والي القيروان إبراهيم بن الأغلب؛ في رسالة بعث بها الى هارون الرشيد؛ ضمنها هذه الأبيات:

الم ترني بالكَيْدِ أرديتُ راشدا
وإنّي بأخرى لابن إدريس راصدُ
تناولهُ عزمي على بُعْدِ داره
بِمختومةٍ قدْ هيّأتها المكايدُ
وتاهَ أخُو عكٌ بمهلكِ راشدٍ
وقدْ كُنْتُ فيه ساهراً وهوَ راقدُ

[2] كما قدم جماعة من الفرس وافدين إلى فاس من بغداد؛ وهم الذي قال فيهم ابن أبي زرع: ((ووفد عليه [أي إدريس] في تلك الأيام جماعة من الفرس؛ من بلاد العراق؛ فانزلهم بناحية عين علون؛ ومنهم بنو ملونة)). الانيس المطرب، ص: 29.

والأزد، ومدلج. فسر إدريس بالوافدين، وقربهم إليه، ورفع منازلهم، واتخذهم بطانة، وخاصة له؛ فاستوزر بعضهم، واستكتب آخرين، وأسند القضاء لأصحاب الكفاءة منهم.[1] غير أن هذا السلوك أغضب شيخ قبيلة أوربة إسحاق بن محمد بن عبد الحميد؛ فطفح كيله في هذه المرة؛ وتململت عصبيته؛ خاصة أنه سبق أن استاء من تصرف إدريس الثاني؛ بعد أن رأى قبيلته وأهل عصبيته يفقدون ــ يوما بعد يوم ــ مواقعهم المتميزة؛ وأخذت حظوتهم السابقة في البلاط تتلاشى.

وذلك أنه بعد اتساع نفوذ الدولة، وانضمام قبائل أمازيغية عديدة (بترية وبرنسية) إليها؛ نال بعضهم حظوة عظيمة، وقربا ملحوظا في بلاط الإمام إدريس. فلم يستسغ شيخ أوربة هذا الأمر؛ ولكنه سكت على مضض. غير أنه رأى ـ مرة أخرى ــ تماديا؛ في ذلك السلوك الذي اعتبره مجحفا ومثيرا. فلم يتقبل ما شاهده من حظوة وعناية تلاقيهما وفود العرب؛ تلك الحظوة التي كانت في السابق موقوفة عليه، وعلى قومه لا غير. نظرا لكونهم أصحاب الفضل الأول في قيام الدولة. وعليه فقد تحركت في داخله بذور العصبية؛ التي كانت كامنة في صدره؛ تنتظر موعد الإنبات؛ فدفعته نخوته وعصبيته إلى الاتصال بعدو الدولة اللدود ابن الأغلب؛ (والي القيروان) التابع للدولة العباسية؛ بغرض التآمر على إدريس. وهنا.. كشرت طبيعة الملك على أنيابها؛ طبقا لمقتضاها في الرد؛ بقوة وحزم وبدون شفقة. فكان

[1] فمما قاله ابن أبي زرع: ((وفي سنة تسع وثمانين ومائة وفدت على إدريس وفود العرب من بلاد إفريقية وبلاد الأندلس ـ في نحو الخمسمائة من القيسية والأزد ومذحج والصدف وغيرهم ـ فسر ادريس بوفادتهم، وأجزل صلاتهم وقربهم، ورفع منازلهم وجعلهم بطانته دون البربر؛ فاعتز بهم؛ لأنه كان فريدا بين البربر؛ ليس معه عربي؛ فاستوزر عمير بن مصعب الازدي؛ وكان من فرسان العرب وساداتهم؛ ولأبيه مصعب مأثرة عظيمة بإفريقية والأندلس، ومشاهد في غزو الروم كثيرة. واستقضا منهم عامر بن محمد بن سعيد القيسي ـ من قيس غيلان ـ وكان رجلا صالحا ورعا فقيها؛ سمع مالكا وسفيان الثوري، وروى عنهم[ا] كثيرا؛ ثم خرج إلى الأندلس برسم الجهاد؛ ثم جاز إلى العدوة؛ فوفد بها على ادريس؛ فيمن وفد عليه من العرب)). الأنيس المطرب، ص: 13.

مصير شيخ اوربة إسحاق بن عبد الحميد هو القتل.[1] ولم تشفع له مواقفه السابقة مع إدريس الأول؛ خاصة وأن هذا السلطان ـ الثاني في الدولة ـ لم يعش الأيام التي نشأت فيها الدولة، ولم يشاهد ـ بنفسه ـ الخدمات الجليلة التي قدمها شيخ أوربة إلى أبيه إدريس. وبهذا يصح ما ذكره ابن خلدون ضمن: "**فصل في أطوار الدولة، واختلاف أحوالها وخلق أهلها باختلاف الأطوار**".[2]

وبعد هذا تفاقمت عزلة أوربة، وازداد نفوذها ضعفا وفتورا. حدث ذلك ـ على الخصوص ـ بعد انتقال عاصمة الدولة من وليلي إلى مدينة فاس ـ الحاضرة الجديدة للدولة ـ وهي التي أنشأها إدريس الثاني لهذا الغرض؛ حتى تستوعب القبائل التابعة للدولة جميعها؛ خاصة وأن من القبائل ـ التي التحقت بخدمة الدولة الإدريسية ـ ما يفوق قبيلة أوربة عددا وعدة. فتعزز بهم مركز مدينة فاس، وازدهر العمران بها، وأينعت حضارتها، فغدت مصدر إشعاع حضاري وثقافي عظيم بالمغرب. وقد ساعدها مركزها المتميز، وموقعها الجيد، وثرواتها: المائية والفلاحية والمعدنية؛ على مضاهاة كبريات الحواضر الإسلامية آنئذ.[3]

وعندما يئس الأغالبة من تفكيك وحدة القبائل المناصرة للأدارسة؛ وأحسوا بالعجز في القضاء على دولتهم؛ تحولوا إلى استعمال سلاح آخر؛ وهو سلاح الإشاعة، والحرب النفسية؛ إذ

---

[1] المغرب، ص: 123. العبر، م: 4، ص: 26.

[2] حيث قال واصفا سلوك بعض الحكام : ((الطور الثاني: طور الاستبداد على قومه، والانفراد دونهم بالملك، وكبحهم عن التطاول للمساهمة والمشاركة. ويكون صاحب الدولة في هذا الطور معنيا باصطناع الرجال، واتخاذ الموالي والصنائع، والاستكثار من ذلك؛ لجدع أنوف أهل عصبيته، وعشيرته المقاسمين له في نسبه، الضاربين في الملك بمثل سهمه فهو يدافعهم عن الأمر، ويصدهم عن موارده، ويردهم على أعقابهم أن يخلصوا إليه؛ حتى يَقرّ الامر في نصابه، ويَفرد اهل بيته بما يبني من مجده. فيعاني من مدافعتهم، ومغالبتهم مثل ما عاناه الأولون في طلب الأمر أو أشد؛ لأن الأولين دافعتهم الأجانب؛ فكان ظهراؤهم على مدافعتهم أهل العصبية بأجمعهم؛ وهذا يدافع الأقارب؛ لا يظاهره على مدافعتهم إلا الأقل من الأباعد؛ فيركب صعبا من الأمر)). المقدمة، ج: 2، ص: 664.

[3] أنظر الأنيس المطرب؛ ففيه عرض وافي لمدينة فاس.

عملوا على بث الشك في انتساب إدريس الثاني إلى الهاشميين؛ وذلك بنشر إشاعة مفادها أنه ابن راشد الوصي؛ ولكن سعيهم هذا باء بالفشل أيضا.[1]

هذا وتوفي إدريس بن إدريس بوليلي سنة 213هـ (828م) مختنقا بحبة عنب؛ تسربت في مجرى الهواء بحلقومه.[2] وأولاد إدريس الثاني هم: إدريس، ومحمد، وأحمد، وعبد الله، وعبيد الله، وداود، ويحيى، والحسن، والحسين، وعيسى، وعمر، وجعفر، وحمزة، والقاسم.[3]

ـ حكومة محمد بن إدريس بن إدريس:

ولما توفي إدريس الثاني خلفه ولده محمد؛ الذي قام بتقسيم مقاطعات الدولة بين اخوته؛ تبعا لوصية جدته كنزة أم إدريس. إذ أبقى لنفسه حاضرة الدولة (مدينة فاس)؛ بينما خص أخاه القاسم بطنجة وبصرة ونواحيهما، أما صنهاجة وغمارة فكانتا من نصيب أخيه عمر، وبلاد هوارة وتسول وتازي لأخيه داود، وأغمات ونفيس والمصامدة ولمطة والسوس الأقصى لعبد الله، وأصيلا والعرائش وبلاد زواغة ليحيى، وشالة وسلا

---

[1] ومما يدخل في سياق هذه الإشاعة الواهية؛ قول أحدهم؛ ويسمى محمد بن السمهري؛ يهجو القاسم بن إدريس بن ادريس أمير بصرة وطنجة ونواحيهما:

قُلْ للزنيم زنيم طنجة عِشْ بها
لا يحسدنّكَ في بلادِكَ حاسِدْ
منّتك نفسك أن تكون خليفة
هيهات هذا مِنْ حَديثِكَ بارِدْ
لمّا رأيتك للتّنام مُصافيا
أيقنْتُ حقّاً أنّ جدّك راشِدْ

وفي هذا السياق يقول ابن خلدون: ((وعجز الأغالبة من بعد ذلك عن مدافعة هؤلاء الادارسة؛ ودافعوا خلفاء بني العباس بالمعاذير: بالغض من إدريس، والقدح في نسبه إلى أبيه ادريس؛ بما هو اوهن من خيوط العناكب)). العبر ، مج: 4، ص: 27.

[2] المغرب، ص: 123.

[3] الجمهرة، ص: 49. أما البكري وابن أبي زرع فاسقطا اسمي الحسن والحسين؛ وذكرا البقية؛ وكان عددهم اثني عشر ولدا ذكرا هم: محمد وأحمد وعبيد الله وعيسى وإدريس وجعفر وحمزة ويحيى وعبد الله والقاسم وداود وعمر. المغرب، ص ص: 123 ــ 124. الانيس المطرب، ص: 27. وحتى ابن الخطيب ذكر أن عددهم اثنا عشرة؛ ولكنه لم يسمهم. أعمال الاعلام، ق: 3، ص: 202.

وأزمور وتامسنا لعيسى، ووليلي وأعمالها لحمزة.[1] أما تلمسان وبعض الجهات من المغرب الأوسط فكانت من نصيب بني عمه سليمان بن عبد الله.[2] وقد نتج عن هذا التصرف بعض المشاكل؛ إذ شجع بعض اخوته على المطالبة بالمزيد، ومحاولة الاستبداد بما تحت أيديهم. فأعلنوا العصيان والثورة عليه. عندها نشبت الفتن بينهم؛ غير أن أخاه عمر بقي وفيا له؛ فكلفه بمحاربة إخوانه العصاة؛ فنفذ له أمره؛ ولما حقق له ما أراد؛ جازاه خير الجزاء؛ إذ ضم إليه ولايات اخوته العاصين. وعمر هذا هو جد ملوك بني حمود؛ الذين امتلكوا الأندلس بعد سقوط الدولة الأموية. وكانت وفاة عمر في عام 220هـ (835م) ودفن بفاس. فأسند محمد أعمال أخيه عمر لولده علي بن عمر؛ ولم تطل الحياة بمحمد هو الآخر؛ إذ التحق بأخيه عمر سنة 221هـ. وذكر ابن الخطيب من أولاد محمد بن إدريس ثلاثة هم: علي وإدريس وعبد الله.[3] أضف إليهم الأمير يحيى الذي خلف أخاه عليا فيما بعد.

ـ حكومة أبناء محمد: علي ويحيى:

وخلف محمدا ــ بعد وفاته ــ ابنه علي؛ وكان يلقب بحيدرة؛ تيمنا بجد العلويين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه. ونسبت المصادر لعلي هذا ـ على الرغم من صغر سنه؛ إذ كان سنه عند توليه تسعة سنوات وأربعة أشهر ــ النباهة والفطنة والذكاء؛ كما يقال أن أيام حكمه مرت في هدوء وسكينة وهناء.[4]

---

[1] أنظر المغرب، ص: 124. والأنيس المطرب، ص: 28. أعمال الأعلام، ق: 3، ص ص: 202 ـ 205.
والعبر، مج: 4، ص ص: 27 ـ 28.

[2] العبر، مج: 4، ص: 28. غير أن ابن الخطيب يقول أن الذي ولي تلمسان هو حمزة. والراجح أنه اخطأ. اعمال الاعلام، ق: 3، ص: 205.

[3] اعمال الاعلام، ق: 3، ص: 207. يبدو أن هناك أسماء أخرى لم يذكرها ابن الخطيب؛ وإلا فكيف نفسر تولي من يدعى يحيى بن محمد بعد أخيه علي؟

[4] قال فيه ابن خلدون: ((بعد أن استخلف ولده عليا ـ في مرضه ـ وهو ابن تسع سنين؛ فقام بامره الأولياء والحاشية من العرب وأوربة وسائر البربر وصنائع الدولة=

ويرجح أن السمعة الحسنة التي أضفيت على عهده؛ ترجع في الأساس إلى سهر القائمين على تسيير دولته؛ من رجال بلاط أبيه. هذا وتولى ـ بعد موته سنة 234هـ (848م) ـ أمر الدولة أخوه يحيى بن محمد.[1] فقام بشئون الدولة على أحسن وجه؛ إذ تجلت عظمة الدولة الإدريسية في عهده كما قيل.[2] حيث اهتم بالعمران والبناء، وتنشيط التجارة في مملكته، وتشجيع القادمين إليها من الأندلس والأقطار الأخرى. كما بنيت في عهده النواة الأولى لجامع القرويين في سنة 245هـ (859م)؛ بأموال تبرعت بها امرأة ثرية محسنة من أهل القيروان تدعى فاطمة بنت محمد الفهري القيرواني. والغريب أن المصادر التاريخية التي اطلعنا عليها لم تشر إلى سنة وفاة يحى بن محمد. وفي العبر بقي موضع تاريخ الوفاة فارغا؛ إذ جاء فيه: ((**وهلك يحي هذا سنة....**)).[3] كما أن المصادر كلها خلت من التفاصيل الضرورية التي تستحقها هذه الفترة التاريخية المزدهرة ـ حسب قولهم ـ من عهد الدولة الإدريسية.

=وبايعوه غلاما مترعا؛ وقاموا بأمره، وأحسنوا كفالته وطاعته؛ فكانت أيامه خير أيام)). العبر، مج: 4، ص: 29.

[1] هنا يختلف المورخون حول من تولى الحكم بعد علي بن محمد. فالبكري وابن الخطيب يقولان بان الذي خلف علي هو ابن أخيه يحيى بن يحيي بن محمد. أما ابن أبي زرع وابن خلدون فيريان أن الذي تولي الحكم هو يحيى بن محمد نفسه. ومن جهة أخرى فقد تجاهل ابن عذاري تماما ولاية علي بن محمد؛ إذ انتقل مباشرة إلى أخيه يحيى. وبذلك تعتبر الفترة التي تلت موت محمد بن إدريس سنة 221هـ؛ وحتى قيام حكومة يحيى بن ادريس بن عمر بن ادريس سنة 292هـ شديدة الغموض والإبهام. أنظر: المغرب، ص: 124. والبيان المغرب، ج: 1، ص: 211. والأنيس المطرب، ص: 29. وأعمال الاعلام؛ ق: 3. ص: 207. والعبر. 29.

[2] يقول ابن أبي زرع: ((وولي بعد وفاة أخيه علي، وبعهده إليه في حياته؛ فسار بسيرة أخيه وأبيه وجده. وفي أيامه كثرت العمارة بفاس؛ وقصد إليها الناس من الأندلس وإفريقية وجميع بلاد المغرب؛ فضاقت بسكانها؛ فبنا الناس الأرباض بخارجها؛ وبنا الأمير يحيى بها الحمامات والفنادق للتجارة؛ وفي أيامهم بني جامع القرويين شرفه الله)). الأنيس المطرب، ص: 29. أنظر أيضا العبر، مج: 4، ص ص: 29 ـ 30.

[3] العبر، مج: 4، ص: 30.

- حكومة يحيى بن يحيى بن محمد:

وبعد وفاة يحيى بن محمد[1] خلفه ولده يحيى بن يحيى. وكان هذا الأخير سيئ السيرة، سكيرا، عربيدا، فاسد الخلق. وقد ارتكب حماقة قضت على حكمه؛ وذلك عندما تهجم على امرأة يهودية في الحمام؛ فأثارت تلك الحادثة عليه الرعية، وأخرجوه إلى عدوة الأندلس؛ حيث توفي بعد ليلتين من خروجه كمدا وحرقة.[2] وقدم ـ بعد ذلك ـ والد زوجته، وابن عمه عليٌّ بن عمر بجيشه من بلاد الريف فدخل فاسا؛ وتولى الحكم بدلا من يحيى بن يحيى بن محمد. وبذلك انتقل الحكم في الدولة الإدريسية من أسرة محمد بن إدريس إلى أسرة عمر بن إدريس. هذا ولا يوجد ما يمكن قوله بخصوص حكومة يحيى هذا. إذ يبدو أن فترة حكمه لم تدم طويلا؛ ولم يسجل التاريخ عنه سوى فضائحه الخلقية.

- حكومة علي بن عمر بن إدريس:

كان هذا الأمير يحكم بلاد الريف؛ ولما ثار سكان فاس على أميرهم يحيى؛ استدعى أعيان الدولة عليا هذا ليتولى الحكم بفاس؛ فقدم إليها في ظروف غامضة؛ حيث بويع من طرف أهل الحل والعقد. ولم تشر المصادر المتوفرة إلى تاريخ ولايته، ولا تاريخ سقوط حكمه. وكل ما ذكر هو أن الدولة في عهده مرت بمراحل حرجة ـ نتيجة لظروف خارجية وداخلية ـ سادت فيها الاضطرابات والفتن بين الأمير علي وبعض الثوار من الصفرية؛ بقيادة عبد الرزاق الفهري الخارجي؛[3] الذي كان متمركزا بجبال ويلان بمديونة؛ جنوب فاس. فتغلب هذا الثائر الصفري على علي بن عمر، وأخرجه من فاس؛ ثم اضطره

---

[1] لم تذكر المصادر المتوفرة.تاريخ وفاته، ولا تاريخ ولاية الذي خلفه.

[2] المغرب، ص: 124. الأنيس المطرب، ص: 46. البيان المغرب، ج: 1، ص: 211. أعمال الأعلام؛ ق: 3، ص: 207. العبر، مج: 4، ص: 30.

[3] سبق الحديث عنه عند التطرق للأمراء الثائرين من الخوارج؛ في الفصل السابق.

للفرار إلى بلاد أوربة. هذا ولم يتمكن عبد الرزاق الصفري من الاستيلاء على عدوة القيروانيين؛ فاكتفى بعدوة الأندلسيين؛[1] حيث بقي فيها إلى أن ظهر الأمير يحيى بن القاسم. وهو كما يظهر من اسمه يتبع الفرع الثالث من أبناء إدريس؛ أي فرع القاسم ابن إدريس.

- حكومة يحيى بن القاسم بن إدريس:

ولما انهزم علي بن عمر أمام عبد الرزاق الصفري؛ ودخول هذا الأخير عدوة الأندلسيين؛ أرسل أهل العدوة الأخرى في طلب يحيى بن القاسم بن إدريس بن إدريس الملقب بالمقدام أو العدام؛[2] وقد تمكن هذا الأمير الحازم من استرجاع عدوة الأندلسيين؛ بعد أن طرد منها الخوارج. وشدد – من هناك – الضغط على أولئك الثوار الصفرية، ولاحقهم في معاقلهم، وكانت له معهم وقائع هامة؛ ولكنه لم يهنأ طويلا؛ إذ اغتاله شخص أسمته المصادر – دون توضيح يذكر – بالربيع بن سليمان سنة 292هـ (904م). وبموته عاد عرش الدولة إلى أسرة عمر بن إدريس مرة أخرى؛ من خلال الأمير يحيى بن إدريس بن عمر. وعلى الرغم من الأحداث الكبرى التي عرفتها هذه الفترة – ولو كانت قصيرة – فإن المصادر التاريخية وقفت عاجزة عن تقديم شيء مهم للقارئ.

- حكومة يحيى بن إدريس بن عمر بن إدريس:

وهكذا رجع الحكم في فاس – من جديد – إلى أسرة عمر ابن إدريس؛ وذلك بعد أن انتصب يحيى بن إدريس بن عمر بن

---

[1] تبقى الفترة الزمنية الفاصلة ما بين موت علي بن محمد؛ وتولي يحيى بن إدريس بن عمر غامضة وغير واضحة المعالم. والمصادر التاريخية كلها تتخلص من الموضوع بجمل خاطفة لا تفيد.

[2] يقول البكري وابن الخطيب: أنه عرف باسم العدام، أما ابن أبي زرع وابن عذاري فيسميانه العوام، أما ابن خلدون فيسميه الصرام. ويبدو أن الاسم تعرض للتحريف.

إدريس صاحب الريف على عرش فاس سنة 292هـ (904م). فقام هذا الأمير بأمر الدولة خير قيام.[1] وأعلنت الخطبة بطاعته في بلاد المغرب الأقصى بكاملها. وتعتبر المصادر الأمير يحيى هذا أفضل بني إدريس شأنا، وأوسعهم ملكا، وأهمهم ذكرا، وأعلاهم قدرا، وأزكاهم عدلا؛ نظرا لسعة علمه، وفضل أدبه، وسداد فقهه، وفصاحة لسانه، وصواب حفظه للحديث الشريف.[2] ومع هذا لم يسعفه الحظ طويلا؛ حيث شاءت الأقدار أن تسوق إليه مصالة بن حبوس المكناسي؛ في جيش الفاطميين؛ وذلك سنة 305هـ (917م). فتصدى له يحيى؛ ولكن مدافعته لم تجد نفعا؛ فاضطر إلى اللجوء خلف الأسوار عندما شعر بالعجز. وأخيرا اضطرته الأوضاع إلى خيار المصالحة والتسليم لمصالة؛ بشرط أن يتركه في سدة العرش مقابل قدر من المال؛ مع إعلان بيعته للخليفة الفاطمي أبي عبيد الله. ولما تم ذلك عاد مصالة إلى افريقية.

واتضح أن هذه الهزيمة قد أثّرتْ سلبا على استقرار الدولة الإدريسية وسيادتها؛ وخاصة بعد أن أجبر أميرها على إعلان طاعته وولائه للدولة الفاطمية. وكان هذا الأمر بداية انحدار الدولة الإدريسية نحو السقوط النهائي. إذ كان لظهور

---

[1] وفيه يقول ابن خلدون نقلا عن ابن زرع بتصرف: ((فملك جميع أعمال الأدارسة، وخطب له على سائر أعمال المغرب، وكان أعلى بني إدريس ملكا وأعظمهم سلطانا؛ وكان فقيها، عارفا بالحديث؛ ولم يبلغ أحد من الأدارسة مبلغه في السلطان والدولة. وفي أثناء ذلك كله خلص الملك للشيعة بإفريقية، وتغلبوا على الإسكندرية، واختطوا المهدية ـ كما نذكره في دولة كتامة ـ ثم طمحوا إلى ملك المغرب؛ وعقدوا لمصالة بن حبوس كبير مكناسة، وصاحب تاهرت على محاربة ملوكه سنة خمس وثلاثمائة؛ فزحف إليه في عساكر مكناسة وكتامة؛ وبرز لمدافعته يحيى بن إدريس صاحب المغرب بجموعه من المغرب، وأولياء الدولة من أوربة، وسائر البرابرة والموالي؛ فالتقوا على مكناسة، وكانت الدبرة على يحيى وقومه؛ ورجع إلى فاس)). العبر، مج: 4، ص: 31. الأنيس المطرب، ص: 48.

[2] كتب البكري: ((قال علي النوفلي: "كان يشهد مجلس يحيى بن إدريس العلماء والشعراء؛ وكان أبو احمد الشافعي من جلسائه، وممن يتكلم عنده في العلم؛ وكان ينسخ له عدة الوراقين. وينتجعه الناس من الأندلس وغيرها؛ فيحسن إلى جميعهم، وينصرفون عنه أكرم منصرف)). المغرب، ص: 132.

مصالة بن حبوس المكناسي على مسرح الأحداث وقع خطير على أمن الدولة؛ حيث أنه كان يميل إلى عصبيته المكناسية؛ وتبعا لذلك فقد انحاز إلى أبناء عمه بني أبي العافية المكناسيين؛ المعروفين بشدة العداء للأدارسة؛ أين تآمر معهم على إسقاط الدولة الإدريسية؛ مع أنه عقد مع سلطانها صلحا قائما على شروط؛ لم ينكثها يحيى بن إدريس.[1]

وهكذا ظهر أنه كما قامت الدولة الإدريسية بواسطة عصبية قبيلة أوربة البرنسية؛ شاءت لها الأقدار أن تتفكك، وتنهار بواسطة عصبية قبيلة أخرى منافسة؛ وهي قبيلة مكناسة؛ التي انضمت إلى حلف: كتامة وصنهاجة؛ المسخر لخدمة الدولة الفاطمية. تم ذلك حين أرسل عبيد الله المهدي قائد جيوشه؛ مصالة بن حبوس بن منازل بن بهلول المكناسي إلى فاس؛ بغرض إخضاعها. فتمكن من الانتصار على الأدارسة ـ كما سبق ذكره ـ حيث انتزع بيعتهم للمهدي سنة 305هـ (917م). ولكن أضاف بعض الأشياء التي أوحت بها إليه عصبيته المكناسية؛ إذ استهوته فكرة تقسيم النفوذ والسلطان ـ في تلك الديار ـ بين الأدارسة وأهل عصبيته الممثلين في قبيلة مكناسة. فبادر ـ من فوره ـ إلى منح شيخ مكناسة ـ موسى بن أبي العافية ابن أبي باسل بن أبي الضحاك المكناسي ـ ما طلبه من نفوذ واسع خارج أسوار فاس. وفي المقابل حصر نفوذ الدولة

[1] يقول ابن أبي زرع: ((وكان موسي بن أبي العافية ـ صاحب تسول وبلاد تازا ـ قد خدم القايد مصالة، وهاداه وتقرب إليه بالإحسان؛ وقاتل معه في جميع حروبه بالمغرب. فلما انصرف مصالة إلى القيروان؛ قدمه على المغرب، واختصه من بين سائر أمرائه. فكان موسى بن أبي العافية كلما أراد الظهور بالمغرب والاستبداد فيه؛ غمره يحيى بن إدريس الحسني؛ بشرفه وكرمه ودينه وعدله؛ وقطع به على كل ما يريد؛ فكان على قلبه منه حملا ثقيلا. فلما قدم مصالة المغرب في كرته الثانية؛ وذلك في سنة تسع وثلاث مائة؛ سعى موسى بن ابي العافية بيحيى بن ادريس عنده؛ حتى وغر صدره عليه؛ فعزم مصالة على القبض عليه. فلما قرب من مدينة فاس؛ خرج إليه الأمير يحيى بن إدريس ليسلم عليه ـ في قوم من وجوه عسكره ـ فقبض عليهم مصالة؛ وقيد يحيى بالحديد. ودخل مصالة مدينة فاس؛ ويحيى بن إدريس بين يديه مقيدا على جمل؛ فعذبه بأنواع من العذاب؛ حتى أخرج إليه جميع أمواله وذخائره. فلما قبض مصالة الأموال أطلقه ونفاه إلى ناحية مدينة أصيلا)). الأنيس المطرب، ص ص: 48 ـ 49.

الإدريسية داخل تلك الأسوار. وهنا اشتعل الصراع بين القبيلة الفتية؛ المتطلعة إلى الملك، وبين الدولة التي تسرب إليها الوهن والانحلال. فكان هذا الإجراء ــ المتخذ من طرف مصالة ــ يعتبر بمثابة الضوء الأخضر؛ الذي أطلق يد ابن عمه موسى ابن العافية؛ لكي يتحرش بيحيى بن إدريس أمير الأدارسة. وعليه فقد وجد ابن أبي العافية فرصة مواتية لمواصلة استفزازه وتحرشه بالأدارسة. وذلك لأنه لم يقتنع بما حصل عليه من نفوذ وسلطات ورئاسة؛ إذ كان ــ في الحقيقة ــ يطلب مرتبة الملك نفسه؛ ذلك الملك الذي تسعى إليه كل عصبية تحس في ذاتها القدرة على الوصول إليه. فالعصبية المكناسية في هذه الحال ينطبق عليها ما جاء في مقدمة ابن خلدون ضمن: "**فصل في أن الغاية التي تجري إليها العصبية هي الملك**".[1]

وهكذا استمر موسى بن العافية في إلحاحه على ابن عمه مصالة؛ حتى حقق له مآربه كلها. حدث ذلك عندما قدم في المرة الثانية إلى غرب البلاد؛ أين قبض على أمير الدولة الإدريسية يحيى بن إدريس؛ في سنة 309هـ (921م)؛ بخديعة دبرها وأحكمها؛ ثم سلط عليه صنوفا من العذاب والإهانة. كما سلبه ذخائره وممتلكاته؛ وبعدها نفاه إلى أصيلا؛ حيث ساءت حاله؛ واشتدت عزلته؛ وتعاظمت حاجته، وازداد فقره؛ فخرج منها إلى الريف في رعاية بني عمه الأدارسة هناك؛ ولكنه قرر بعد ذلك التوجه إلى إفريقية؛ طمعا في استعطاف السلطان الفاطمي؛ فاعترض طريقه موسى بن العافية؛ وسجنه عنده زهاء

---

[1] حيث يقول: ((ثم اذا حصل التغلب بتلك العصبية على قومها؛ طلبت بطبعها التغلب على أهل عصبية أخرى بعيدة عنها. فبإذا كافأتها، ومانعتها كانوا أقتالا وأنظارا؛ ولكل واحدة منها التغلب على حوزتها وقومها؛ شأن القبائل والأمم المتفرقة في العالم. وإن غلبتها واستتبعتها التحمت بها أيضا، وزادتها قوة في التغلب إلى قوتها؛ وطلبت غاية في التغلب والتحكم أعلى من الغاية الأولى وأبعد. وهكذا دائما حتى تكافئ بقوتها الدولة. فإن أدركت الدولة في هرَمها ولم يكن لها ممانع من أولياء الدولة أهل العصبيات استولت عليها وانتزعت الأمر من يدها. وصار الملك أجْمعَ لها. وإن انتهت إلى قوتها ولم يقارن ذلك هرم الدولة وإنما قارن حاجتها إلى الاستظهار بأهل العصبيات انتظمتها الدولة في أوليائها؛ تستظهر بها على ما يعن من مقاصدها)). المقدمة، ج: 2، ص: 610.

عشر سنين، ثم أطلق سراحه؛ فسار إلى المهدية ـ التي كانت انئذ محاصرة من قبل أبي يزيد صاحب الحمار ـ فمات بها جوعا وكمدا سنة 332هـ (943م).[1] أما فاس فقد ولي مصالة عليها ريحان بن علي الكتامي؛ إلى أن قام عليه أمير آخر من أسرة الأدارسة.

ـ حكومة الحسن بن محمد بن القاسم بن إدريس:

وبذلك يتضح؛ أن ثمة بقية من الحياة مازالت تنبض بالنشاط والحيوية في الأسرة الإدريسية؛ حيث ظهر على مسرح الأحداث أمير إدريسي أخر؛ وهو الحسن بن محمد بن القاسم ابن إدريس المعروف بالحجام؛ وذلك حين ثار سنة 310هـ (922م)[2] على ريحان بن عليّ الكتامي؛ الذي ولاه مصالة على أعمال فاس؛ قبل عودته إلى إفريقية. ولما تغلب عليه الحسن بن محمد نفاه عن فاس إلى إفريقية. وكان الأمير الحسن موصوفا بالشجاعة والإقدام والفروسية. وقد عرف بلقب الحجام؛ لأنه حدث أن كان ـ في بعض حروبه ـ لا يطعن أحدا إلا في موضع المحاجم؛ فقيل عنه صار حجاما؛[3] ومن هنا قال هو أو قال أحدهم على لسانه:

وَسُمِيتُ حَجَّاماً وَلَسْتُ بِحَاجِمٍ
وَلَكِنْ لِضَرْبِي فِي مَكَانِ المَحَاجِمِ

وبعد أن استولى الحجام على فاس؛ خرج لحرب موسى ابن أبي العافية؛ فوقعت بينهما معركة حامية؛ سنة 311هـ (923م). قال عنها المؤرخون أنها كانت أشد معركة حدثت في عهد دولة الأدارسة؛ منذ وفاة جدهم إدريس؛ إذ قتل فيها من

---

[1] المغرب، ص: 126. والأنيس المطرب، ص: 49. والعبر، مج: 4، ص: 32.

[2] يقول البكري أن تولية ريحان الكتامي تمت في سنة 307هـ؛ وثار عليه الحسن الحجام في سنة 316هـ؛ المغرب، ص: 126. أما ابن خلدون فيقول أن تولي ريحان على فاس تم في سنة 309هـ؛ أما قيام الحسن عليه فحدث في سنة 313هـ. العبر، مج: 4، ص: 32. ومج: 6، ص: 447.

[3] أما ابن حزم فيقول: ((سمي الحجّام لكثرة سفكه للدماء)). الجمهرة، 50.

المكناسيين نحو ألفين وثلاثمائة قتيل؛ منهم ولد لموسى بن العافية واسمه منهل؛ ومن جيش الأدارسة قتل حوالي سبعمائة. ومع هذا لم يهنأ الأمير الحسن طويلا بالنصر؛ إذ تعرض لمؤامرة غادرة؛ قام بها مساعده وعامله على فاس؛ حامد بن حمدان الهمداني؛ المعروف باللوزي؛ نسبة إلى قرية بإفريقية تسمى لوزة؛ وثمة من ينسبه إلى قبيلة أوربة.[1] انتهز هذا الرجل فرصة عودة سيده إلى المدينة منفردا؛ فانقض عليه واعتقله؛ ثم بعث إلى موسى بن العافية؛ داعيا إياه للقدوم؛ بعد أن أقفل أبواب فاس في وجه جيش الأدارسة. وبهذا تمكن موسى بن أبي العافية من دخول فاس واحتلالها. كما تعزز ملكه بموت الحسن الحجام. ومن الواجب التنبيه هنا إلى أن المصادر قد اختلفت؛ حول الكيفية التي مات بها الحسن الحجام؛ إذ قال بعضهم أنه مات مسموما؛ وبعضهم الآخر قال أنه مات بتأثير السقوط من السور الذي فر منه.[2]

والمهم هنا أنه مات بعد هذا الحادث. ولم تشر المصادر بشكل صريح إلى السنة التي مات فيها؛ وإن كانت قد قالت أن مدة حكم الحسن نحو عامين. وإذا كان قد ثار على ريحان الكتامي في سنة 310هـ (922م)؛ واشتبك مع ابن العافية سنة 311هـ (923م)؛ تكون إذن سنة سقوط حكمه هي أواخر عام 311هـ أو بداية عام 312هـ (924م). ولما استولى موسى بن أبي العافية على مدينة فاس؛ تحرش بصاحب الفضل عليه حامد بن حمدان؛ فخاف منه؛ فلم يجد أمامه منجى سوى الفرار إلى المهدية.[3] وذكر ابن حزم من ذرية الحسن الحجام: ((القاسم بن

---

[1] الانيس المطرب، ص: 50. والبيان المغرب، ج: 1، ص: 213. والعبر، مج: 4، ص: 32.

[2] المغرب، ص: 127. الأنيس المطرب، ص: 50.

[3] رواية ابن خلدون تقول: ((وغدر به حامد بن حمدان الأوربي واعتقله. وبعث إلى موسى فوصل إلى فاس؛ وملكها؛ وطالبه بإحضار الحسن؛ فدافعه عن ذلك؛ وأطلق الحسن متنكرا؛ فتدلى من السور فسقط؛ ومات من ليلته. وفر حامد بن حمدان إلى المهدية... وذهب ملك الادارسة؛ واستولى ابن أبي العافية على جميع المغرب؛ وأجلى بني محمد بن القاسم بن ادريس. وأخاه الحسن إلى الريف؛ فنزلوا البصرة؛ واجتمعوا إلى كبيرهم إبراهيم بن=

محمد بن الحسن؛ الفقيه الشافعي بالقيروان؛ المعروف بابن الزبيري)).[1]

وهكذا يتضح بأن تلك المحاولات اليائسة التي قام بها الحسن الحجام؛ لبعث الحياة في الدولة الإدريسية لم تُجْدِ نفعا؛ لأن حال الدولة الإدرسية أضحى مهلهلا ومتهالكا؛ إذ يبدو أنها دخلت في سن الشيخوخة؛ حيث تفشت بين أصحابها عاهات الفساد والانحلال، واستهوتهم مغريات الترف والسكينة والارتخاء؛ هذا من جهة؛ ومن جهة أخرى فقد غدت قوى أعداء هذه الدولة متفوقة عليها؛ بفضل تحالفهم مع الفاطميين. وعليه فقد وصلت دولة الأدارسة إلى الحد الذي يشير إليه ابن خلدون في نظريته بقوله: **((وفي هذا الطور تحصل في الدولة طبيعة الهَرَم؛ ويستولي عليها المرض المزمن الذي لا تكاد تخلص منه، ولا يكون لها معه برءٌ؛ إلى أن تنقرض)).**[2]

وعلى الرغم مما حل بهذه الدولة من أوضاع مزرية؛ وما أضحت عليه من وهن وتشرذم؛ فقد بقيت المواجهات بين أمرائها وأعدائهم قائمة؛ ـ حتى وإن تغير الأشخاص واختلفت المواقع ـ إذ ظهر أن الأحداث لم تهدأ والأحوال لم تسكن أبدا. وجوهر الاختلاف يتمثل في تبدل المقاتلين، وتنوع ميادين الصدام والقتال. ومع ذلك فقد حل الموعد المحتوم لنهاية هذه الدولة؛ وذلك بعد مدة من الزمن ـ كما سبق ذكره ـ وصح ما قرره ابن خلدون ضمن: **"فصل في أن الدولة لها أعمار طبيعية كما للأشخاص".**[3] وفي النهاية، وبعد مد وجزر؛ خلص الأمر إلى

=محمد بن القاسم ـ أخي الحسن ـ وولوه عليهم؛ واختط لهم الحصن المعروف بهم هناك؛ وهو حجر النسر سنة سبع عشرة وثلاثمائة. ونزلوه. وبنو عمر بن إدريس يومئذ بغمارة؛ من لدن تيجساس إلى سبتة وطنجة. وبقي إبراهيم كذلك)). العبر، مج: 4، ص: ص: 32 ـ 33.

[1] الجمهرة، ص: 50. أما البكري فذكر أربعة من أولاد عمر وهم: علي، وإدريس، وعبيد الله، ومحمد. المغرب، ص: 131.

[2] المقدمة، ج: 2، ص: 666.

[3] حيث يقول: ((أما أعمار الدول ـ ايضا ـ وإن كانت تختلف بحسب القرانات؛ إلا أن الدولة ـ في الغالب ـ لا تعدو اعمار ثلاثة أجيال. والجيل هو عمر شخص واحد من العمر=

سقوط ما بقي من قلاع للصمود في الدولة الإدريسية؛ تحت ثقل الدولة الأموية بالأندلس سنة 365هـ (975م). ولكن كيف حدث كل ذلك..؟

۞۞۞

ـ عصر التفكك والشتات:

أخذت الدولة الإدريسية في التفكك إلى أجزاء صغيرة، وأطراف منفصلة؛ اعتبارا من تاريخ سقوط حكومة الحسن الحجام ـ أي في بداية العقد الثاني من القرن الرابع الهجري ـ حيث غدت تشبه قطرة من زئبق سقطت على مسطح؛ فتفتتت إلى جزيئات؛ تناثرت في كل الجهات. ومع هذا فقد بقيت خلايا تلك الدولة تنبض بالحياة؛ حتى وإن تفككت لحمتها، وانشطرت كتلتها، وتناثرت أجزاء وأطرافا. وأضحت عبارة عن مجموعة

=الوسط؛ فيكون أربعين؛ الذي هو انتهاء النمو والنشوء إلى غايته. قال تعالى: "حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة" [من اية 15 من سورة الأحقاف] ولهذا قلنا إن عمر الشخص الواحد هو عمر الجيل... وإنما قلنا إن عمر الدولة لا يغدو ـ في الغالب ـ ثلاثة أجيال: لأن الجيل الأول لم يزالوا على خلق البداوة وخشونتها وتوحشها؛ من شظف العيش والبسالة والافتراس والاشتراك في المجد. فلا تزال بذلك سورة العصبية محفوظة فيهم؛ فحدهم مرهف، وجانبهم مرهوب، والناس لهم مغلوبون. والجيل الثاني تحول حالهم ـ بالملك والترفه ـ من البداوة إلى الحضارة، ومن الشظف إلى الترف والخصب، ومن الاشتراك في المجد إلى انفراد الواحد به، وكسل الباقين عن السعي فيه، ومن عز الاستطالة إلى ذل الاستكانة؛ فتنكسر سورة العصبية بعض الشيء؛ وتؤنس منهم المهانة والخضوع. ويبقى لهم الكثير من ذلك؛ بما أدركوا الجيل الأول، وباشروا أحوالهم، وشاهدوا من اعتزازهم وسعيهم إلى المجد، ومراميهم في المدافعة والحماية؛ فلا يسعهم ترك ذلك بالكلية؛ وإن ذهب منه ما ذهب؛ ويكونون على رجاء من مراجعة الأحوال التي كانت للجيل الأول؛ أو على ظن من وجودها فيهم. وأما الجيل الثالث فينسون عهد البداوة والخشونة كأن لم تكن، ويفقدون حلاوة العز والعصبية؛ بما هم فيه من ملكة القهر؛ ويبلغ فيهم الترف غايته؛ بما تفنقوه [أي تنعموا] من النعيم، وغضارة [أي النعمة والسعة] العيش؛ فيصيرون عيالا على الدولة؛ ومن جملة النساء والولدان المحتاجين للمدافعة عنهم؛ وتسقط العصبية بالجملة... وهذه الأجيال الثلاثة عمرها مائة سنة على ما مر. ولا تعدو الدول ـ في الغالب ـ هذا العمر؛ بتقريب قبله أو بعده؛ إلا إذا عرض لها عارض آخر؛ من فقدان المطالب؛ فيكون الهرم حاصلا مستوليا؛ والطالب لم يحضرها؛ ولو قد جاء الطالب؛ لما وجد مدافعا. "فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون" [من الأية 61 من سورة النحل])). المقدمة، ج: 2، ص ص: 655 ـ 657.

من الكيانات التي تحكم المدن.. وإمارات مجهرية ذات طابع قبلي؛ موزعة عبر التراب المغربي كله؛ وكانت هذه الكيانات كلها تحظى بحماية ورعاية عجيبة من طرف القبائل المغربية المختلفة. وحدث ذلك خاصة في مناطق الساحل الشمالي للمغرب، وبلاد الريف، وجبال غمارة.

غير أنه برز من بين تلك الإمارات إمارتان إدريسيتان منفصلتان ومتنافستان: الأولى إمارة بني محمد بن القاسم بن إدريس بن إدريس؛[1] وكانت تحت قيادة إبراهيم بن محمد بن القاسم بن إدريس بن إدريس. وهو الذي بنى قلعة منيعة ليتحصن فيها مع أسرته وبني عمومته؛ وتسمى حجر النسر؛ وذلك في سنة 317هـ (929م)؛[2] وكانت هذه القلعة تربض على ذروة جبل شاهق صعب المنال؛ في نواحي الريف بجبال غمارة. أما الإمارة الثانية فهي لبني عمر بن إدريس بن إدريس؛ بقيادة أبي العيش[3] بن إدريس بن عمر بن إدريس؛[4] وقامت في جهات تيقيساس (تيكيساز) وسبتة وطنجة من بلاد غمارة. وعلى هذا

---

[1] ذكر البكري أنهم: ((حسن وجنون [واسمه الحقيقي أحمد. ومعنى جنون بالأمازيغية القمر] وإبراهيم؛ بنو محمد بن القاسم. وكان محمد متخلفا في إخوته وعشيرته؛ لا قدر له؛ ثم صارت النباهة والقدر لبنيه. وإبراهيم بن محمد هو المعروف بالرهوني. وكان الذي يلزم صخرة النسر منهم جنون وحنون ابنا إبراهيم. واسم جنون [قنون] القاسم [وهو غير جنون الاول ابن محمد بن القاسم ابن إدريس؛ الذي يسمى أحمد])). المغرب، ص ص: 128 ـ 129. أنظر أيضا الجمهرة، ص: 49.

[2] المغرب، ص: 127. واضطرب ابن خلدون في هذا الخبر؛ حيث ذكر ــ مرة ــ أن باني القلعة هو إبراهيم بن محمد؛ ـ ومرة أخرى ـ قال أن الذي بناها هو محمد بن إبراهيم بن محمد. العبر، مج: 4، ص: 33. ومج: 6، ص: 447.

[3] منعا لكل التباس؛ من الواجب التنبيه الى أن اسم أبي العيش مستعمل في عائلتي الأدارسة وبني سليمان. وثمة عدد من الأشخاص يسمون بهذا الاسم.

[4] يقول البكرى: ((وأما إدريس بن عمر بن إدريس فهو لباب ولد عمر بن إدريس؛ وبولده تكرر الأمر؛ الى أن أكثرهم بنو محمد بن القاسم. ومحمد بن إدريس بن عمر هو المعروف بابن ميالة؛ يكنى أبا العيش؛ ولم يزل مواليا للناصر عبد الرحمن رحمه الله... وكان لإدريس بن عمر خمسة من الولد الذكور غير هذين [يقصد أبا العيش محمدا ويحيى الذي تولى الملك بفاس]؛ ولهم عقب كثير)). ثم يضيف: ((وأما أبو العيش بن عبيد الله فولد حمودا ويحيى. فأما يحيى فله بنون بتازغدرا. وأما حمود فولد القاسم وعليا وفاطمة. فأما علي فولي الخلافة بالأندلس سنة سبع وأربعمائة)). المغرب، ص ص: 132 ـ 133.

تكون قبيلة غمارة قد برهنت على أنها من أخلص قبائل المغرب لبني إدريس؛ حيث احتضنوهم، وآووهم في بلادهم، وأخلصوا الطاعة لهم جميعا؛ سواء كانوا من بني إبراهيم بن محمد بن القاسم، أو من بني عمر بن إدريس.[1]

غير أن موسى بن أبي العافية لم يكتف بما افتكه من أيدي الأدارسة؛ بل شحن عليهم بسعيه في مطاردتهم عبر البلاد المغربية كلها؛ إذ عمل جاهدا لتصفيتهم نهائيا، وإزالة وجودهم من تلك الديار؛ سواء كان ذلك بالقتل، أو بالنفي الأبدي.[2] حدث ذلك بعد أن تغلب موسى بن أبي العافية على معظم المغرب الأقصى؛ وبعض والأجزاء الغربية من المغرب الأوسط. وطارد الحسنيين في كل مكان؛ حتى أوشك أن يقضي على وجودهم نهائيا من تلك البلاد. ولم يفلت من مخالبه أو يتقي سطوته إلا الذين انحازوا إلى الريف؛ متحصنين بقلعة حجر النسر المنيعة؛ كما سبق قوله. وحتى هؤلاء حاول استئصالهم نهائيا لولا المعارضة التي واجهه بها أصحابه.[3] وذلك أنه لما حاصرهم في

---

[1] يقول ابن خلدون في هذا: ((واستولى ابن أبي العافية على فاس، وأعمال المغرب؛ وأجلى الادارسة وأحجرهم بحصنهم حجر النسر؛ وتحيزوا إلى جبال غمارة وبلاد الريف. وكان لغمارة في التمسك بدعوتهم آثار ومقامات؛ واستجدوا بتلك الناحية ملكا؛ توزعوه قطعا. كان أعظمها لبني محمد هؤلاء، ولبني عمر بتيفيساس ونكور وبلاد الريف)). العبر. مج: 6، ص: 448.

[2] وصفت بعض المصادر والمراجع ما أحدثه ابن أبي العافية من مجازر في بلاد المغرب؛ كان الأدارسة من ضحاياها. وقال إسماعيل العربي؛ دون أن يشير إلى مصدره: ((وعقب ذلك؛ بدأ ابن ابي العافية في مطاردة الادارسة وتقتيلهم جماعات وأفرادا؛ حتى أطلق على نهر فاس اسم النهر الأحمر؛ لغزارة الدماء ـ دماء الادارسة خصوصا ـ التي سالت فيه)). كتاب دولة الأدارسة. ص: 154.

[3] قال في هذا ابن أبي زرع: ((واستولى ابن أبي العافية على جميع بلاد المغرب؛ وبايعه القبائل والاشياخ؛ فأجلا جميع الأدارسة من بلادهم، وأخرجهم من ديارهم، وملك مدينة اصيلا. ومدينة شالة وغيرها من بلادهم. وساروا بأجمعهم إلى قلعة حجر النسر؛ مقهورين. مغلوبين؛ فانحصروا بها؛ وهي حصن منيع؛ بناه محمد بن إبراهيم بن القاسم ابن إدريس؛ طلع في عنان السحاب. فنزل عليهم ابن أبي العافية؛ واشتد عليهم الحصار؛ وأراد استيصالهم. وقطع دابرهم؛ فعدله على ذلك رؤساء المغرب، وأكابر أهل دولته؛ وقالوا له: "اتريد ان تقطع دابر اهل البيت من المغرب، وتقتلهم أجمعين. هذا شيء لا نوافقك عليه. ولا نتركك له"؛ فاستحيا لذلك وارتحل عنهم إلى مدينة فاس؛ وخلف عليهم قائده ابا الفتح التسولي [في المغرب والبيان المغرب سمي أبا قمح] في ألف فارس؛=

قلعتهم، وتمادى في التضييق عليهم قصد استئصالهم نهائيا؛ اعترض عليه أصحابه؛ ومنعوه من تحقيق رغبته في القضاء - نهائيا - على الأدارسة. فعاد إلى فاس؛ بعد أن ترك حامية تقدر بألف فارس لمراقبتهم والتضييق عليهم. ولما عاد إلى مركز إمارته بفاس؛ طور زحفه نحو إمارة بني سليمان بن عبد الله بتلمسان. تلك الإمارة التي كان يقودها الحسن بن أبي العيش عيسى بن إدريس بن محمد بن سليمان الحسني.[1] وقد كان هذا الأمير - في تلك الأثناء - داخلا في طاعة الفاطميين؛ فحاصره ابن أبي العافية، وأخرجه من تلمسان، ومن جراوة في سنة 319هـ (931م)؛ واضطره للالتحاق بمدينة مليلة؛ حيث تحصن بها؛ إلى أن تحين الفرصة المواتية. وبعد ذلك توجه ابن أبي العافية إلى مدينة نكور؛ فاحتلها هي الأخرى سنة 320هـ (932م). وكان في هذه الأثناء؛ قد نقل بيعته من الفاطميين بإفريقية، إلى عبد الرحمن الناصر لدين الله الأموي بالأندلس.

=يمنعهم من التصرف؛ وذلك في سنة سبع عشرة وثلاثمائة)). الأنيس المطرب: ص: 51. انظر أيضا المغرب، ص:128. والبيان المغرب، ج: 1، ص: 214.

[1] وهو من أبناء سليمان؛ كما هو واضح من اسمه؛ وبذلك تكون يد ابن أبي العافية قد امتدت حتى إلى ابناء سليمان. وكان أبو العيش عيسى هو الذي شيد مدينة جراوة. وحول هذا يقول البكري: ((عيسى أبو العيش بن إدريس بن محمد بن سليمان؛ هو الذي بنا جراوة: وكان أميرها؛ وبها توفي)). المغرب. ص: 77. ويضيف ابن عذاري: ((أسسها أبو العيش في سنة 257هـ؛ ووليها بعده ابنه الحسن بن أبي العيش في سنة 291هـ؛ وخرج منها إلى حصن المنصورة في سنة 319هـ؛ ثم عاد إليها في سنة 323هـ؛ ثم انتقل منها الى تلمسان في سنة 325هـ)). ثم يكمل في موضع لاحق: ((فظهر أمر موسى من ذلك الوقت في العدوة؛ وتجمع إليه كثير من قبائل البربر؛ وتغلب على مدينة جراوة؛ وأخرج عنها الحسن بن أبي العيش بن إدريس العلوي. ودارت بينهما محاربات ومواقعات. وبنى الحسن بن أبي العيش حصنا منيعا؛ بجبل بينه وبين جراوة أربعة أميال؛ وحوله قرى لمدغرة وبني يفرن وغيرهم من القبائل. وكان لأبي العيش أيضا وبنيه مدينة تلمسان وما والاها؛ يسكنها مثل: زواغة ونفزة وغير ذلك. وفي ذلك يقول بكر بن حماد [كامل]:

سائلْ زْواغةَ عن طعان سُيوفِه ... ورماحه في العارض المُتهلل
وديار نفزة كيف داس حريمها ... والخيلُ تمرغ في الوشيج الذبّل
وغشّى مغيلة بالسيوف مُذلّة ... وسقى جراوة من نقِيع الحنظل)).

وجراوة في البيت الأخير؛ تعني القبيلة؛ وليست المدينة. أنظر البيان المغرب، ج: 1، ص ص: 196. 199 - 200.

وتعتبر هذه الخطوة التي قام بها ابن أبي العافية هي بداية نهايته؛ إذ أرسل عبيد الله الشيعي جيشا فاطميا ـ في البداية ـ بقيادة حميد بن يصليتن أو يصلي (عمه هو مصالة). فتمكن من طرد موسى من فاس، وإجباره على التحصن في نواحي تسول. ولما لم تكن حملة يصلي حاسمة فقد جرد عبيد الله الشيعي جيشا آخر بقيادة ميسور الفتى في سنة 323هـ (934م). فتمكن هذا الجيش من اكتساح كل ما سبق أن استولى عليه موسى بن أبي العافية؛ بل طارده وشرده في مجالات بعيدة عبر الصحراء والآفاق النائية. وظل موسى على حاله في التشرد والانقطاع حتى قتل في نواحي ملوية؛ وقد حدث ذلك في تاريخ يكتنفه غموض كبير؛ إذ اختلفت فيه الأقوال.[1] وهنا تمكن الأدارسة، وأبناء عمومتهم بنو سليمان من استعادة المبادرة؛ إذ استطاعوا تخليص مراكزهم وإماراتهم من براثن ابن أبي العافية. خاصة إذا أخذ بالاعتبار ما كانوا عليه؛ من تعاون مطلق مع الفاطميين؛ في حربهم ضد موسى بن أبي العافية وفي مطاردته. وقد تم ذلك ـ على الأخص ـ انطلاقا من الإمارتين المنيعتين؛ اللتين شيدهما أبناء محمد بن القاسم بن إدريس؛ أصحاب قلعة حجر النسر، وربما أبناء عمر بن إدريس بن إدريس أيضا؛ الأمراء في غمارة وبلاد الريف؛ من تيقيساس إلى طنجة. حيث واصل من تلك النواحي بنو إدريس ـ بفرعيهم ـ حركة المقاومة؛ واستمروا في نضالهم بغرض استعادة مجدهم، واسترجاع دولتهم بفاس. فكانوا بذلك يترصدون الأحداث، ويتربصون حلول الفرص المناسبة ـ من تلك المواقع المنيعة ـ للانقضاض على أعدائهم. وقد اضطروا أحيانا؛ إلى عقد أحلاف، وعهود مع خصومهم السابقين؛ من أجل تحقيق أهدافهم الأساسية؛ التي تتمثل: في

---

[1] اختلفت الأقوال ـ أيضا ـ حول سنة وفاة موسى؛ إذ يقول بعضهم أنها في سنة 328هـ، والآخرون يرونها في سنة 341هـ، وفي قول سنة 350هـ، وآخر في 360هـ، وآخر في 363هـ. الأنيس المطرب، ص: 52.

القضاء على عدوهم الرئيسي موسى بن أبي العافية؛ ثم العودة إلى فاس؛ الأمر الذي يحقق لهم تطهير أراضيهم بعد ذلك نهائيا من الدخلاء والمحتلين؛ سواء كانوا من الفاطميين الشيعة، أم من الأمويين.[1]

وبالفعل فقد سارعوا إلى عقد حلف مع الفاطميين ـ حتى وإن كان ذلك لبعض الوقت ـ حينما كانت جيوش الشيعة تطارد موسى بن أبي العافية؛ الأمر الذي مكنهم من استرجاع معظم أملاكهم بالمغرب.[2] كما سعوا إلى مصانعة، الأمويين بالأندلس؛ مظهرين رغبة في التقرب إليهم بواسطة ـ التظاهر بالبيعة ومخادعتهم ـ أملا في كسب الوقت؛ حتى يتحقق لهم جمع شعثهم ولمّ شملهم. غير أن ذلك ـ كما يبدو ـ صعب المنال؛ لأن عصبية بني إدريس فسدت، وانكسرت سورتها بالتمام. والشاهد على ذلك ما كان يحدث بين الأسرتين الإدريسيتين المتنافستين من شنآن وفرقة؛ زادت في ضعفهم جميعا؛ وأعطت لأعدائهم فرصا ثمينة لكي يكتسحوهم، ويقضوا عليهم بالكامل.[3]

---

[1] كانوا يناورون بين الأمويين والفاطميين. أنظر: المغرب، ص ص: 128 ـ 134. وروض القرطاس، ص ص: 53 ـ 59. والعبر، مج: 6، ص ص: 448 ـ 454.

[2] ومما قاله عنهم البكري: ((ثم قدم ميسور الفتى إلى المغرب في سنة ثلاث وعشرين وثلاث ماية... حاصر موسى بن أبي العافية؛ وتولى معاظم تلك الحروب بنو إدريس؛ حتى جلى موسى بن أبي العافية إلى الصحراء؛ وصار ما كان بيده إلى آل إدريس؛ والرياسة منهم في بني محمد بن القاسم بن إدريس بن إدريس؛ وهم: حسن وجنون [كنون أو قنون] وإبراهيم: بنو محمد بن القاسم؛ وكان محمد متخلفا في اخوته وعشيرته؛ لا قدر له؛ ثم صارت النباهة والقدر لبنيه؛ وإبراهيم بن محمد هو المعروف بالرهوني. وكان الذي يلزم صخرة النسر منهم جنون [كنون] وحنون ابنا إبراهيم؛ واسم جنون [كنون] القاسم... وكان أعلى بني محمد كلهم أيدا أبو العيش بن جنون [كنون] بن محمد؛ وكان له من البلد ما بين أجاجن؛ وهو بقبلي حجر النسر إلى مدينة فاس. وكان أحمد بن إبراهيم بن محمد عالمهم؛ كان يحفظ السير والتواريخ، وكان نسابة، عاقلا حليما؛ وكان مبجلا لعلمه؛ وكان يعرف أحمد الفاضل؛ وكان له ما جرٍ من أجاجن إلى مدينة سبتة؛ وكان شديد الميل إلى خلفاء بني أمية... ولم يكن في بني إدريس من شهر بالعلم شهرته إلا أحمد الأكبر ابن القاسم بن إدريس بن إدريس؛ وهو المعروف بالكرتي؛ كان له علم وقدر وجاه بالمغرب؛ وهو الذي استجلب بكر بن حماد)). المغرب، ص ص: 128 ـ 130.

[3] أرجع إلى الرسائل التي بعث بها الطرفان إلى الخليفة عبد الرحمن الناصر؛ حيث كان كل طرف منهما يشنع باخيه، ويحاول شحن صدر الخليفة الأموي عليه. وطبعا هذا شاهد حي على ما وصلت إليه العصبية الإدريسية من ضعف ومهانة. لقد عرض إسماعيل العربي بعض المقطوعات من تلك الرسائل؛ نقلا عن قطعة من المقتبس؛ نشرها شالميتا بمدريد.=

وهكذا فما أن خلصوا من أطماع موسى بن أبي العافية والشيعة؛ حتى تورطوا في أطماع أخرى أشد وأكثر شراهة ونفاذا؛ تلك هي أطماع عبد الرحمن الناصر حاكم الأندلس؛ الذي وضع كل ما في حوزته من قوة ودهاء؛ لكي يمنع وصول الفاطميين إلى حدود مملكته. إذ أن خوفه من امتداد نفوذ الفاطميين الأقوياء إلى حدود دولته الجنوبية؛ في الطرف المقابل من العدوة؛ ألزمه وحتم عليه العمل الجاد؛ لكي يحول بين الفاطميين وبين تحقيق أهدافهم البعيدة المدى. تلك الأهداف التي ترمي إلى الانفراد بالخلافة الإسلامية غربا وشرقا؛ بحكم أنهم يرون في أنفسهم أحق الناس بها؛ لأنهم من أبناء فاطمة الزهراء؛ التي تجعلهم خير من يمثل أهل البيت. وعليه فما أن أحس بضعف الأدارسة، وعجزهم عن صد الفاطميين، ومنعهم من احتلال ديار المغرب الأقصى؛ حتى سارع إلى التكفل بأمر الدفاع عن تلك الجهات الغربية بنفسه. لذا لم يجد عبد الرحمن الناصر خيارا آخر أمامه ـ بعد ذلك ـ سوى التدخل المباشر؛ وبكل ما يملكه من قوة، وبكل ما لديه من حكمة ودهاء. حيث استعمل في ذلك سلاح الضغوط والإغراء والتوجيهات. ومع هذا فقد وجد أن تدخله بقوة الاحتلال في بلاد المغرب أصبح من الأمور الضرورية الملحة؛ قبل فوات الأوان.

وعليه فقد اكتسح ـ هو ومن بعده ابنه؛ المستنصر بالله ـ المناطق التي يتمركز فيها الأدارسة؛ الذين اتضح لهما أنهم كانوا مذبذبين في ولائهم وطاعتهم التامة إليهما؛ نتيجة لخوفهم

=دولة الأدارسة، ص ص: 156 ـ 159. وكعينة لما يقولونه؛ هذه فقرة من رسالة بعث بها بنو عمر إلى السلطان الأموي يحرضونه على بني عمومتهم: ((ولا نأمن سلطان بني عمنا ـ بني محمد ـ المباينين لنا؛ إذ هم الحاجزون بيننا وبين أعدائه؛ الذين زحفوا إلى من بسبتة من جنده المنصور؛ إذ هم أهل الإنكار لدعوته، والدفع لبيعته، والكراهة لدولته، والمناهضة بالعداوة لجنده؛ وكنا معشر ولد عمر على خلاف ذلك؛ من الصغو له؛ أيده الله؛ والميل إليه، والاعتراف بحقه)). دولة الأدارسة، ص: 158. هذه حال بني إدريس؛ بعد ان غزت الشيخوخة دولتهم، وبعد فساد عصبيتهم. وعليه فقد وجد الخليفة الأموي الارضية صالحة لاكتساح بلادهم، وضم أراضيهم وأملاكهم إليه.

وضعفهم؛ من جهة، وكراهيتهم لبني أمية من جهة أخرى. هذا وقد سهل على عبد الرحمن الناصر مهمة إخضاع الأدارسة؛ نظرا لما كان يلاحظه من انقسام في صفوفهم؛ إذ أنه لمس ـ بسهولة ـ ما كان يحدث بينهم من صراع وشنآن. وإذا كان عبد الرحمن الناصر قد اكتفى باحتلال سبتة وطنجة؛ كموضع قدم له في الضفة المغربية؛ بغرض تحويلهما إلى رأس جسر يسهلان مرور جيوشه فيما بعد ـ بالإضافة إلى احتلال بعض المواقع الهامة في تلك الديار ـ فإن ابنه الحكم تجاوز ذلك الحد؛ بالعمل الجاد على الاحتلال الكامل للمغرب الأقصى؛ وإسقاط ما فيه من جيوب وكيانات إدريسية. ولما احتل المستنصر بالله بلاد المغرب الأقصى كلها كما خطط؛ نقل كل الأدارسة إلى بلاد الأندلس؛ وذلك في حدود سنة 365هـ (975. حيث فتحت لهم أبواب تلك الديار واسعة. إذ أصبحت بالنسبة إليهم ميدانا جديدا للسعي نحو الملك والسلطان مرة أخرى.[1]

---

[1] للتوسع في موضوع الدولة الإدريسية يستحسن الإطلاع على الكتب التالية: المغرب، ص ص: 115 ـ 134. والأنيس المطرب بروض القرطاس، ص ص: 4 ـ 93. والبيان المغرب، ج: 2، ص ص: (210 ـ 214. وأعمال الأعلام، ق: 3، ص ص: 188 ـ 224. والعبر، مج: 4، ص ص: 23 ـ 36. والاستقصاء، ج: 1. ودولة الأدارسة ملوك تلمسان وفاس وقرطبة. ولمزيد من التوثيق؛ هذا نص لابن خلدون عن الذي جرى ـ في الأيام الأخيرة ـ لمن بقي من الأدارسة؛ جاء فيه: ((واستولى موسى بن أبي العافية على جميع المغرب؛ وأجلى بني محمد بن القاسم بن إدريس، وأخاه الحسن إلى الريف؛ فنزلوا البصرة، واجتمعوا إلى كبيرهم ابراهيم بن محمد ابن القاسم: أخي الحسن [الحجام] وولوه عليهم؛ واختط لهم الحصن المعروف بهم هنالك؛ وهو حجر النسر سنة سبع عشرة وثلاثمائة وأنزلوه. وبنو عمر بن إدريس يومئذ بغمارة؛ من لدن تيفيساس إلى سبتة وطنجة، وبقي إبراهيم كذلك. وشمر الناصر المرواني لطلب المغرب؛ وملك سبتة على بني إدريس سنة تسع عشرة [وثلاثمائة]؛ وكبيرهم يومئذ أبو العيش ابن إدريس بن عمر؛ فانجابوا له عنها، وأنزل بها حاميته. وهلك إبراهيم بن محمد كبير بني محمد؛ فتولى عليهم من بعده أخوه القاسم الملقب بكنون؛ وهو أخو الحسن الحجام؛ واسمه القاسم بن محمد بن القاسم؛ وقام بدعوة الشيعة؛ انحرافا عن أبي العافية ومذهبه. واتصل الامر في ولده؛ وغمارة أولياؤهم، والقائمون بأمرهم... وأقام الادارسة بالريف؛ مع غمارة؛ وتجدد لهم به ملك في بني محمد، وبني عمر بمدينة البصرة، وقلعة حجر النسر، ومدينة سبتة، وأصيلا. ثم تغلب عليهم المروانيون، وأثخنوهم إلى الاندلس ثم أجازوهم إلى الإسكندرية. وبعث العزيز العبيدي ابن كنون منهم لطلب ملكهم بالمغرب؛ فغلبه عليه المنصور ابن أبي عامر، وقتله. وعليه كان انقراض أمرهم، وانقراض سلطان أوربة من المغرب. وكان من أعقاب الادارسة الذين أووا إلى غمارة؛ فكانوا الداليين من ملوك الأموية بالأندلس. وذلك أن=

ـ حكومة أبي العيش أحمد بن القاسم (قنون أو كنون):

وبهذا العرض يتضح أن الدولة الإدريسية الأولى بفاس؛ قد انقطعت في حدود سنة 311هـ (923م) تقريبا. وإذا أخذنا بعين الاعتبار الفترة الزمنية التي كان فيها الأدارسة يناضلون من أجل استعادة دولتهم؛ وذلك انطلاقا من مواقعهم المنيعة في بلاد الريف وغمارة؛ تكون دولة الأدارسة الثانية قد أخذت شكلا مغايرا لما كانت عليه من قبل؛ حيث تقلص نفوذ أصحابها؛ بل أضحوا تابعين لغيرهم. كما اتخذت الدولة الإدريسية الجديدة عاصمة أخرى لها غير مدينة فاس. وقد تم ذلك ـ في البداية ـ بقلعة صخرة النسر؛ وأخيرا بمدينة البصرة.[1] إذ بدأت ـ في تلك النواحي ـ تتبلور صورة دولتهم الجديدة؛ تلك الدولة التي برز فيها الحسن بن قنون بالبصرة في حدود سنة 347هـ (958م) تقريبا؛ إلى سنة تغلبه على مدينة فاس في حدود أواخر عام 372هـ (982م) ـ بمساعدة الفاطميين ـ إلى أن تم القبض عليه من طرف الأمويين؛ أين قتل في سنة 375هـ (417م)؛ وفي هذا التاريخ سقطت الدولة الإدريسية نهائيا وزالت من بلاد المغرب.

ومن هنا وجب علينا الاستمرار في الحديث عن هذه الدولة؛ من خلال عرض الكيفية التي نشأت بها مرة أخرى بعد سقوطها. ولتوضيح الصورة التي بدأت بها هذه الدولة؛ لابد من العودة قليلا إلى أيام التشرد، والامتناع في بلاد الريف وغمارة. وبالتحديد إلى أخبار فرع من بني إدريس؛ وهم بنو محمد بن القاسم بن إدريس بن إدريس؛ الذين امتنعوا في قلعة النسر. حيث برز من بين أعضاء تلك الأسرة أبو العيش أحمد بن

=الأدارسة لما انقرض سلطانهم؛ صاروا إلى بلاد غمارة، واستجدوا بها رياسة، واستمرت في بني محمد، وبني عمر من ولد إدريس بن إدريس؛ وكانت للبربر إليهم ـ بسبب ذلك ـ طاعة، وخاصة. وكان بنو حمود هؤلاء من غمارة؛ فأجازوا مع البربر؛ حين أجازوا في مظاهرة المستعين. ثم غلبوه ـ بعد ذلك ـ على الأمر، وصار لهم ملك الأندلس)).العبر، مج: 4، ص ص: 33 ـ 34.

[1] هذا طبعا بالنسبة إلى فرع القاسم بن ادريس؛ لانهم هم الذين يمثلون صمود الأسرة الادريسية.

القاسم (قنون).[1] وكان هذا الأمير فقيها، وعالما بالسير والأنساب. كما اشتهر بالعفاف والورع والحلم والكرم والشجاعة؛ وكان يعرف باسم أحمد الفاضل.[2] ويعتبر هذا الأمير من أشد بني إدريس ميلا إلى الأمويين بالأندلس؛ حيث سارع إراديا ـ بعد أن خلف والده ـ إلى قطع الدعوة عن الفاطميين؛ وتحويلها إلى الأمويين. ولكن عبد الرحمن الناصر طمع في أكثر من البيعة؛ إذ ساومه على التخلي له عن مدينتي: طنجة وسبتة؛ فلم يقبل أبو العيش ـ في الوهلة الأولى ـ بذلك الشطط والغلو اللذين أبداهما عبد الرحمن الناصر. ولكنه لم يجد أمامه سوى الإذعان للأمر الواقع ـ في الأخير ـ نتيجة للضغوط؛ ذات الطابع العسكري؛ التي لجأ إليها عبد الرحمن الناصر. إذ تدخل هذا السلطان النافذ بالقوة المسلحة؛ دون انتظار أو تلكؤ؛ حيث بادر فورا بإرسال جيش لاحتلال المدينتين. وهكذا لم يجد أبو العيش مفرا من الخضوع للأمر الواقع المعلن بالقوة العسكرية؛ وترك ما كان قد أظهره من اعتراض؛ بل سارع في الحال إلى الاعتذار والتأسف وإبداء الندم؛ فقبل عبد الرحمن الناصر منه ذلك؛ بل أبدى له مودة وإكبارا عظيمين.

ومع ذلك فإن العاهل الأموي لم يقف عند حدود المدينتين: طنجة وسبتة؛ لأنه ـ في حقيقة الأمر ـ لم يكن يرى فيهما سوى رأسي جسر؛ يمكنانه من تمديد ونشر سلطانه الفعلي على بلاد المغرب كلها. وبالفعل فقد تمادى ذلك السلطان الأموي في مشاريعه التوسعية؛ حيث استطاع ـ بعد مدة ـ أن يهيمن على معظم بلاد المغرب؛ تاركا لبني إدريس أصيلا والبصرة فقط. ولما شاهد أبو العيش تغلب عبد الرحمن الناصر على بلاد المغرب؛ وانقياد القبائل الأمازيغية إليه؛ بعث إليه يستأذنه في الانتقال إلى الأندلس بهدف الجهاد في الثغور. فلبى عبد الرحمن

---

[1] تكتب أحيانا كنون، وأحيانا أخرى جنون أو قنون بجيم مصرية؛ حسب النطق بها.

[2] أنظر المغرب، ص ص: 127 ـ 128.

طلبه؛ مبديا فرحه وسروره.[1] وتقول المصادر أن حياة أبي العيش انتهت باستشهاده في ميدان الجهاد بالأندلس سنة 347هـ (958م).[2] وكان أبو العيش قد استخلف في أعماله ـ عند مسيره للأندلس ـ أخاه الحسن بن قنون (كنون). وهذا الأخير هو صاحب الدولة الإدريسية الثانية بالبصرة وفاس. كما يعتبر آخر ملوك هذه الدولة في المغرب الأقصى. وهنا لا بد من عرض الكيفية التي وقعت بها تلك الأحداث.

ـ حكومة الحسن بن أحمد قنون الأولى:

فلما تولى الحسن بن قنون شئون الحكم؛ بعد أخيه أبي العيش ظل ـ في بداية عهده ـ محافظا على المواثيق المتفق عليها مع الدولة الأموية؛ إذ واصل إعلان الدعوة لخلفائها. ولكنه اضطر إلى تغيير موقفه المعلن ـ على ما يبدو أو تظاهر بذلك ـ عند قدوم الجيش الفاطمي من إفريقية سنة 348هـ (959م)؛ بقيادة جوهر الصقلي ـ إذ لم يكن أمامه سوى مسايرة مقتضى الحال؛ حيث أنه بتغير الأوضاع؛ تغيرت مواقف الحسن بن قنون كذلك. وعليه فقد بادر حالا إلى نقل ولائه من الأمير الأموي إلى الخليفة الفاطمي؛ لأنه ـ كما يبدو ـ رأى في الفاطميين مزايا؛ لم يجدها لدى الأمويين؛ إذ يبدو أنه اعتقد أنهم الأقوى عددا وعدة؛ هذا من جهة، ومن جهة أخرى فقد رأى أن

---

[1] يقول في هذا ابن أبي زرع: ((فلما رأى أبو العيش غلبة الناصر على بلاد العدوة؛ كتب إليه ـ إلى قرطبة ـ يستأذنه في الجهاد؛ فأذن له؛ وأمر أن يبنى له في كل منزل ينزله قصرا؛ من الجزيرة الخضراء إلى الثغر؛ وأن يجرى له فيه ألف دينار في كل يوم ضيافة؛ ومن الفرش والأثاث والطعام والشراب ما يقوم بالقصر. فلم يزل في ذلك حتى وصل إلى الثغر. فكانت منازله في رحلته من الجزيرة ثلاثين منزلا)). الأنيس المطرب، ص: 54. أنظر أيضا المغرب، ص: 120. وأعمال الأعلام، ق: 3، ص ص: 218 ـ 219.

[2] اختلفت الأقوال حول تاريخ وفاته؛ فابن أبي زرع وابن خلدون يقولان أنها حدثت في سنة 343هـ؛ بينما يرى ابن الخطيب أنها وقعت في سنة 346هـ؛ بينما يخطئ البكري حين يقول أنها حصلت في سنة 332هـ. أما إسماعيل العربي فيجزم بأنها حدثت في سنة347هـ. الأنيس المطرب، ص: 54. وأعمال الأعلام؛ ق: 3، ص: 219. والعبر، مج: 6، ص: 450. ودولة الأدارسة، ص: 179.

مصلحته تقتضي التعامل مع دولة بعيدة ـ جغرافيا ـ عنه؛ أفضل من التعامل مع دولة قوية وقريبة من أرضه؛ لأن هذه الميزة تمكنه من الحركة والعمل بحرية مطلقة؛ دون أن يلجأ أولئك الحكام المتغلبين إلى التدخل في شئونه في كل لحظة ولأتفه الأسباب. وأهم فائدة قد يجنيها مع الدولة الفاطمية؛ هي ما تحققه له من شروط التخلص من هيمنة القبائل الزناتية المشاغبة؛ تلك القبائل التي اختارت التحالف مع الدولة الأموية؛ وكانت تشكل عامل تهديد يقف في طريق استقرر دولته.

ومع هذا فقد استعمل ورقة المناورة والخداع؛ التي تسمح بها الظرف آنئذ؛ وذلك حينما عاد جوهر الصقلي إلى إفريقية سنة 349هـ(960م)؛ حيث لم يجد الحسن بن قنون أمامه ـــ من مخرج ـ سوى أنه أعاد ولاءه ودعوته للأمويين؛ متعللا لهم ـ طبعا ـ بضعفه، وعجزه عن مواجهة الشيعة. كما ظل على عهده بعد وفاة عبد الرحمن الناصر، وخلافة ولده الحكم المستنصر بالله سنة 350هـ؛ حتى وإن كان ذلك قد تم خوفا منهما؛ لأنه ما أن زحف بلغين يوسف بن زيري الصنهاجي إلى المغرب الأقصى؛ لإخضاع القبائل الناكثة للعهد، وأخذ ثأر أبيه من القبائل الزناتية. حتى سارع الحسن بن قنون إلى الانضمام إليه، ومساعدته في حروبه ضد القبائل المتحالفة مع الدولة الأموية. وبهذا يكون قد أضاع كل الفرص الممكنة؛ للتعلل بأعذاره المعهودة؛ كالضعف، واستحالة المقاومة، وانعدام الحيلة.[1]

---

[1] يقول ابن أبي زرع: ((في آخر سنة تسع وأربعين وثلاثمائة نكث الحسن بن قنون بيعة العبيديين، وعاد إلى بيعة المروانيين؛ فتمسك بدعوة الناصر، ودعوة ولده الحكم المستنصر من بعد؛ خوفا منهم لا محبة فيهم؛ لقرب بلاده منهم. فلم يزل في طاعتهم، قائما بدعوتهم إلى أن قدم بلقين بن زيري بن مناد الصنهاجي؛ من إفريقية قاصدا إلى المغرب؛ لأخذ ثأر أبيه؛ فقتل زناتة، واستأصلهم، وملك المغرب بأسره؛ وقطع أيضا منه دعوة الأمويين، وقتل أولياءهم؛ وأخذ البيعة ـ على جميع بلاد المغرب ـ لمعد بن إسماعيل؛ كما فعل جوهر من قبله. فكان أول من سارع إلى بيعته ونصرته، وقتل أولياء المروانيين، وقطع دولتهم من أمراء المغرب الحسن بن قنون صاحب مدينة البصرة. وكشف وجهه في ذلك؛ وعمل فيه جهده؛ فاتصل خبره بالحكم المستنصر؛ فحقد له ذلك. فلما انصرف بلقين بن زيري إلى إفريقية؛ بعث الحكم قائده ـ محمد بن القاسم ـ في جيش كثيف إلى قتال=

وبالطبع فقد انجر عن ذلك التصرف من قبل الحسن بن قنون؛ أنه صدرت عن الدولة الأموية قرارات هامة وحاسمة؛ إذ قرر الخليفة الأموي الحكم المستنصر ـ بعد هذا ـ أن يزيل نهائيا أي كيان للأدارسة ببلاد المغرب. لأنه ـ كما يبدو ـ وصل الحال بين الأسرتين القريشيتين في بلاد المغرب إلى القطيعة التامة؛ التي لا تقبل أي ترقيع، أو مسوغات ممكنة. وعليه فقد عبأ قوات ضخمة؛ ووجهها إلى بلاد المغرب؛ لكي يلحقها ـ تماما ـ بمملكته في الأندلس. غير أنه ـ كما يبدو ـ تسرع في تنفيذ قراره؛ ولم يقدر قوة خصمه حق قدرها؛ إذ انتهت المعارك الطاحنة؛ التي دارت بين الجيشين ـ والتي كان أغلبها في البدء سجالا ـ بهزيمة شنيعة للجيش الأموي؛ في سنة 362هـ(972م)؛ حيث قتل فيها قائده محمد بن القاسم؛ مع عدد كبير من أفراده؛ قدرهم ابن حيان بنحو خمسمائة فارس وألف مقاتل مترجل[1]. بينما انهزمت بقيتهم، وانحصروا خلف الأسوار؛ منتظرين المدد، والمساعدة من طرف الخليفة الأموي.

بالفعل فقد بادر الحكم المستنصر بإصدار أوامره المستعجلة؛ يطلب من قواته فيها البقاء في مراكزهم حتى يأتيهم المدد؛ ومعه الأوامر الجديدة. ثم أرسل إليهم ـ بعد ذلك ـ القائد الأعلى لجيشه غالب بن عبد الرحمن؛ مكلفا بمهمة شن حرب محكمة، وشاملة، وطويلة النفس ضد الحسن بن قنون في بلاد العدوة. ويبدو أن الحرب في هذه المرة لا تشبه سابقتها؛ حيث روعيت فيها عدة اعتبارات: عسكرية وسياسية؛ كان من شأنها تحقيق النصر لا محالة. فمن بين القرارات المتخذة:

=الحسن بن قنون؛ فجاز إليه من الجزيرة الخضراء إلى سبتة في خلق عظيم؛ وعدد كثير، وقوة وعدة كاملة؛ وذلك في شهر ربيع الأول من سنة اثنتين وستين وثلاثمائة؛ فزحف إلى قتاله الحسن بن قنون في قبائل البربر... فقتل فيها محمد بن القاسم؛ قائد الحكم المستنصر؛ وقتل معه خلق كثير من أصحابه؛ وفر الباقون فدخلوا سبتة)). الأنيس المطرب. ص: 57.

[1] المقتبس في أخبار بلد الأندلس؛ تحقيق عبد الرحمن علي الحجي؛ ص: 96.

ـ أولا: حسن اختيار القيادة المكلفة بمهمة الحرب في أرض العدوة. حيث أسند المستنصر هذه المهمة العظيمة إلى قائد محنك؛ وخبير بالشئون العسكرية والقتالية. وهو الوزير القائد غالب بن عبد الرحمن ـ مولى الخليفة الناصر لدين الله؛ وصاحب مدينة سالم والثغر الأعلى. ويعتبر هذا القائد من أهم أمراء الجيش الأموي ـ آنئذ ـ إذ لا تسند إليه ـ في العادة ـ إلا المهمات الصعبة والخطيرة. ووصفه ابن خلدون بقوله: ((**البعيد الصيت، المعروف بالشهامة**)).[1]

ـ ثانيا: إعداد خطة محكمة لقتال الحسن بن قنون. لأنه من خلال تجربة الوقائع الأولى؛ ثبت عدم صلاحية الخطط المتبعة فيها؛ بسبب ما شابها من ارتجال واستخفاف بالعدو. لذلك فقد أخذ الخليفة الحكم بعض الوقت لنفسه؛ بهدف التفكير والتشاور وضبط الخطة القتالية التي ستتبع؛ قبل أن يغامر مرة أخرى. وحتى قواته التي مازالت متمركزة في بلاد العدوة؛ فقد أرسل لهم أمرا باجتناب الاشتباك مع قوات حسن بن قنون؛ وأن ينتظروا الأوامر الجديدة.[2] ولما كان الحسن بن قنون قد اعتمد حرب الكر والفر؛ التي تعرف الآن بحرب العصابات؛ فقد كان على المستنصر ومعاونيه أن يبلوروا خطة عسكرية فعالة؛ حتى يتمكنوا من كسر عنفوان وشدة الهجمات؛ التي اعتاد الحسن بن قنون شنها على حين غرة. ومن هنا فقد وجدوا أنه من الضروري كسب ولاء القبائل الأمازيغية؛ المنتشرة عبر بلاد العدوة. لأنه أصبح من الضروري؛ عزل الحسن بن قنون عن

---

[1] العبر، مج: 6، ص: 451. أما ابن أبي زرع فيقول: ((فبعث إليهم قائد عسكره وصاحب حروبه غالبا مولاه. وكان غالب على غاية من الحزم والنجدة والدهاء والإقدام)). الأنيس المطرب، ص: 57.

[2] في هذا يقول ابن حيان: ((فتضمن الجواب إليهم [أي جواب الخليفة المستنصر إلى قواده في بر العدوة] أن الرأي؛ ترك الحركة إليه [أي إلى الحسن] والتعرض لحربه؛ حتى يلحق بهم الوزير القائد الأعلى غالب بالقوة إن شاء الله)). المقتبس في أخبار بلد الأندلس؛ تحقيق: عبد الرحمن علي الحجي، ص: 103.

أنصاره؛ بغرض إفشال خططه وإرباكه.[1]

ـ ثالثا: حشد القوات المقاتلة بثبات وتأني؛ بحيث يتم اختيار الرجال الأكفاء؛ وتوفير العدد الكافي. وهذا ما تم بالفعل؛ إذ عمل الخليفة المستنصر ـ هذه المرة ـ على حشد عدد كبير من الجند؛ جلبوا من الثغر الأعلى؛ بالإضافة إلى غيرهم ممن كانوا في قرطبة ونواحيها. كما تميز التحضير بالروية ودقة الإعداد؛ بحيث تطلب التحضير ـ لهذه الحملة ـ ثلاثة أو أربعة أشهر تقريبا؛[2] قد يكون ذلك تم ابتداء من شهر جمادى الثانية إلى منتصف شهر رمضان؛ الذي ركب فيه القائد غالب بن عبد الرحمن الأسطول ـ بجيشه ـ متجها إلى طنجة.[3] ومع ذلك لم يتوقف مدد المستنصر لجيش غالب بالعساكر والمال والعتاد

[1] يتضمن كتاب المقتبس عينات كثيرة مبعثرة في صفحاته بخصوص العطايا والهدايا التي يقدمها المستنصر وأعوانه لرؤساء القبائل الأمازيغية؛ لكي يستميلهم إليه ويضمن طاعتهم وولاءهم. وفيما يلي نص لابن أبي زرع يقول فيه: ((فأعطاه الحكم [أي أعطى إلى غالب] أموالا جليلة، وعددا كثيرة، وجيوشا وافرة؛ وأمره بقتال العلويين، واستنزالهم من معاقلهم؛ وقال له عند وداعه: " يا غالب سر مسير من أذن له بالرجوع حيا إلا منصورا أو ميتا معذورا؛ ولا تشح بالمال، وابسط يدك به يتبعك الناس)). الأنيس المطرب، ص: 57.

[2] قال ابن أبي زرع: ((فخرج غالب بالعساكر والجيوش والعدد والأموال من قرطبة في أخر شوال من سنة اثنتين وستين وثلاثمائة)). الأنيس المطرب، ص: 57.

[3] قال ابن حيان: ((وفي جمادى الأخرة احتل الوزير القائد الأعلى غالب بن عبد الرحمن بمحلة فحص السرادق ـ شرقي قرطبة ـ مستدعىً من مولاه الخليفة الحكم؛ مهيبا به لحرب الغوي حسن بن قنون؛ المنازع له عمله بأرض العدوة؛ عندما تفاقم أمره، وأعيا مراسه، وأثخن في قتل الجند، وانتحل ولاية الدعي الشيعي معد. فاضطرب غالب بمحلته تلك ـ يومئذ ـ في يومين في الدّهم [أي العدد الكثير] الذين أمر باستنفارهم؛ من حشد الثغر الأعلى إلى من استنهضهم من جيش السلطان لديه؛ ثم تقدم بهم في اليوم الثالث إلى الزهراء وطن الخليفة مولاه؛ مشتقا قرطبة؛ واجتهر أهلها من احتفال جيشه، واكتمال عدده واطراد ترتيبه ما امتلأت به قلوبهم فرحا، وشمخت له أنوفهم عزا. وأقام بقرطبة اياما؛ اتصل فيها عمل السلطان ورجاله في تجهيزه، وإزاحة علله، وتقوية أيده؛ إلى أن بلغ منه ما ارتضاه؛ ففصل عند ذلك في جموعه يوم الثلاثاء لتسع خلون من رجب منها)). ((وفي هذا الوقت [أي شهر رمضان] ورد الخبر بركوب الوزير القائد الأعلى غالب ابن عبد الرحمن البحر في الأسطول؛ من مدينة الجزيرة؛ فرضة المجاز إلى بلد الأندلس؛ بعد طول مقامه فيها؛ بعد أن استكمل أهبته فيها؛ وقدم إجازة الأجناد والخيل والأثقال والات الحروب؛ فتوافت الى هناك كاملة؛ وإن ركوبه من الجزيرة كان في يوم الأحد لاحدى عشرة ليلة خلت من شهر رمضان منها؛ وأقلع رافعا إلى جهة طنجة من أرض العدوة)). المقتبس في أخبار بلد الاندلس، ص ص: 102. 115.

الحربي؛ بل استمر ذلك الخليفة الحازم في إرسال التعزيزات وراء التعزيزات؛ دون تحفظ أو تردد.[1]

ـ رابعا: تخصيص أكبر قدر من الأموال؛ لصرفها على جيش الخلافة، أو الاستعانة بها في حملة واسعة؛ قررت لاستمالة وكسب ولاء القبائل الأمازيغية المتعاطفة مع الحسن بن قنون. ومن يتصفح كتاب المقتبس في أخبار بلد الأندلس لابن حيان؛ سيلاحظ ـ بلا شك ـ ما كان يبعث به المستنصر ـ بدون تحفظ ـ من أموال ضخمة وتحف ثمينة، وعتاد حربي، إلى غالب بن عبد الرحمن؛ لكي يعزز بها قوته العسكرية، ويستميل بها القبائل المناصرة للحسن بن قنون.[2]

ـ خامسا: تكثيف عمل الاستخبارات، وبث الجواسيس بشكل واسع؛ لتتبع حركة العدو، ومعرفة نواياه؛ وبث الإشاعات الهدامة في صفوف قواته وأنصاره.[3]

---

[1] وهاتان عينتان لذلك: ((وورد كتاب صاحب الشرطة وقائد البحر عبد الرحمن بن رماحس؛ يذكر حركته بالأسطول إلى أصيلا؛ لما في القرب من الوزير القائد الأعلى واجتماع الأسطولين من صواب التدبير، والأخذ بالحزم... وأرسلت إليه [إلى غالب] كسي فخمة، وسرج وألجم محلاة؛ ففضها فيمن جاءه من الرؤساء)). المقتبس، 116. ((فلما كان يوم الإثنين لسبع منه [من ذي القعدة] خرج الوزير القائد يحيي بن محمد بن هاشم من قرطبة؛ نافذا إلى العدوة؛ خروجا ظاهرا؛ بين يديه التعبئة الكاملة، والترتيب المنظوم؛ وخرج بخروجه اخوته المتقدمة تسميتهم، وبنو عمه التجيبيون؛ في عسكر ضخم؛ ممن ضم إليه من طبقات الأجناد؛ وفيهم قطع من العبيد الرماة، ومن الرماة الأحرار، وغيرهم من جند المملكة؛ راق إبصارهم النظارة؛ فاحتل يومه ذلك على نهز شوش. وخرج بخروجه الخازن أحمد بن محمد بن حاجب؛ وبين يديه ستة عشر حملا من المال العين، وعدة أحمال من الكسي الفخمة، والسيوف الحالية المرسلة إلى الوزير القائد غالب بن عبد الرحمن لفضها فيمن يستأمن إليه من أكابر البرابرة)). المقتبس، ص129.

[2] أنظر المقتبس، ص ص: 106. 108. 109. 110. 111. 115. 116. 123. 128. 129. 130. 131. 132. 133. 135. 139. 151.

[3] مما جاء في رسالة المستنصر لقادته بأرض العدوة يوصيهم بالإصرار على المقاومة: ((إن أفضل ما احتمل عليه، وعمل به، استشعار الحزم، وإدراع التحفظ، واستنصاح الاتهام، وإذكاء العيون. وبث الجواسيس والاستكثار منهم ومن حملة الأخبار؛ حتى لا يخفى لحسن ـ أهلكه الله ـ حركة، ولا يتوارى له مذهب)). المقتبس في أخبار بلد الأندلس، ص: 97. ومن جهة أخرى؛ حتى الحسن بن قنون كانت له عيون وجواسيس في صفوف الأمويين؛ ومن الشواهد على هذا ما قاله ابن حيان: ((فقدم الأدلاء والنزّاع في قطيع من الخيل نحوه [أي نحو الحسن]؛ كمنوا على الناحية وتفرقوا في جهاتها وتقطعوا في نواحيها؛ فانملص منهم جاسوس خالطهم لم يشعروا به؛ وأتى إلى الحسن؛ فأعلمه بخبر العسكر=

ـ سادسا: مراعاة العوامل النفسية، واعتماد سياسة إعلامية محكمة للتأثير على أنصار الحسن بن قنون، وبث روح الكراهية له بين عامة المسلمين. ويتجلى هذا العمل في الميدان النفسي؛ من خلال ما حصل من عروض عسكرية؛ أقيمت عند تقدم الجيش نحو الزهراء، ودخوله مدينة قرطبة في مظاهرة ضخمة، بغرض إضفاء هالة كثيفة من الهيبة والأبهة على قيادة غالب بن عبد الرحمن؛ وأهم دليل على ذلك؛ ما قام به المستنصر حين بعث إلى هذا القائد بقبة القيادة الحمراء.[1] أما الجانب الإعلامي فقد تولاه ــ في غالب الأحيان ــ الشعراء، وأئمة المساجد. ويتجلى ذلك من خلال القصائد الكثيرة التي قيلت في المناسبات كلها، وكانت مليئة بالهجاء والسخرية من الحسن بن قنون.[2] كما أن إضافة كلمة (ملحد) إلى اسم الحسن ـ كلما ذكر ـ يدل على ما كان يستهدفه أعداءه من بث الكراهية له بين عامة الناس.

وهكذا فقد حظيت هذه الحملة الحربية المنظمة بنجاح كبير؛ إذ حققت أهدافها المسطرة لها. وتمكن غالب بن عبد الرحمن من عزل الحسن بن قنون، وشل حركته نهائيا؛ مما اضطره إلى الإذعان والاستسلام والقبول بشروط الأمويين. وعليه فقد سلم نفسه في سنة 363هـ (973م).[3] حيث تم نقله ـ مع أهله

=المتقرب، وبما ينوي؛ فازعج من وقته، وركب مع ولده وأهله وجميع من كان معه ـ من فارس وراجل ـ وأحاط بالجبل الذي ظن أنه يوتى منه...)). المقتبس، ص: 140.

[1] وعنها قال ابن حيان: ((وفي هذا الوقت أرسل الخليفة المستنصر بالله إلى الوزير القائد الاعلى غالب بن عبد الرحمن بالقبة الحمراء الفخمة المرأى، البديعة الصنعة؛ التي أمر باتخاذها له على حدَه، ووصفه كيما يرفعه وسط محلته، ويكون نزوله وقعوده فيها؛ اسماء لقدره، ورغما لقلب عدوه؛ وكانت غريبة الابتداع، عجيبة الاختراع، لها منظر رانق، ومرأى فانق؛ جرى في اتخاذها كلام كثير)). المقتبس ص: 116.

[2] يدخل في هذا السياق ما ذكره ابن حيان عن طلب غالب بن عبد الرحمن من الخليفة المستنصر إمداده بالشاعر محمد بن حسين التميمي المعروف بالطبني؛ لكي يستعين به في حربه الاعلامية ضد عدوه. وبالفعل لم يتردد الخليفة المستنصر في إرساله إلى بر العدوة. انظر المقتبس، ص ص: 108 ـ 109.

[3] قال ابن أبي زرع: ((وأخرج غالب الأموال؛ فبعث بها إلى روساء البربر الذين مع الحسن بن كنون؛ ووعدهم، وأمنهم؛ ففروا عن الحسن وأسلموه؛ حتى لم يبق معه إلا=

وحاشيته ـ إلى قرطبة؛ أين بقي فيها إلى سنة 365هـ (975م)؛ سنة إجلائه ـ مع أهله أيضا ـ إلى مصر؛ نظرا لما حدث بينه وبين المستنصر من جفاء؛ بسبب قطعة من العنبر؛ رفض الحسن بن قنون التنازل عنها للحكم؛ الذي يقال أنها أعجبته وطمع فيها. فكان رد فعل المستنصر عنيفا؛ إذ استولى عليها وعلى أموال الحسن وأهله بالقوة؛ ثم أجلاهم جميعا إلى مصر.[1] ويبدو من هذا التصرف؛ أن المستنصر كان يترصد أقرب فرصة لكي يتخلص من الحسن وأهله. ذلك أنه ـ كما يقال ـ أثقله بالتكاليف المادية التي كانت تصرف عليه وعلى عائلته.

ـ حكومة الحسن بن قنون الثانية بفاس:

ومن مصر بدأ الحسن بن قنون مرحلة جديدة لاستعادة ملكه وملك آبائه. وقد وجد تجاوبا وحماسا من طرف الخليفة الفاطمي نزار بن معد؛ الذي أرسله في سنة 373هـ(983م) ـ مع توصية ـ إلى بلغين بن زيري في إفريقية؛ طالبا منه مساعدته

=خاصته ورجاله؛ فلما رأى ذلك سار إلى حصن حجر النسر؛ فتحصن فيه؛ وأتبعه غالب فحاصره به، ونزل بجميع جيوشه عليه، وقطع عنه المواد؛ وأمده الحكم بالعرب الذين ببلاد الأندلس كافة، ورجال الثغور؛ فوصل المدد إلى غالب غرة محرم سنة ثلاث وستين وثلاثمائة؛ فاشتد الحصار على الحسن بن كنون؛ فطلب من غالب الأمان على نفسه وأهله وماله ورجاله؛ وينزل إليه؛ فيسير معه إلى قرطبة؛ فيكون بها؛ فأجابه غالب إلى ذلك، وعاهده عليه. فنزل الحسن بأهله وماله ورجاله؛ وأسلم الحصن إلى غالب فملكه؛ واستنزل غالب جميع العلويين الذين بأرض العدوة من معاقلهم، وأخرجهم عن أوطانهم؛ ولم يترك في العدوة رئيسا منهم)). الأنيس المطرب، ص: 57.

[1] يقول ابن أبي زرع: ((وكان له [أي الحسن بن قنون] قطعة عنبر غريبة الشكل، كثيرة الجرم؛ ظفر بها في بعض سواحله من بلاد العدوة أيام ملكه بها؛ فسواها منشورة يتوسد بها؛ فبلغ أمير المؤمنين الحكم خبرها؛ فسأله حملها إليه، وضمها إلى ذخائره؛ على أن يرضيه عنها بحكمه؛ فامتنع من ذلك، وأبى أن يسلمها إليه؛ فنكبه عليها؛ وأخذ أمواله. وسلبه من جميعها، وأخذ القطعة؛ فبقيت في خزانته إلى أن ظهر علي بن حمود الحسني ـ على ملك الاندلس ـ ودخل قرطبة، وسكن القصر، وظفر ببني أمية؛ فأصاب تلك العنبرة متاع ابن عمه الحسن في الخزانة؛ قد أعلقتها الأيام؛ حتى صارت إلى أيدي العلوية اربابها. ولما نكب الحكم الحسن بن كنون، وأخذ أمواله؛ أمر به وبالعلوية؛ فأخرجوهم عن قرطبة، وأجلاهم إلى المشرق؛ فجازوا من المرية إلى تونس؛ ليستريح من نفقاتهم؛ وذلك في سنة خمس وستين وثلاثمائة؛ فسار الحسن وبنو عمه إلى مصر؛ فنزلوا على نزار بن معد؛ وبالغ في إكرامهم، ووعد للحسن النصرة)). الأنيس المطرب، ص: 58.

على استعادة ملكه في فاس. وبالفعل فقد أمده زيري بثلاثة آلاف فارس؛ رافقوه إلى المغرب الأقصى؛ حيث تمكن بواسطتهم من احتلال مدينة فاس؛ وإعلان قيام الدولة الإدريسية فيها من جديد. وذلك في السنة نفسها. وبادرت قبائل أمازيغية عديدة بإعلان طاعتها وانقيادها للدولة الإدريسية العائدة إلى أحضان المغرب.

ولما بلغ الخبر إلى المنصور بن أبي عامر ـ حاجب الخليفة الأموي هشام المؤيد ـ سارع في الحال إلى إرسال ابن عمه الوزير عمر بن عبد الله بن أبي عامر؛ على رأس جيش ضخم؛ بغرض محاربة الحسن بن قنون. ولم يقف الحاجب المنصور عند هذا الحد؛ بل أرسل أيضا ولده عبد الملك في جيش كثيف أيضا؛ بهدف دعم المجهود الحربي، وتعزيز صفوف الوزير عمر. ولما تكاثرت الجيوش على الحسن بن قنون؛ وضاقت به السبل؛ طلب من الوزير عمر الأمان؛ على أن يذهب إلى الأندلس؛ ولما أعلم المنصور بذلك؛ تظاهر بالمصادقة على الأمان الذي أعطاه الوزير عمر؛ وطلب منه الإسراع بإرسال الحسن إلى قرطبة. وفي طريقه إليها بعث من اغتاله؛ في جمادى الأولى من سنة 375هـ(985م). وبذلك طويت صفحة الدولة الإدريسية المستقلة نهائيا ببلاد المغرب؛ على أنها ظهرت في ثوب جديد ببلاد الأندلس؛ بعد سقوط الدولة الأموية.

وفي حال مقابلة الدولة الإدريسية بالدولة الفاطمية؛ سيتجلى ضعف الدولة الإدريسية، وقصورها، وانكماش نفوذها. ويرجع ذلك إلى عجزها عن تحقيق بعض الشروط؛ التي تمكنت الدولة الفاطمية من تحقيقها. أهمها: قوة العصبية، وكثرة الأتباع، وفعالية الدعوة الدينية. فعصبية الأدارسة كانت ضعيفة أمام عصبية الفاطميين. وأتباع الأدارسة أيضا قليلون. كما أنهم يفتقرون إلى دعاة أكفاء، وتعاليم مذهبية تشكل قاعدة فكرية، ذات شحنات نفسية؛ تنمي الحماس وتشحذ الهمم؛ في سبيل تحقيق أهداف الدولة. فالدولة تحتاج ـ لتعزيز قوتها ـ إلى قدرة نافذة،

وتحكم دقيق في سير سياسة الدعوة والدعاة. فبفضل ذلك توفر الدولة الأنصار الأوفياء، وتحقق التزامهم المستميت بأهدافها، وتفانيهم في خدمتها وحماية مؤسساتها. وهذه العوامل كلها توفرت للفاطميين؛ وافتقر إليها الأدارسة؛ وبذلك عظمت الدولة الأولى؛ بل امتد نفوذها حتى شمل الأدارسة أنفسهم.

۞۞۞

- الحضارة والنشاط الثقافي:

أما إنجازات الدولة الإدريسية: العمرانية منها والثقافية؛ فيبدو أنها كانت بالمغرب - هي الأخرى - قاصرة ومحدودة أمام إنجازات الدولة الفاطمية. إذ أن أبرز أعمال الأدارسة تتجلى في مدينة فاس؛ تلك المدينة التي أضحت - في عهدهم - مركزا هاما؛ يستقطب نشاطات عديدة منها: ما هو عمراني، وما هو ثقافي؛ بالإضافة إلى الدور الاقتصادي الهام؛ الذي أضحت تتميز به مدينة فاس في تلك الربوع.[1] وقد تضمنت الكتب التالية:

---

[1] يقول ابن خلدون واصفا عهد الأمير يحيى بن محمد بن إدريس في فاس: ((وعظمت دولته، وحسنت آثار أيامه، واستجدت فاس في العمران، وبنيت بها الحمامات، والفنادق للتجار. وبنيت الأرباض. ورحل إليها الناس من الثغور القاصية. واتفق أن نزلتها امرأة من أهل القيروان تسمى أم البنين؛ بنت محمد الفهري - وقال ابن أبي زرع اسمها فاطمة، وأنها من هوارة - وكانت مثرية بموروث أفادته من ذويها، واعتزمت على صرفه في وجوه الخير؛ فاختطت المسجد الجامع بعدوة القرويين؛ أصغر ما كان سنة خمس وأربعين [ومائتين]؛ في أرض بيضاء كان أقطعها الامام إدريس، وأنبطت بصحنها بئرا شرابا للناس؛ فكأنما نبهت بذلك عزائم الملوك من بعدها؛ ونقلت إليه الخطبة من جامع إدريس؛ لضيق محلته. وجوار بيته)). العبر. مج: 4، ص: 29. ومما قاله أيضا ابن أبي زرع عن فاس: ((وهي قاعدة بلاد المغرب، وقطرها ومركزها، وقطبها؛ وهي ملك الأدارسة الحسنيين؛ الذين اختطوها... وبها منازل مونقة، وبساتين مشرقة، ورياض مورقة، وأسواق مرتبة)).((وكان أهل عدوة الأندلس أهل نجدة وشدة؛ وأكثرهم ينتحل الحراث والفلاحة؛ وأهل عدوة القرويين أهل رفاهة، ونخوة في البناء، واللباس، والفرش والمطعم، والمشرب؛ وأكثرهم صناع وتجار)).((فأقامت مدينتي فاس [عدوة القرويين، وعدوة الأندلسيين] على ما بناه [أي إدريس] طول مدته، وأيام ولده من بعده؛ إلى أيام زناتة؛ فكثرت العمارات بها. وبنيت الأرباض عليها، واتصل البناء حولها من كل جهة؛ فبنيت بها الفناديق. والحمامات، والأرحا، والمساجد والاسواق؛ من باب إفريقية إلى عين ايصيلن)). الأنيس المطرب. ص ص: 15 - 16. 23. 25.

ـ المغرب للبكري، ونزهة المشتاق للإدريسي، والأنيس المطرب بروض القرطاس لابن أبي زرع، ودولة الأدارسة لإسماعيل العربي، ــ معلومات لا بأس بها؛ تخص الإنجازات العمرانية ـ الدينية منها والثقافية ــ التي تمت في عهد الأدارسة بفاس. ويظهر أن تحولا كبيرا حدث في المظهر الحضاري والثقافي لهذه الدولة؛ بدءا بتوافد عدد من المهاجرين العرب؛ ذوي الثقافة الرفيعة، والصناعة المحكمة، والإبداع والابتكار غير المسبوقين في تلك البلاد: قدم أولئك العلماء والمثقفون والفقهاء من القيروان، ومن قرطبة؛ بعد حادثة الربض فيها. حيث تمركز القيروانيون في الموضع الذي عرف بعدوة القرويين؛ بينما سكن القرطبيون بعدوة الأندلسيين.

ونتيجة لهذا التقسيم السكاني أخذت تظهر عليهم بعض الفروق الثقافية؛ التي ميزت كل فئة بمميزات خاصة اشتهروا بها. ويمكن اعتبار أهم إنجازين عمرانيين شيدا ــ آنئذ ــ بالعدوتين؛ هما المسجدان اللذين بنتهما الأختان الوافدتان من القيروان: فاطمة المعروفة بأم البنين، وأختها مريم: بنتي محمد الفهري؛ إذ بَنَتْ فاطمة جامع القيرويين في سنة 245هـ(859م)؛ أي في عهد الأمير يحيى بن محمد بن إدريس. وبَنَتْ ـ أيضا ــ أختها مريم جامع الأندلس. وكان بالعدوتين جامعين بناهما ـ قبل ذلك العهد ـ إدريس بن إدريس؛ وهما: جامع الشرفاء بعدوة القرويين، والثاني جامع الأشياخ بعدوة الأندلسيين. ومع مرور الوقت قدر لمسجد القرويين ــ الذي بنته فاطمة الفهرية ــ أن يكون أهم معلم ثقافي بالمغرب الأقصى؛ إذ تحول ـ مع الأيام ــ إلى جامعة كبرى، ومركز إشعاع ثقافي وديني في منتهى الأهمية. حيث تخرج منه عدد كبير جدا من الفقهاء والأدباء؛ الذين تركوا بصماتهم في ثقافة المغرب عبر العصور.

وما يمكن الاستشهاد به من نصوص أدبية؛ ترجع إلى الفترة الزمنية التي أظلت الدولة الإدريسية؛ ليس بالشيء الكثير؛

من حيث الكيف والكم. من ذلك ـ مثلا ـ ما ورد في بعض المصادر من نصوص شعرية ونثرية نسبت إلى الملوك الأدارسة؛ وإلى الأدباء المقيمين أو الوافدين إلى بلاط الدولة الإدريسية. فهذا ـ على سبيل المثال ـ نص قصير جدا من خطبة قالها إدريس الأول عندما بويع بالإمامة؛ قال فيها: ((**بعد حمد الله، والصلاة على نبيه، لا تمدّن الأعناق إلى غيرنا؛ فإن الذي تجدونه عندنا من الحق لا تجدونه عند غيرنا**)).[1] أما إدريس بن إدريس؛ فيختلف حاله بعض الشيء؛ إذ وصلت إلينا بعض النصوص المنسوبة إليه؛ فإن صح ذلك؛ فذاك شاهد على مكانته الشخصية في ميدان الأدب؛ وإن لم تصح نسبتها إليه فهي بدون شك تعطي صورة لما كان عليه بلاط الدولة الإدريسية في هذا المجال. ومن خلال تلك النصوص يمكن تحديد فكرة ـ ولو متواضعة ـ على المستوى الأدبي لهذا الملك من جهة، والمستوى الذي كان عليه الأدباء في تلك الدولة أو القادمين إليها من جهات أخرى. ومن الشعر المنسوب إلى إدريس الثاني هذه المقاطع:[2]

لَوْ مَالَ صَبْرِي بِصَبْرِ النَّاسِ كُلِّهِمُ
لَضَلَّ فِي رَوْعَتِي أَوْ ضَلَّ فِي جَزَعِي
وَمَا أَرِيعُ إِلَى يَأْسٍ لِيُسْلِيَنِي
ألا [..........] يَأس إلى طَمَعِ
وَكَيْفَ يَصْبِرُ مَطْوِيٌّ هَضَائِمُهُ
عَلَى وَسْوَاسِ هَمٍّ غَيْرِ مُنْقَطِعِ
إذَا الهُمُومُ تَوَافَتْ بَعْدَ هَجْعَتِهِ
كَرَّتْ عَلَيْهِ بِكَأْسٍ مُرَّةِ الجُرَعِ

---

[1] العبر، مج: 4، ص: 24.

[2] قد يشك بعضهم في صحة إسناد هذه النصوص إلى إدريس؛ غير أن المهم هنا هو تقديم عينة من النصوص الأدبية التي قيلت في ذلك الوقت؛ ولا يهم ـ في هذه الحال ـ إن كان قائلها هو إدريس نفسه، أو قيلت نيابة عنه؛ من طرف أدباء كانوا في بلاط دولته.

بَـانَ الأحِبَّـةُ واسْتَـبْدَلْـتُ بَعْـدَهُـمُ
هَمـاً مُقِيمـاً وَشَمْـلاً غَيْـرَ مُجْتَمِعِ
كَأنّي حِيـنَ يُجْـرِي الـهَـمُّ ذِكْـرَهُـمُ
عَلى ضَمِيـرِي مَخْبُـولٌ مِنَ الـفَـزَعِ
تَـأوِي هُمُـومِـي إذْ حَرَّكْـتُ ذِكْـرَهُـمُ
إلَـى جَـوَانِـحِ جِـسْمٍ دَائِـمِ الـوَلَـعِ

كما بعث بأبيات ـ نسبتها المصادر إليه ـ محذرا شيخ قبيلة مطغرة بهلول بن عبد الواحد من مغبة انسياقه في المؤامرة التي يحوك خيوطها إبراهيم بن الأغلب؛ فقال:

أبَـهْلُـولُ قَـدْ شَـمَّـمْـتَ نَـفْـسَكَ خُطَّـةً
تَـبَـدَّلْـتَ مِـنْـهَـا ضَلَـةً بِـرَشَـادِ
أضَلَّـكَ إبْـرَاهِـيمُ مِنْ بُـعْـدِ دَارِهِ
فَـأصْـبَـحْـتَ مُـنْـقَـاداً بِـغَـيْـرِ قِـيَـادِ
كَـأنَّـكَ لَـمْ تَـسْمَـعْ بِمَكْـرِ ابْـنِ أغْـلَـبٍ
وَقِـدْماً رَمَـى بِالْـكَـيْـدِ كُـلَّ بِـلاَدِ
وَمِنْ دُونِ مَـا مَـنَّـتْـكَ نَـفْـسُـكَ خَـالِـيـاً
وَمَـنَّـاكَ إبْـرَاهِـيـمُ شَـوْكُ قَـتَـادِ

وثمة أبيات أخرى نسبت إليه أيضا؛ وهي موجهة إلى ابن الأغلب؛ يقول فيها:

أذَكِّـرُ إبْـرَاهِيـمَ حَـقَّ مُـحَـمَّـدٍ
وَعِـتْـرَتِـهِ وَالـحَـقُّ خَـيْـرُ مَقُـولِ
وَأدْعُـوهُ لِـلأمْـرِ الَّـذِي فِـيـهِ رُشْـدُهُ
وَمَـا هُـوَ لَـوْلاَ رَأيُـهُ بِـجَـهُـولِ

فَـإنْ آثَــرَ الـدُّنْـيَــا فَـإنَّ أمَــامَــهُ
زَلاَزِلُ يَــوْمٍ لِلْـعِـقَــابِ طَـوِيـلِ

ومما نسب إليه من نثر؛ هذه الخطبة التي ألقاها يوم بيعته في سنة 188هـ (803م)؛ وجاء فيها: ((الحمد الله، أحمده وأستغفره، وأستعين به، وأتوكل عليه، وأعوذ به من شرّ نفسي، ومن شر كل ذي شر، وأشهد أن لا إله إلا الله، وأنّ محمداً عبده ورسوله المبعوث إلى الثقلين بشيراً ونذيراً، وداعيا إلى الله بإذنه، وسراجا منيرا، صلى الله عليه وعلى آلِ بيته الطاهرين الذين أذهب الله عنهم الرجس، وطهرهم تطهيراً. أيها الناس: إنا قد ولّينا هذا الأمر الذي يضاعف فيه للمحسن الأجر، وعلى المسيء الوزر، ونحن والحمد لله على قصد جميل، فلا تمدوا الأعناق إلى غيرنا، فإن الذي تطلبونه من إقامة الحق إنما تجدونه عندنا)).[1]

وورد في المصادر أيضا قصيدة شعرية نسبت إلى القاسم ابن إدريس صاحب سبتة وطنجة؛ بعث بها إلى أخيه محمد يعتذر فيها عن تنفيذ أمر وجه إليه من طرفه؛ يطلب فيه تأديب أخيهما عيسى صاحب شالة وتامسنا. وفي هذه القصيدة يقول القاسم:

سَأتْـرُكُ لِلـرَّاغِـبِ الـغَـرْبَ نَـهْـبـاً
وَإنْ كُـنْـتُ فِي الـغَـرْبِ قَـيـلاً وَنَـدْبَـا
وَأسْـمُـو إلَـى الـشَّــرقِ فِـي هِـمَّــةٍ
يَـعِــزُّ بِـهَـا رُتَـبــاً مَـنْ أحَـبَّـا
وَأتْــرُكُ عِـيـسَى عَلَـى رَأيِـــهِ
يُـعَـالِــجُ فِـي الـغَـرْبِ هَـمًّـا وَكَـرْبَـا

---

[1] الأدب المغربي، ص ص: 121 ـ 122. وكما يظهر فقد اقتبس هذه العبارة الأخيرة من خطبة أبيه. راجع ما سبق.

وَلَوْ كَانَ قَلْبِي عَن قَلْبِهِ
لَكُنْتُ لَهُ فِي القَرَابَةِ قَلْبَا
وَإنْ أحْدَثَ الدَّهْرُ مِنْ رَيْبِهِ
شِقَاقاً عَلَيْنَا وَأحْدَثَ حَرْبَا
فَإنّي أرَى البُعْدَ سِتْراً لَنَا
يُجَدِّدُ شَوقاً لَدَيْنَا وَحُبَّا
وَلَمْ نَجْنِ قَطْعاً لأرْحَامِنَا
نُلاقِي بِهِ آخِرَ الدَّهْرِ عَتْبَا
وَتَبْقَى العَدَاوَةُ فِي عَقْبِنَا
وَأكْرِمْ بِهِ حِينَ نَعْقِبُ عَقْبَا
وَأوفَقُ مِنْ ذَاكَ جَوْبُ الفَلاَةِ
وَقَطْعِ المَخَارِمِ نَقْباً فَنَقْبَا

هذا عن ملوك وأمراء الدولة الإدريسية؛ أما الأدباء والشعراء من عامة الناس؛ فالمعلومات عنهم ـ هي الأخرى ـ شحيحة للغاية؛ ومع هذا يمكن الاستشهاد ببعض العينات المتناثرة في عدد من المصادر والمراجع. وكمثال على ذلك يأتي: أحمد ابن القاسم بن إدريس وأبو العيش عيسى بن إبراهيم بن القاسم ابن إدريس أميرا البَصْرة (أو كرت كما تسمى أيضا) في مقدمة الذين يهتمون بالأدب والشعر؛ إذ كانا يستقبلان في مجالسهما الشعراء من كل الأقطار؛ ويقصدهما الشعراء والأدباء من ربوع المغرب والأندلس كلها؛ حيث كانوا يتوافدون إلى مجالسهما الثرية الزاهية. ويفهم من بعض المصادر أن بكر بن حماد الزناتي التاهرتي كان يراسل أحمد بن القاسم ـ إن لم يكن قد زاره في بلاطه ببصرة ـ ويمدحه بقصائد كثيرة؛ لم يصلنا منها إلا هذه القطعة التي يقول فيها:

إنّ السَّمَاحَةَ وَالمُرُوءَةَ وَالنَّدَى
جُمِعُوا لأحْمَدَ مِنْ بَنِي القَاسِمِ

وَإِذَا تَفَاخَرَتِ الْقَبَائِلُ وَانْتَمَتْ
فَافْخَرْ بِفَضْلِ مُحَمَّدٍ وَبِفَاطِمِ
وَبِجَعْفَرِ الطَّيَّارِ فِي دُرَجِ الْعُلَى
وَعَلِيٍّ الْعَضْبِ الْحُسَامِ الصَّارِمِ
إِنِّي لَمُشْتَاقٌ إِلَيْكَ وَإِنَّمَا
يَسْمُوا الْعُقَابُ إِذَا سَمَا بِقَوَادِمِ
فَابْعَثْ إِلَيَّ بِمَرْكَبٍ أَسْمُو بِهِ
عَلِّي أَكُونُ عَلَيْكَ أَوَّلَ قَادِمِ
وَاعْلَمْ بِأَنَّكَ لَنْ تَنَالَ مَحَبَّةً
إِلاَّ بِبَعْضِ مَلاَبِسٍ وَدَرَاهِمِ

وقال ابن عذاري هنا: ((فبعث إليه ببغلة سنية، وصلة جزلة. وكان له فيه أمداح كثيرة)).[1] ويفهم من البيتين الأخيرين أنه ربما يكون زار بلاط أحمد بن القاسم. ومن بين الشعراء الذين وفدوا على أبي العيش عيسى الشاعر التاهرتي أحمد بن الفتح؛ حيث مدحه بقصيدة استهلها ــ كعادة العرب ــ بالنسيب ووصف جمال نساء البصرة؛ فقال:

قَبَّحَ الإِلَهُ اللَّهْوَ إِلاَّ قَيْنَةً
بِصَرِيَّةً فِي حُمْرَةٍ وَبَيَاضِ[2]
الْخَمْرُ فِي لَحَظَاتِهَا وَالْوَرْدُ فِي
وَجَنَاتِهَا، وَالْكَشْحُ غَيْرُ مُفَاضِ
فِي شَكْلِ مَرْجِي، وَنُسْكِ مُهَاجِرٍ
وَعَفَافُ سُنِّيِّ وَسَمْتِ إِبَاضِ

---

[1] البيان المغرب، ج: 1، ص: 236

[2] جاء هذا البيت في الأدب المغربي هكذا: ما حازَ كلُّ الحُسنِ إلاَّ قينة بصرية في خمرةٍ وبياض، ص: 109.

تَاهَرْتُ أنْتِ خَلِيَّةٌ وَبَرِيَّةٌ
عَوَّضْتُ مِنْكِ بِبَصْرَةٍ فَاعْتَاضِ
لاَ عُذْرَ لِلْحَمْرَاءِ فِي كَلَفِي بِهَا[1]
أوْ تَسْتَفِيضَ بِأبْحُرٍ وَحِيَاضِ
مَا عُذْرُهَا وَالْبَحْرُ عِيسَى رَبُّهَا
مَلِكُ الْمُلُوكِ وَرَايِضُ الرُّوَّاضِ

وهذا مقطع قاله شاعر آخر عاش في القرن الرابع الهجري اسمه إبراهيم بن محمد الأصيلي؛ وهو في مدح حيّ من هوارة يعرف ببني زياد؛ كانوا ساكنين حول مدينة أصيلا:

سَقَى غَرْبِيَّ أرْضِ بَنِي زِيَادٍ
سَحَائِبُ مَا يَجِفُّ لَهَا غُرُوبُ
وَلاَ زَالَ النَّعِيمُ يَعُمُّ قَوْماً
إزَاؤُهُمْ مِنَ الشَّرقِ الْكَثِيبُ

ومن شعراء ذلك الزمن الشاعر محمد بن إسحاق المعروف بالبجيلي أو النحيلي؛ وهو القائل في عدوة القرويين بفاس:

يَا عَدْوَةَ الْقَرَوِيِّينَ الَّتِي كَرُمَتْ
لاَزَالَ جَانِبُكِ الْمَخْبُورِ مَسْطُورَا
وَلاَ سَرَى اللَّهُ عَنْكِ ثَوْبَ نِعْمَتِهِ
أرْضٌ تَجَنَّبَتِ الآثَامَ وَالزُّورَا

وقد يكون هذا الشاعر هو الذي سمّاه البكري مرة البجيلي ومرة أخرى النحيلي؛ وقد أورد له أبياتا شعرية مقذعة هجا فيها

[1] الحمراء هنا هي بصرة؛ إتسمى بهذا الاسم أيضا، كما تسمى بصرة الكتاب، وبصرة الذبان. المغرب، ص: 110.

القاسم جنون بن إبراهيم بن محمد بن القاسم بن إدريس؛ وكان قد أخذ منه جارية له يحبها؛ فقال:

أتَرَى سِلاَحَكَ إذْ كَدَدْتَ قَصِيدَتِي
يَنْفِيه سَيْلٌ قَدْ طَمَا مِنْ سَفْسَدِ

إلى قوله:

أبَنِي مُحَمَّدَ الزَّنِيمِ لأنْتُمُ
شَرُّ الوَرَى مِمَّنْ يَرُوحُ وَيَغْتَدِ
إنْ كَانَ جَنُّونُ مِنْ آلِ مُحَمَّدٍ
فَأنَا كَفُورٌ بِالنَّبِيِّ مُحَمَّدِ

أما إبراهيم بن محمد الأصيلي متعرضا لفاس قائلا:

دَخَلْتُ فَاساً وَلِي شَوقٌ إلَى فَاسِ
وَالجُبْنُ يَأخُذُ بِالعَيْنَيْنِ وَالرَّأسِ
فَلَسْتُ أدْخُلُ فَاساً لَوْ حَيِيتُ وَلَوْ
أعْطِيتُ فَاساً بِمَا فِيهَا مِنَ النَّاسِ

وممن هجا فاسا ـ في ذلك الزمن أيضا ـ قاضي تاهرت أحمد بن فتح بقوله:

أسْلِحْ عَلى كُلِّ فَاسِيٍّ مَرَرْتَ بِهِ
فِي العُدْوَتَيْنِ مَعاً لاَ تُبْقِيَنَ أحَدَا
قَومٌ غُذُوا اللُّؤْمَ حَتَّى قَالَ قَائِلُهِمْ
مَنْ لاَ يَكُونُ لَئِيماً لَمْ يَعِشْ رَغَدَا

ومن الشعراء الذين عاشوا في تلك الفترة أيضا محمد بن السمهري الذي هجا القاسم بن إدريس بن إدريس صاحب طنجة بقوله:

قُلْ للزَّنِيمِ زَنِيمِ طَنجَةَ عِشْ بهَا
لاَ يَحْسدَنَّكَ فِي بِلاَدِكَ حَاسِدُ
مَنَّتْكَ نَفسُكَ أنْ تكُونَ خَلِيفَةَ
هَيْهَاتَ هَذا مِنْ حَدِيثِكَ بَارِدُ
لَمَّا رَأيْتُكَ لِلّئَامِ مُصَافِياً
أيْقَنْتُ حَقًّا أنْ جَدَّكَ رَاشِدُ

۞۞۞

تم بحمد الله الجزء الأول ويليه الجزء الثاني بدءاً بدولة بني حمود بقرطبة

فهرس المحتويات

هذا الكتاب

هو قراءة جديدة للأحداث التّاريخية التّي عرفتها ديار المغرب العربي والأندلس خلال الفترة التّي تلت الفتح الإسلامي لهذه الدّيار، وحتّى سقوط الدّولتين الأموية والفاطمية.

يعتمد المنهج الخلدوني الأساس الذّي يفسّر أثر العصبية القبلية كظاهرة اجتماعية سلبية في قيام الدّول وسقوطها والتّي هيمنت على المجتمعات المغربية ردحا طويلا من الزّمن، وما زالت هذه المجتمعات تعاني من أثارها السّلبية حتّى اليوم.

لنستقرأ التّاريخ كمخزون حضاري وثقافي ليس بمعنى التّأريخ فقط وإنّما من أجل تلخيص تجارب الأسلاف ووضعها بين يدي الأجيال الصّاعدة للاستفادة منها وربط الماضي بالحاضر والانطلاق نحو المستقبل بخطا واضحة وثابتة.

يتابع بشكل موضوعي الأدوار التّي قامت بها [illegible] المتواجدة في هذه الدّيار، ومدى تأثيرها في قيام [illegible] وسقوطها ونشاط الحضارة فيها وأفولها.

الناشر